المسلمون

لماذا يكرهوننا؟ ولماذا نكرههم؟

د. عبد الكريم العلوجي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : المسلمون لماذا يكرهوننا؟ ولماذا نكرههم؟

المـــؤلف : د. عبد الكريم العلوجي

رقـم الإيداع : 2010 / 22949

الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى ٢٠١٠



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميـدان حليـــم خلـــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

المقدمة

عندما نتحدث عن العداء الغربي للإسلام يجب علينا أولا أن نقول : إن الغرب هو الذي بدأ بالعدوان السافر من الحروب الصليبية وما بعدها من موجات الاستعمار العسكري التي توالت لأكثر من قرنين.

ثم تبع ذلك هجوم من جانب الكثير من المستشرقين على الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة. الأمر الذي جعل تاريخ العلاقة بين الجانبين منذ الحرب الصليبية يحكمه العداء..

كان الإسلام بالنسبة للغربيين، ديانة السيف والجهاد أو الحرب المقدسة.. بينما كانت المسيحية بالنسبة للمسلمين دين .. الحروب الصليبية وطموحات الهيمنة.

إن تغيير صورة الإسلام والمسلمين في الغرب، مرهون بعوامل عديدة..

أولها : ضرورة تحديد منابع السيل الهادر من الصور السلبية، وبذل جهود لتصحيحها بالوسائل التي تناسب المجتمعات الغربية وباللغة التي يفهمها المواطن الغربي.

وما تعانيه ثقافات الجنوب من هذا الواقع تعاني الثقافة الإسلامية منه النصيب الأكبر. ويشكل الموقف الغربي المنحاز للكيان الصهيوني العقبة الأكبر في طريق قيام علاقات إيجابية بين الطرفين.

لقد صارت الحضارة الغربية، حضارة خوف.. والحضارة التي يدخلها الخوف بهذا الهوس الشديد والمبني بالخصوص على انعدام الثقة في النفس. تدخل في مراحل اندفاعية، ويبقى على الآخرين أن يؤدوا ثمن هذا الاندفاع حتى وجود توازن جديد

في العالم.

فكما نعلم كثر الحديث في السنوات الأخيرة من القرن العشرين عن نهاية الإيديولوجيات ونهاية التاريخ. هذه المقولة التي طرحها الأمريكي من أصل ياباني [فوكوياما] والتي حاول من خلالها أن يستثمر سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية. وانهيار نموذج معين للبناء الاشتراكي يؤكد بذلك أننا نشهد [نهاية التاريخ] ثم سقوط حائط برلين الذي يعد علامة العصر وبداية التحول الكبير في مسار حركة التاريخ.

وبالتزامن مع أطروحات النظام العالمي الجديد وما يسمى [بصراع الحضارات] الذي أطلقه [هنتنغون] سنة ١٩٩٣. والقائم على أن النزاعات الدولية سواء منها الإقليمية أو العالمية ستكون في المستقبل على شكل «صدام حضارات» وليس على شكل «صراع أيديولوجيات».

يرى الدكتور محمد عابد الجابري، أن خطورة كتاب هنتنغون تكمن ما بين «المقدمة» و«النتيجة» ويشغل كل منهما بضعة أسطر لا غير. أما «بؤرة» الموضوع – بالتعبير الأمريكي – فهو «الإسلام» بالدرجة الأولى. والإسلام منذ عقدين من السنين أصبح في الواجهة ، فهو الشغل الشاغل في الغرب. بل العدو الأول. فلماذا الخوف من الإسلام؟ وهل أصبح الخوف سمة العصر الحديث؟

ذكر إدوارد سعيد. أن نتائج دراسته تؤكد تطابق وجهات نظر الخبراء في الدراسات الشرقية والإسلامية في الدوائر العلمية والاستخباراتية عن الإسلام والمسلمين ، والصورة السيئة التي تروج لها وسائل الإعلام الغربي أمور الشرق والإسلام.

وقد أبرزت تلك الدراسات أن الفكرة المركزية التي يحملها الطرفان – الخبراء ووسائل الإعلام – هي أن الإسلام يمثل تهديداً للغرب. وهذا واضح من نظرية

«برجنسكي» من «هلال الأزمات» إلى المستشرق «برنارد لويس» عن عودة الإسلام.

إن الإسلام – بالنسبة لهؤلاء – كما يقول إدوارد سعيد: «يعني نهاية الحضارة الغربية. باعتباره دينا لا إنسانيا وغير ديمقراطي ولا عقلاني» ولذلك فإن الإسلام في وسائل الإعلام – يمثل تهديداً ينبعث من حركة ناهضة لا تحمل خطر العودة إلى القرون فحسب بل وكذلك. إن هذه النظرة للإسلام تتفق مع التفكير الاستشراقي الذي رسخ الاعتقاد بأن «الإسلام لا يمثل منافسا رهيبا فحسب بالنسبة للغرب – بل إنه يمثل كذلك تحدياً متأخرًا للمسيحية.

وعلى هذا، ما تقوم به وسائل الإعلام الغربية من تشويه صورة الإسلام والمسلمين داخل المجتمعات الغربية.

لقد ظهرت الكثير من الأبحاث والكتب التي تبين فضل الأطباء المسلمين على الطب الغربي الحديث. حيث إن الإسلام أول دين يأتي بنظرية علمية واقعية. وغير ذلك من العلوم المعرفية في الفلك والنظريات والثقافة والقوانين الشرعية.

لقد شهد العقد الأخير من القرن العشرين تنامي التيارات الدينية في أوروبا بسبب تزايد الحضور الإسلامي في الغرب. وسجلت هذه التيارات الدينية حضورًا يبعث على القلق. فظهر على سبيل المثال ... قلاميش بلوك في بلجيكا – والحزب القومي البريطاني – وحزب الشعب الدنماركي – والجبهة الوطنية الفرنسية – ورابطة الشمال الإيطالي – وحزب الشعب السويسري.

ولعل العديد من الحكومات الأوروبية اليوم تضم تيارات يمينية ضمانًا للأغلبية البرلمانية. على الرغم من العداء العلني الذي تبديه هذه التيارات للإسلام والمسلمين. وقد ارتفعت العديد من الأصوات في أوروبا تطالب بحماية المصالح

الأوروبية لتحرير خطابها المناوئ للجهد الإسلامي. فبدأت الحملات من الحد من هجرة المسلمين ، وبسن قوانين تحظر الحجاب في المدارس والمؤسسات ، وتشديد قوانين اللجوء.

وصرح المستشرق «برنارد لويس» لصحيفة «دي فيلت» الألمانية بأن أوروبا ستكون جزء أمن المغرب العربي. وليس العكس. لأن التوجهات الحالية تظهر أن أوروبا ستشهد أغلبية مسلمة في نهاية القرن الواحد والعشرين على أقصى تقدير. إذ فضلا عن الأعداد المتزايدة من المهاجرين العرب والمسلمين. فإن الأوروبيين يتأخرون في سن الزواج ولا ينجبون سوى عدد قليل من الأطفال. بعكس مسلمي أوروبا الذين يتزوجون في سن مبكرة.

ومن الدلالات والمؤشرات على تبني الغرب لسياسة معادية للعالم الإسلامي، مما يثير مشاعر التوتر في النفوس، ويعمق الفجوة بين الإسلام والغرب ، وينعكس ذلك بصفة مباشرة على الأوضاع الأمنية ، والاستقرار الاجتماعي خاصة بالنسبة للأقليات الإسلامية التي تعيش في البلدان الغربية.

وعلى العموم فالحرب ضد الإسلام والمسلمين تفهم بالكلمة ، والصورة والصوت وأحيانا كثيرة بالكاريكاتور وكل واحد من هؤلاء يساهم بقدر طاقته العدوانية والعنصرية.

لذا لابد من وجود حوار حضاري وديني وثقافي بين الإسلام والغرب.. وبين الإسلام والمسيحية.. غايته استكشاف كل فريق للفريق الآخر. واحترام كل طرف لعقيدة الآخر.

د. عبد الكريم العلوجي

الفصل الأول

البدايات الأولي للاستعمار الغربي

الإسلام وأوروبا

لأن تحقيق أمل البشرية يتم عبر تكامل الحضارات لا تصادمها.

هذه هي الحقيقة بكل ما ملكته من قوة وجبروت ونفوذ إلى طمسها والترويج لها بالأسلوب الذي يلائم مصالحها الأيديولوجية والسياسية المادية. وقد انبثقت عن سلوك النبذ هذا عقدة العداء الشرس لكل ما تشتم منه رائحة الإسلام. وقد اختلفت أشكال هذا العداء بين مادي الحروب ومواجهتها واستعمارات، ومعنوى أو رمزي من تحريف للمعطيات، وتشويه للحقائق، وإفشاء للأكاذيب وإحداث للأراجيف.

أن العداء المادي يمس زائدة المتجمع في روحه ومرافقه ومعماره، ويترتب عن ذلك شرخ بليغ، لكنه ومع ذلك فقد تتبدل تلك الآثار مع مرور الأيام؛ لأنه بدوران التاريخ يتحول ذلك المجتمع إلى طور آخر من الحياة. ويبلغ مرحلة تاريخية تختلف عن التي سبقتها. فيصبح الحديث عن العداء المادي. أما من باب التذكير أو من باب البكاء على الأطلال غير أنه في علاقة الإسلام بالمسيحية يتخذ الأمر مساراً مغايراً. يبدو فيه الصراع بين الطرفين مستمراً إلى مالا نهاية. يتلبس بمختلف التسميات والمصطلحات [حروب صليبية ـ استعمار ـ صراع الغرب والشرق ـ مواجهة الإرهاب ـ صراع الإسلام والغرب] حتى إننا نشعر بأن المستقبل يعد بمواجهة عظمى بينهما.

أما العداء المعنوي أو الرمزي فيعتري المجتمع في معارفه وأفكاره وحقائقه ومعتقداته، فهو بذلك أشد وطأة من العداء المادي. حقا إن أثر العداء الأول يبدو جليا للعين. التي تشهد القتل والتنكيل والدمار والتخريب. ويحز بشكل عميق في

النفس. التي تحذوها الجراحات والأورام لكن ومع ذلك. فإن كل تلك الملمات والويلات التي تصيب البدن والنفس والمال. لا تعادل طمس حقيقة واحدة من حقائق العقيدة الإسلامية. التي تجد أصلها في كلام الله. أو سنة رسوله الكريم ﷺ وفي هذا الإطار يمكن إدراج خطاب البابا «بنيديكتس» الذي يكشف عن عداء معنوي سافر للإسلام. حيث ينسب في أكثر من موضع من محاضراته سلوكا ما إلى الإسلام. وإن كانت الحقيقة غير ذلك.

وهذا نابع من النظرة العدائية التي تطغى على علاقة الكنيسة بالإسلام. وهي نظرة تحاول أغلب المؤسسات المسيحية تعميمها بين أوساط أنصارها أو مريديها في شتى أنحاء العالم مطعمة إياها بنشر حقائق مغلوطة عن الإسلام، تسري في عقولهم الجاهلية سريان السم في الدم.

ثم إن هذا العداء بتصنيفه المادي والمعنوي يسعى من خلاله إلى التنقيص من شأن الدين الإسلامي بأسلوب يوحي أنه عقلاني. ما دام أنه ينطلق من جملة من المعطيات التي يحسبها المسيحي العادي أمورًا حقيقية. فيسلم بها دون تشكيك أو تردد.

على هذا الأساس يمكن رد الرأي الشائع الذي يقول : بأن الإساءات التي تمارس من وقت لآخر، من لدن الغرب على الإسلام ، إنما هي ناجمة عن جهل أولئك المسيئين بحقيقة وطبيعة هذا الدين. وهذا رأي يعبر إما عن استخفاف الغرب بنا، أو بحق سذاجة من يأخذ به. وقلة معرفته بعلاقة الغرب بالإسلام ، لأن هذا الغرب استعمرنا أمدا طويلا. واستحوذ على طاقتنا البشرية والطبيعية ومكاسبنا التراثية والثقافية مكنته هذه التجربة التي كانت علينا وبالاً، وكانت له فتحا.

إن من يتعلم الكثير عن الدين والثقافة الإسلامية ، بل ويدرك طبيعة الهوية والشخصية الإسلامية، حتى أن مستشرقيه ومبشريه كانوا يدونون كل صغيرة

وكبيرة عن الإسلام.

وللأسف يأتي من يبرر ما قاله البابا .. معتبرا إياه يجهل حقيقة الإسلام عقيدة وحضارة.. وهم يعلمون أن البابا ليس شخصا عاديا. وإنما هو مثقف كبير، سبق له أن درس علم اللاهوت وتاريخ العقيدة في جامعة بون وغيرها منذ عام ١٩٥٩.

وهذا يعبر عن أنه يملك معرفة كافية عن الدين الإسلامي. وإلا فما هي الدلالات العميقة لهذه العبارات التي ضمها بيانه الشخصي. الذي تلا الضجة العارمة والتي أحدثتها محاضرته وهو يقول «إنني أشعر بأسف عميق لردود الفعل في بعض البلدان لفقرات قليلة من خطابي بجامعة «ريغينبورغ» والتي اعتبرت مسيئة لمشاعر المسلمين. لقد كانت هذه في الواقع اقتباسا من نص يرجع للعصور الوسطى. ولا يعبر بأي صورة عن فكري الخاص» إذا كان البابا يعتبر أن هذا النص الذي ذكره في محاضرته من العصور الوسطى، فكيف جاز له اليوم أن يردده في محاضرة له أمام جمع من المثقفين إن عذره وأسفه، غير إن هذا للأسف الموسوم بالعمق، ليس عميقا إلا على المستوى الشكلي، وإلا فلماذا يظل البابا متمسكا بالمقارنة المجحفة التي عقدها في محاضرته بين الإسلام والمسيحية. فماذا يمكن أن نعتبر هذه الازدواجية في الخطاب. أتناقضا غير مقصود. أم انفصاما مرضيا. أم عداء مقننا ضد الإسلام؟

صعود الإسلامو فوبيا في المجتمعات الغربية:

إذا راجعنا مراجعة سريعة لتكرار ظهور مصطلح الإسلاموفوبيا في بعض أشد الجرائد الغربية. نكتشف تلك الزيادة المطردة في استخدامه خلال السنوات الأخيرة بشكل عام وفي العامين السابقين.

استخدام وسائل الإعلام الغربية لمصطلح الإسلاموفوبيا يرتبط في العادة

بظواهر عدة مثل دفوع أو إحباط أحداث إرهابية تستهدف المجتمعات الغربية. مما يثير تساؤل الغربيين. حول وجود توجهات معادية للغرب وسط الأقليات المسلمة بالبلدان الغربية وحول توجهات المجتمعات الغربية ذاتها تجاه الإسلام والمسلمين.

ويرتبط ظهور المصطلح في آونة أخرى بالجدل الدائر داخل المجتمعات الغربية ذاتها حول طبيعة تلك المجتمعات وهوياتها ومواقف النخب السياسية الغربية من تلك القضايا. وما إذا كانت مشاريع النخب الغربية اليسارية المنادية بالتعددية والانفتاح الثقافي على المهاجرين والأقليات هي مشاريع مفيدة للغرب. أما إنها أضرت به كما يرى أصحاب التوجهات اليمينية المنادون بالعودة إلى التراث التقليدي للغرب.

كما ارتبط استخدام المصطلح بردود أفعال العالم الإسلامي تجاه بعض الأسماء التي تعرض لها الإسلام من قبل شخصيات ومؤسسات غربية مختلفة، كما حدث ردا على الرسومات الدانماركية المسيئة للرسول ﷺ، وردا على تصريحات بابا الفاتيكان في حق الإسلام مؤخرا.

ظاهرة الإسلاموفوبيا

شيوع مصطلح الإسلاموفوبيا هو في حقيقته انعكاس لتنامي ظاهرة يبحث لها الغرب عن تسميته. وقد يختلف البعض حول دقة المصطلح، ولكن هناك شعورا متزايدا بالظاهرة نفسها. ظاهرة الإسلاموفوبيا الغربية، وتشكيل هذه المشاعر أسسا لانطلاق سلوكيات غربية مجحفة بحقوق الأطراف المسلمة.

ظاهرة الإسلاموفوبيا على المستوى الفكري ترتبط بنظرة اختزالية للإسلام كدين وكثقافة في تصور الإسلام كمجموعة محدودة وجامدة من العقائد التي تحض على العنف والرجعية والنظرة السلبية للآخر. وترفض العقلانية والمنطق وحقوق

الإنسان. وهي معتقدات يؤكد المصابون بالإسلاموفوبيا أنها انعكاس مباشر لرسالة الإسلام نفسها.

وينظر المصابون بالإسلاموفوبيا إلى المسلمين على أنها مجموعة واحدة تؤمن من يتشدد بالفهم الاختزالي السابق للإسلام. وهم منخرطون في حركة سياسية عالمية لفرض هذه الرؤية على الآخرين في حرب حضارية لا تتوقف.

وانطلاقا من الرؤى السابقة يرى المصابون بالإسلاموفوبيا أن العداء للإسلام والمسلمين والتحيز ضدهم أمر طبيعي ورد فعل على طبيعة المسلمين الشريرة، لذا فهم يساندون التمييز ضد المسلمين وحشد قوي الغرب في حرب ضد الإسلام وأتباعه.

وبالطبع تمثل المعتقدات السابقة أساسا لتصرفات تمييزية ضد المسلمين. وقد تأخذ هذه التصرفات صورة المطالبة بسياسات تحد من حقوق وحريات مسلمي الغربي المدنية ، أو تخصصهم لمراقبة متزايدة من قبل السلطات الأمنية. وقد تأخذ صورة انتشار لمشاعر سلبية تجاه المسلمين داخل المجتمعات الغربية كرفض العيش بجوار جيران من المسلمين ، ورفض بناء المساجد والمؤسسات المسلمة.

وقد تتفجر أحيانا في صورة أحداث عنف وتمييز وجرائم كراهية ضد المسلمين. وهي أحداث توثقها بعض المنظمات المسلمة ومنظمات الحقوق المدنية الغربية.

البدايات الأولى للاستعمار الغربي

حيَّ معظم الغربيين سياسات الليبرالية الجديدة. وعقيدتها الفكرية باعتبارها الأداة الجوهرية بلا منازع للنمو الاقتصادي، والتطوير والازدهار ليس في الغرب فقط. بل وكذلك في الجنوب المعولم. غير أن المسئولين الحكوميين وذوي العقائد الوظيفية والذين تمسكوا بمثل هذه الآراء الأيديولوجية قد تجاهلوا العواقب

السلبية لمثل هذه السياسات الليبرالية الجديدة على الغالبية العظمى من شعوب الجنوب المعولم. أو إنهم لم يعترفوا بها أساسا على الإطلاق. فمن الواضح أن مثل هذه السياسات المفروضة خصوصاً على الدول المدنية تهدد استقلالها، وتخلق صعوبات هائلة متزايدة على الكتلة الراجحة لشعوبها المختلفة. وتولد عمليات لإعادة توزيع الثروة الأعلى. كما تهدد الإحالة الثقافية والقيم التقليدية للناس العاديين.

وكانت هذه القضايا التي كثيرا ما طرحت بشكل مفصل من حيث جوانبها الثقافية. هي التي جعلت الأكاديمي صاموئيل هنتنغتون، يطرح مقولته المثيرة للجدل والخلاف عن العالم المعاصر، وهي أن الصراع العالمي القادم في أعقاب انتهاء الحرب الباردة. لن يكون صراع سلطة بين دول، أو ائتلافات دولية على الموارد والأسواق الاقتصادية، أو على المواقع الجغرافية - والإستراتيجية. بل إنه سيكون صراع «حضارات» فالتجمعات الحضارية آخذة في الحلول محل كتل الحرب الباردة، وخطوط الشروخ بين الحضارات صارت هي الخطوط المركزية في السياسة العالمية. وعند هنتنغتون «أن الإسلام هو قوة الظلام في العالم» بسبب نزوع المسلمين إلى الصراع العنيف.

وقد نوقشت مقولة هنتنغتون هذه كثيرا في الولايات المتحدة من الجوانب المؤيدة والمعارضة لها على حد سواء. غير أنها مناقشة أكاديمية نظرية ذهنية إلى حد كبير. مفتقرة إلى أي قبول فكري. وخالية من أي تبعات سياسية. أو إستراتيجية سياسية - عسكرية. ولكنها تلقت تقريرا ضخما بعد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١.

فبعد الهجمات. تجسدت عمليا وبسرعة شديدة هستريا محمومة ضد الإسلام وضد العرب في أجهزة الإعلام، وفي صفوف بعض قطاعات الجمهور الأمريكي،

وبين كثير من الساسة، وتلقت هذه الهستيريا الخطابية تشجيعيا كبيراً من أنصار إسرائيل من النشطاء والساسة، والمثقفين الشعبيين، وكتاب الأعمدة في كل أجهزة الإعلام، فسارعوا إلى رسم أوجه الشبه والتناظر بين الإرهاب المستلهم للإسلام ضد إسرائيل والإرهاب المستلهم للإسلام ضد الولايات المتحدة. بل إن بعضهم أعلن أن اصطدامًا أو حربًا حضارية قد بدأت.

وارتكبت هجمات كلامية وجسدية، يشار إليها شعبيا وقانونيا بأنها «جرائم كراهية». ضد الأمريكيين العرب ، والأميركبين المسلمين في جميع أنحاء البلاد. وكان سيل الشتائم الكلامية، والهجمات الجسدية، والمضايقات التي كان من اللافت للأنظار أنها وصلت أيضا إلى حرم الجامعات من السعة والانتشار بحيث شعر المسؤولون الحكوميون الأميركيون بالحاجة إلى رفع صوتهم بعدم الموافقة عليها وتحذير الجمهور من ارتكاب «جرائم كراهية» مخالفة للقانون.

وفي إشارة رمزية بعد الهجمات ضد كل ما هو عربي أو مسلم أمريكي كان وغير أمريكي مما شكل خطرًا كبيرًا على الوضع السياسي والاقتصادي للولايات المتحدة في العالم. وخاصة في العالمين العربي والإسلامي.

زار الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن والذي يعتبر هو من فجر هذه الصراعات في أحاديثه عندما هاجم المسلمين والعرب واعتبر عودة الحروب الصليبية ، وأركان إدارته من العناصر اليمينية - اللوكودية. مركز واشنطن الإسلامي، وهو المسجد الرئيسي في المدينة. ومثل كثير من المسؤولين، بذل جهداً شاقاً للتمييز بين الإسلام، والأميركيين العرب والأميركيين المسلمين الملتزمين بالقانون من جهة، والإرهابيين الذين يتكلمون ويعملون باسم الإسلام من جهة أخرى، وفي ذلك الوقت كانت مثل هذه التحذيرات الحكومية الرسمية والإعلامية

إشارات تبشر بالأمل ويمكن أن تطفئ فتيل الخطاب الملتهب المعادي للعرب والمسلمين.

ومع ذلك فقد استمرت وتماديت التعليقات العنصرية. وتجميع المعلومات عن المسافرين الجويين العرب والأميركيين المسلمين، والتمييز في الوظائف وفي أماكن العمل وكذلك الأشكال الأخرى من المضايقة وإساءة المعاملة.

ففي تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠١، قيل: إن أشكروفت قد قال في مقابلة إذاعية مع مضيف محافظ: «إن الإسلام دين يطلب فيه الله منك أن ترسل ابنك ليموت في سبيله، أما المسيحية فهي عقيدة يرسل الله فيها ابنه ليموت في سبيلك».

علاوة على ذلك لاستمرارية العداء وتشويه الإسلام فإن كاتبة العمود الصحفي آن كولتر، في نوبة غضب جامح اقترحت بقولها: «ينبغي علينا أن نغزو بلادهم [تقصد المسلمين] ونقتل قادتهم، ونرغمهم على اعتناق المسيحية».

وكانت عاصفة الغضب والحنق والمطالبة بالعمل من قبل الساسة، والمثقفين الشعبيين، ووسائل الإعلام، تؤكد على الحاجة إلى حماية أميركا والأميركيين من المزيد من الهجمات. ومن بلاء الإرهاب الدولي الإسلامي.

وبعد عشرة أعوام من انهيار الشيوعية وإنهاء الحرب الصليبية المعادية للشيوعية. وفي اللحظة التحديدية لهجمات ١١ سبتمبر. عثرت أميركا الرسمية أخيرا على حرب صليبية جديدة – هي الحرب على الإرهاب، وهي تركيبة فكرية كهربت بسهولة سكانا جرحتهم الهجمات. وبررت سياسات أميركا المحلية والدولية، وزودتها بالمكانة الأخلاقية العالية المبررة لكل أعمالها التالية. وأدى قانون الوطنية إلى قمع وتآكل الحريات المدنية التي احتضنتها الولايات المتحدة زمناً طويلاً. فلم يكن مدهشاً أن يقوم مكتب التحقيقات الاتحادي باعتقال الألوف من الأميركيين العرب

والمسلمين بالجملة دون أي أساس قانوني. وقد اعتقل معظمهم دون أسباب محتملة سوى حقيقة أصلهم العرقي ودينهم. وهذا خرق واضح للمبادئ القانونية الراسخة منذ زمن طويل، لمبدأ كون المرء بريئا حتى تثبت إدانته، وعدم احتجازه مدة طويلة دون اتهام.

فقد مرر الكونغرس الأمريكي لائحة قانون. الوطنية الأميركية وصوت لصالح ميزانية ضخمة وفريدة لخوض «الحرب القادمة على الإرهاب».

وبذلك شنت الولايات المتحدة الحرب على الإرهاب مزودة بأضخم ميزانية عسكرية وثورة إعلامية تساند هذه الحرب ، حيث هاجمت أفغانستان بهدف إزالة حكم طالبان. فأحدثت تغييرًا للنظام ، ودمرت البنية التحتية.

ما هي الجذور المحلية لحرب أمريكا الصليبية على الإرهاب

إن انحياز الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل سياسيًّا وعسكريًّا وفكريًّا وعقائديًّا. ليس عفويًّا. ولا غير مقصود في شكله الحالي. بل هو تتويج لتيارات سياسية وفكرية أمريكية محلية . ظلت في طور التكوين زمنا طويلا. ومقولتي هي أنه بالرغم من كون الحرب الصليبية الأمريكية الحالية على الإرهاب ذات جذور محلية عميقة. فإنها تأثرت كثيرًا ، وتعززت بأعمال وأقوال وشعارات خطابية وضغوط إسرائيلية داخل دهاليز السلطة الأمريكية. وفي الحياة الأمريكية العامة. بل لا نذهب إلى أبعد من ذلك عندما نقول : بأن الدعم لإسرائيل والحرب الصليبية المضادة للإرهاب. وتفاقمها مؤخراً. قد صارت كلها قضايا أمريكية محلية. ولم تعد مجرد قضايا خاصة بسياسة أمريكا الجنوبية.

وهكذا فإن الحرب الصليبية على الإرهاب، والدعم الذي لا يتزعزع. ولا ينتفي لسياسات إسرائيل وأعمالها – الليكودية – ليس تجاه الفلسطينيين فحسب. بل تجاه

العراق، وإيران وسوريا، وهذا هو جزءٌ من التوجه السياسي الذي له بعده المحلي وجانبه السياسي الخارجي. فلنتوجه إذن إلى السباق الأمريكي المحلي، لأن المرء عندما يريد تميز المد العالي يجب عليه أولاً أن يتفهم التيارات السياسية المحلية.

إن متابعة السعي لإقامة إمبراطورية، وهو سعي قائم على قدم وساق بلا هوادة منذ زوال الاتحاد السوفيتي.قد شهدت في المقابل ناقلاً مماثلا في الشرعية الدولية. فقد ترك القانون الدولي ليسقط على جانب الطريق. بينما تعرض توازن القوى ومناطق النفوذ إلى تآكل خطير تحت تأثير النزوع الأمريكي إلى التصرف من جانب واحد، وإلى الاعتماد على الحروب الوقائية. ولم يكن من قبيل المصادفة أو المفاجأة أن تهمل الولايات المتحدة معاهدات وتشريعات دولية مثل معاهدة حظر القذائف ذاتية الدفع، وميثاق الأسلحة الكيميائية. والمحكمة الجنائية الدولية ، وبروتوكولات كيوطو.

لا يمكن أن يكون هناك حياد بين العدالة والقوة بين البريء والمذنب، أو تخوض صراعا بين الخير والشر. وسوف تنادي أمريكا الشر باسمه.

وحسبما ذكرت شركة الأخبار الإذاعية الاسترالية ... فإن الدين صار أحد العوامل في غزو العراق إلى درجة أن المجندين – قد طلب منهم في أحد الكراسات أن يصلوا من أجل بوش على أساس يومي – بما في ذلك الدعاء. بأن يكون الرئيس ومستشاروه شجعاناً وأقوياء في عمل ما هو حق. بغض النظر عن النقاد. وقد لخص المرشح الرئاسي السابق جورج ماكغفرت رسالة بوش المقدسة هكذا.

كثيرا ما يسر الرئيس جورج بوش الابن .. إلى الأشخاص والمستمعين الأصدقاء«أن يد الله هي التي تقوده».

ولكن إذا كان الله هو الذي قاده إلى غزو العراق. فإن الله قد أرسل رسالة مختلفة

إلى البابا، ومؤتمر المطارنة الكاثوليك، ومجلس الخط الرئيسي للكنائس البروتستانتية الوطنية وكثير من الحاخامات المتميزين - الذين يعتقدون جميعا أن غزو العراق وقصفه بالقنابل هو ضد مشيئة الله.

مواقف الكنيسة

بعكس الموقف الديني للغرب. ذلك الموقف الذي أصبح ملاحقا للموقف السياسي. بل ومحرمة له بصورة سابقة لها. ولقد ارتبط مفهوم السلطة السياسية بالسلطة الكنسية منذ أولى خطوات الاستعمار وتواكبت جهود الآليات الحرية والعسكرية بآليات المبشرين والمستشرقين لتنظم إليها - حاليا - فرق المثقفين والمفكرين.

إلا أن ما يدور على الصعيد العالمي. من منتصف الستينيات لم تعد أحداثه بحاجة إلى إثبات وأدلة.. فما علي المرء إلا أن يتابع مجريات الأمور ليدرك التحالفات الغربية التي تمت منذ فجر التاريخ. الذي يمثل نهاية انعقاد المجتمع المسكوني الفاتيكاني الثاني [١٩٦٢-١٩٦٥] ذروته المتفردة وليدرك كيف أصبح الفاتيكان بمثل قوة محركة رهيبة للأحداث السياسية.

قام بعض المسؤولين عن تلك الدولة يخفون تدخلا فيها. بل لقد أصبح البابا يقولها صراحة «إن الكرسي الرسولي يسعى إلى التدخل لدى حكام الشعوب والمسؤولين عن مختلف المحافل الدولية. أو الانضمام إليهم بمحاورتهم أو إخضاعهم على الحوار لمصلحة المصالحة وسط صراعات عديدة.

ولم يعد خافيا على أحد كيف تضافرت الجهود السياسية والكنسية لاقتلاع اليسار. لا كبديل للرأسمالية. وذلك بسبب نظامه الاجتماعي الاشتراكي فحسب. وإنما لإلغائه الوجود الكنسي برمته، ومنعه من استخدام النفوذ الديني بغية

التواصل إلى مكاسب اجتماعية. وما أكثر المراجع التي تناولت هذا التضافر الحميم بين الكرسي الرسولي، والمخابرات المركزية الأمريكية، والأيادي المتواطئة المحلية والتي سرعان ما يبادرون بفضح دور تواطئها.

كما لم يعد خافيا على أحد كيف تتضافر الجهود السياسية والدينية لاقتلاع الإسلام. كبديل للمسيحية التي تم تحريفها عبر المجامع على مر العصور. فلقد تصدعت أركان الكنسي بسبب كل ما فرضه على أتباعه من تحريف. لم يعد معه المتلاعبون بقادرون على دور ما قاموا ما يزالون يقومون بها.

لقد برأ المجتمع الكنسي اليهود من دم المسيح. كما ظلوا يرددون في كل قداس «أحد» لمدة ألفي عام تقريبا. وهي مصالحة سياسية بحته لتوحيد الصفوف في مواجهة الإسلام. فلا يزال اليهود على موقفهم من حيث رفضهم الاعتراف بالمسيح. ورفع سبة العار عن أمه التي اصطفاها الله في القرآن الكريم. بينما يواصل اليهود وصف حملها «بالزنى».

لم تكن محاولة القضاء على الإسلام بالجديدة، بل منذ القدم هناك مثل هذه المحاولات. وأصبحت اليوم تتم علنا وعلى صفحات الجرائد والمجلات والقنوات التي أسست من أجل تشويه صورة الإسلام.

وذلك بعد أن أعلن البابا يوحنا بولس الثاني صراحة مطالبا بضرورة إعادة تنصير العالم، بمعنى أن يبادر بتنصير البلدان التي يقتلها من براثن الإلحاد قبل أن يدخل في الإسلام واقتلاع الإسلام – حتى لا يبقي على الصعيد العالمي سوى الكاثوليكية روما.

إن عملية التنصير لم تعد قاصرة على قطاع المبشرين والمستشرقين فحسب. وإنما لقد فرضها البابا في خطابه المعنون «رسالة الفادي» عام ١٩٨٧ على كافة أتباع

المسيحية أينما كانوا وأياً ، كان انتماؤهم العقائدي. وذلك بموجب عقيدتهم. واستنادًا إلى تضحية السيد المسيح.

من الثابت تاريخياً أن محاربة الإسلام قد بدأت منذ أول ظهوره وبداية انتشاره. بل هناك من الأبحاث والمراجع ما يثبت أن محاربته بدأت قبل ظهوره.

ومنذ ذلك الوقت. لم تكف محاربة الإسلام وإن اختلفت المسميات وتنوعت الأساليب إلى أن كان المجمع المسكوني في الفاتيكان في الثاني عام ١٩٦٥ الذي تتخذه نقطة تحول. فقد أسفر هذا المجتمع عن قرارين أساسيين لا سابقة لهما في التاريخ فيما يتعلق بالديانات غير المسيحية وهما: تبرئة اليهود من دم المسيح ، وإقرار مبدأ التحاور مع الإسلام لاقتلاعه.

ولا يتسع المجال لتناول كافة المؤثرات التي تتعقد الدراسة كيفية تحقيق المزيد من التوغل والاختراق للعالم الإسلامي لإبادته. لكننا نشير على سبيل المثل إلى مؤتمرات «لوزان للتنصير عام ١٩٧٤، وخاصة مؤتمر «كولورادو» في شمال أمريكا عام ١٩٧٨ الذي حضره مائة وخمسون عالما متخصصا في شئون التنصير. ونمت خلاله دراسة أربعين مبحثا تناول كل منها منفذا من المنافذ التي يمكن التسلل منها لتنصير المسلمين. ومؤتمر «مسيحي الشرق» المنعقد في باريس عام ١٩٨٥، وقبله بعام واحد المؤتمر المنعقد في إيطاليا. والذي حضره حشد كبير مكون من ستة آلاف قس تجمعوا من مختلف أنحاء العالم لتدارس كيفية استخدام الوسائل السمعية والبصرية في التنصير وفي التكوين الديني.

البدايات الأولى للاستعمار الغربي للعالم الإسلامي:

لقد بدأ الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي في القرن السادس عشر حينما احتلت هولندا الجزر الأندونيسية في سنة ١٥٥٢، واستمر احتلالها لها لمدة ثلاثة

قرون ونصف القرن، حيث استمر الاحتلال الهولندي لأندونيسيا إلى سنة ١٩٤٥. ثم احتلت روسيا القيصرية قازان عاصمة تتارستان في سنة ١٦٠٢. ثم وصلت الأساطيل البريطانية إلى شبه القارة الهندية في سنة ١٧٥٧، فاحتلت إنجلترا الهند التي كانت عندئذ تحت حكم دولة إسلامية، واستمر احتلالها لها مائة وتسعين سنة، إلى أن استقلت الهند في سنة ١٩٤٧. احتلت فرنسا الجزائر، واستمر الاحتلال مائة واثنتين وثلاثين سنة إلى سنة ١٩٦٢.

وفي سنة ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر، واستمر الاحتلال إلى سنة ١٩٢٣، وفي سنة ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس. وفي السنة ذاتها احتلت بريطانيا قبرص. وفي سنة ١٨٢٩ احتلت بريطانيا جنوب اليمن واستمر احتلالها لها إلى سنة ١٩٦٧، وفي سنة ١٨٥٧ احتلت فرنسا السنغال واستمر الاحتلال إلى سنة ١٩٦٠، وفي سنة ١٩٠٣ احتلت بريطانيا نيجيريا.

واحتلت إسبانيا في سنة ١٨٨٤ الصحراء المغربية، في جنوب المغرب، وأطلقت عليها اسم (الصحراء الإسبانية)، واستمر احتلالها لها إلى سنة ١٩٧٦. وفي سنة ١٩١٢ احتلت فرنسا ثم إسبانيا في آخر السنة نفسها، المغربَ تحت غطاء الحماية. وفي سنة ١٩١١ غزت الجيوش الإيطالية ليبيا (بنغازي وطرابلس)، فاندلعت الحرب الإيطالية ـ العثمانية على مدى السنتين (١٩١١ - ١٩١٢)، باعتبار أن ليبيا كانت في تلك الفترة، جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ - ١٩٣٩) احتلت فرنسا إقليم فزان الليبي، واحتلت إنجلترا بنغازي وطرابلس، واستمر هذا الاحتلال الفرنسي والبريطاني لليبيا إلى سنة ١٩٥٢.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، بدأت الأطماع الأوروبية تتجه نحو الإمبراطورية العثمانية التي عُرفت في تلك الفترة بالرجل المريض، فعمدت الدول

الأوروبية إلى تحريض روسيا القيصرية ضد الأقاليم الإسلامية المجاورة لها، فقامت بغزو منطقة القرم، وقادت حروباً طويلة للاستيلاء على الأراضي شمالي القوقاز. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بسطت روسيا نفوذها على آسيا الوسطى، فاحتلت أذربيجان في سنة ١٨٢٨.

وتفجّر الصراع بين العالم الإسلامي والغرب من جديد مع أواخر القرن التاسع عشر، في شكل الحرب الروسية العثمانية التي اندلعت في الفترة ما بين (١٨٧١ و ١٨٧٨) بتواطؤ من الدول الأوروبية أيضاً. وأثناء فترة الحرب العالمية الأولى(١٩١٨ - ١٩١٤) انهزمت الإمبراطورية العثمانية، وتمّ تمزيقها إلى مجموعة أقاليم ما لبثت أن أصبحت دولاً قائمة الذات؛ فاستولت فرنسا وانجلترا على الولايات العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية، والتي تشمل أقاليم الشام أو سورية الكبرى (سورية ولبنان وفلسطين والأردن اليوم)، والعراق. ثم امتد الاحتلال لهذه الأقاليم تحت غطاء الانتداب إلى سنة١٩٤٣ ، بالنسبة لسورية ولبنان بموجب قرار عصبة الأمم. وتأسست إمارة شرق الأردن (نواة المملكة الأردنية الهاشمية اليوم) في سنة ١٩٢١.

واستمر الاحتلال البريطاني لفلسطين تحت مسمى الانتداب، وتحت غطاء دولي، إلى سنة ١٩٤٨، عندما استغل اليهود الوضع فأعلنوا عن تأسيس دولة إسرائيل في ١٥ مايو من سنة ١٩٤٨ في مخالفة واضحة للقانون الدولي، حيث أقيمت هذه الدولة في إقليم له سكانه الأصليون هم الشعب الفلسطيني الذي تم تهجيره والاستيلاء على وطنه. ولا يزال هذا الوضع المأساوي غير القانوني الذي نتج عن احتلال فلسطين وتهجير شعبها، هو السبب الرئيسي في تدهور الأحوال ، وفي تهديد الأمن والسلم الدوليين، ليس في منطقة الشرق الأوسط، وإنما في العالم أجمع. وهو

أخطر أزمة تتهدد العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب في الحاضر والمستقبل، مما يضعنا أمام مفتاح الأزمة الدولية المتمثلة في انسداد الأبواب أمام تسوية عادلة لها في إطار الشرعية الدولية، تردّ الحقوق الوطنية المشروعة إلى الشعب الفلسطيني بقيام دولته المستقلة بعاصمتها القدس.

هكذا دخل العالم الإسلامي القرن العشرين وأقطاره محتلة، وأجزاؤه ممزقة، وأوضاع شعوبه متدنية اقتصادياً واجتماعياً بصورة بالغة السوء. ولقد امتدت تداعيات هذه الأوضاع وآثارها السلبية إلى مرحلة ما بعد تأسيس الدول العربية الحديثة في العالم العربي الإسلامي، مما تسبّب في اندلاع أزمات سياسية متلاحقة، وفي نشوء ظروف اقتصادية صعبة.

الوقوف في وجه طموح الشعوب الإسلامية:

لقد كانت الأنظمة السياسية في العديد من دول الغرب طوال ما يزيد على قرنين من الزمن، تقف في الصف المعادي لإرادة الشعوب الإسلامية والمناهض لحقها في الحياة الحرة الكريمة، والمعاكس لتوجّهاتها نحو بناء المجتمع القوي المستقر الذي تزدهر فيه الحياة السياسية والاقتصادية، ويتمتع فيه الإنسان بحقوقه المشروعة. وقد ترتب على هذه السياسة التي اتبعتها الأنظمة السياسية في تلك الدول الغربية تجاه شعوب العالم الإسلامي لعقود متطاولة، أن نشأ رأي عام يحمّل الغربَ مسؤولية هذه الأوضاع، وتوتّرت العلاقات على مستويات عديدة بين الطرفين، ولا تزال إلى اليوم.

إنَّ هذه الخلفيات التاريخية الحديثة والمعاصرة، إذا أضفنا إليها خلفيات العصور الوسطى، نجد أنفسنا أمام ركام هائل من الخصومات التاريخية الناتجة عن سوء الظن وعدم الثقة، واحتدام الصراع الذي يتخذ أشكالاً تتفاوت بين الخفاء والظهور من عصر إلى آخر.

شهادة أرنولد توينبي :

يصوّر المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي) أحوال العالم الإسلامي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، تصويراً دقيقاً، في محاضرة له في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، حيث قال في لحظة صدق ومكاشفة : «إننا ظللنا نطارد الرجل التركي (يقصد الرجل المريض، وهو كناية عن الإمبراطورية العثمانية) ونهاجمه لكي يترك دينه، لأنه كان ينظر إلينا من علينا كأننا خنازير برية، فلما ترك دينه وتبعنا احتقرناه، لأنه لم يعد عنده ما يعطيه».

وهذا تلخيصٌ للأزمة الحضارية التي نكب بها العالم الإسلامي. وتلك حقيقة من حقائق التاريخ المعاصر، تظهر لنا جوانب من الخطة التي دبرتها مجموعة من الدول الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، لتمزيق العالم الإسلامي، ولإضعافه، ولاستغلال موارده الطبيعية من أجل بناء الاقتصاديات الأوروبية المزدهرة في تلك المرحلة، مما كان له مضاعفات سياسية ونفسية وثقافية على مجمل العلاقات التي تربط دول العالم الإسلامي بالدول الأوروبية، وبالولايات المتحدة الأمريكية التي تقف بكل إمكاناتها مع إسرائيل وتدعمها في جميع المجالات.

وللأمانة التاريخية وللموضوعية المنهجية، نؤكد هنا أن هذه الخلفيات جميعاً، ساهمت في تشكيل العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب على مستوى اللاوعي الجمعي، وعلى مستوى الواقع. ولا سبيل اليوم إلى فهم طبيعة هذه العلاقات وإدراك أبعادها، إلاّ من خلال الوقوف على تلك الظروف التاريخية الآنفة الذكر، والتي لا تزال تعمل عملها في الحاضر، ولربما في المستقبل.

إنَّ الأوضاع التي نشأت عن الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي، تسبّبت في ظروف لم تكن مواتية على الدوام للنموّ والتقدم والازدهار. فقد وجدت الدول

العربية والإسلامية نفسها بعد الاستقلال، أمام أزمات كبيرة نتيجة لشيوع الفقر والجهل والمرض وسوء الإدارة والفساد، ولانعدام الشروط الموضوعية لإقامة هياكل جديدة للدولة المستقلة. وقد ترتبت على تلك الأوضاع مشاكل كثيرة ظلت تتفاقم، فتعطّلت عملية النمو في مناطق، وتعثرت في مناطق أخرى، وتباطأت في جل الأقطار. وعلى الرغم من أن قلة من الدول العربية الإسلامية، قد عرفت كيف تستثمر مواردها وإمكاناتها وتحقق معدلات معينة من النموّ والتقدم وتحسّن من مستويات مواطنيها، فإن غالبية دول العالم الإسلامي تعاني اليوم من مخلفات عهود ما قبل الاستقلال. وإن كانت العوامل المتسببة في بطء النمو لا تعود دائماً إلى ظروف الاستعمار، فكثير منها ينبع من الداخل، لأسباب كثيرة لا يسمح المجال بالخوض فيها.

إنَّ تأزم الأوضاع الاقتصادية وتدهور الخدمات التي تقدمها بعض الحكومات لمواطنيها في جل دول العالم الإسلامي، سواء بسبب شح الموارد وقلة الإمكانات، أو بسبب سوء التسيير وانعدام الخبرة، قد أدّى إلى نشوء مشاكل اجتماعية كثيرة، منها تنامي الشعور بالظلم والحرمان، وتصاعد نبرة الغضب والاحتجاج بين فئات غير قليلة من المواطنين، مما كان له الأثر القوي في ظهور تيارات العنف والتطرف وانتشار الأفكار الرافضة والتيارات الساخطة، وفي ردّ أسباب الأزمات إلى الدول الاستعمارية سابقاً، واتهامها بالمسؤولية عن فساد الأوضاع وسوء الأحوال، الأمر الذي ينعكس سلبياً على العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب.

ولاشكّ أن الدول الغربية الواسعة النفوذ سياسياً واقتصادياً، تتحمّل اليوم قسطاً من المسؤولية إزاء ما تعاني منه الشعوب الإسلامية من أوضاع اقتصادية صعبة، وحيال اضطراب حبل الأمن والسلم في منطقة الشرق الأوسط، وفي

فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال وغيرها.

دور الغرب في صنع مأساة فلسطين:

ومعلوم أن تدهور الوضع في الأراضي الفلسطينية إلى هذه الدرجة الخطيرة التي وصلت إليها، واستمرار الاحتلال الإسرائيلي لها، وممارسة سلطات الاحتلال لسياسة القمع والقتل والتهجير والمطاردة في حق الشعب الفلسطيني، ووجود الآلاف من المواطنين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، كل ذلك يخلق حالات من التذمر والسخط والكراهية في أوساط الشعوب الإسلامية عموماً، وليس لدى الشعب الفلسطيني فحسب، ويتسبّب في تحميل الغرب المسؤولية المشتركة مع إسرائيل في استمرار هذا الظلم. وتلك هي المسألة التي على الغرب أن يتفهمها ويعمل على معالجتها بما يردّ الحقوق إلى أصحابها الشرعيين، ويؤدي إلى استتباب الأمن والسلم في هذه المنطقة من العالم. ولن تستقر العلاقات بين شعوب العالم الإسلامي والغرب بصفة عامة، إلاّ إذا عولجت هذه المسألة معالجة عادلة تردّ الأمورَ إلى نصابها، وتقضي نهائياً على أسباب الأزمة.

وحتى تتبيّن معالم الصورة بالوضوح الكامل، نسوق ثلاثة أمثلة عن بعض المواقف غير المسؤولة التي تتخذ ، والآراء المتطرّفة التي يُعبر عنها في الغرب، والتي يكون لها نتائج سيئة للغاية لدى الرأي العام الإسلامي، والتي تنعكس آثارها السلبية على مجمل العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب.

اعتراف صريح من الرئيس ريتشارد نيكسون:

يقول الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه (الفرصة السانحة) : «إن الإسلام والغرب متضادان، وإن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين : (دار الإسلام) و(دار الحرب) حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين

يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضدّ الغرب، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفييتي (قبل أن يسقط ويتمزق) ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة».

وهذا الرأي الذي نشر في كتاب ترجم إلى عدة لغات عالمية، ومنها اللغة العربية، يساهم في تأجيج روح العداء، وفي تأليب قطاعات واسعة من أبناء العالم الإسلامي ضد الغرب. والرئيس نيكسون في القسم الأول من هذا الرأي يجانب الحقيقة تماماً.

أما في القسم الثاني، فيعبر نيكسون عن رأي يتبناه قطاع عريض من صانعي القرار والنخب الفكرية والثقافية وأوساط واسعة من بين الشعوب في الغرب. وهذا موقف غير سليم لا ينمّ عن الحكمة وبعد النظر، ويعكس في الوقت ذاته نوايا ليست بريئة.

وفي هذا السياق أيضاً، يقول الكاردينال (بول بوبار) مساعد بابا الفاتيكان السابق، ومسؤول المجلس الفاتيكاني للثقافة، في تصريح إلى صحيفة (الفيجارو) الفرنسية:

(إن الإسلام يشكل تحدّيًا بالنسبة لأوروبا وللغرب عموماً، وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً ضليعاً لكي يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدّلات النموّ السكاني في أنحاء معينة من العالم؛ ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النموّ السكاني بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية النامية، وفي مهد المسيح ـ هكذا يقول الكاردينال بول بوبار وهو يقصد الشرق الأوسط، وتحديداً البلدان العربية ـ يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجاً بشكل ما ؟ .. إنّ التحدّي الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، في حين أن المسيحيين في أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع.

الإسلام لا يشكّل خطراً على أمة أو شعب أو دين :

أما كون الإسلام دينَ ثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فهذا صحيح لا شكّ فيه، وحقيقة من حقائق هذا الدين. وأما القول بأنه يشكّل تحدّياً للمسيحيين باعتباره ذاك، فهو قول باطل لا أساس له من الصحة إطلاقاً. وهو قول يزيد في تأزيم العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، وتتبنّاه قطاعات واسعة من أبناء الغرب.

إنَّ الإسلام لا يشكّل تحدّياً ضدّ أمة أو شعب أو دين، أو ضدّ قانون من القوانين الدولية، وإنما العداء للإسلام وكراهية المسلمين وممارسة سياسة التمييز ضدهم، وانتهاك القوانين الدولية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، إن ذلك هو الذي يشكّل تحدياً حقيقياً، لا للغرب فحسب، ولكن للعالم أجمع، ويهدّد استقرار العلاقات الدولية، وخصوصاً علاقات العالم الإسلامي بالغرب.

ويعزّز هذا التوجّه غير السليم الذي يذكي نار الكراهية والتمييز والصراع، ما قاله (جياني ديميكليس) رئيس المجلس الوزاري الأوروبي في مطلع التسعينيات من القرن الماضي في حديث إلى مجلة (النيوزويك)، إذ سئل : «ما مبررات بقاء حلف الأطلنطي ـ الناتو ـ بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكياً ؟». فأجاب بقوله : «صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة، إلاَّ أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحلّ محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي». فلما عاد مراسل (النيوزويك) ليسأل : «وكيف يمكن تجنّب تلك المواجهة المحتملة؟». قال (جياني ديميكليس) : «ينبغي أن تحلّ أوروبا مشاكلها، ليصبح النموذجُ الغربيُّ أكثر جاذبية وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم. وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي، فإن العالم سيصبح مكاناً في منتهى الخطورة.

وهذا الكلام من مسؤول كبير في الاتحاد الأوروبي، ينطوي على تهديد سافر للعالم الإسلامي. وهو رأي يتعارض كلياً مع قواعد القانون الدولي، ومع الحق في الحفاظ على الخصوصيات الثقافية للشعوب.

إنَّ هناك شعورًا متزايدًا يسود الشعوب الإسلامية بأن الإسلام مستهدفٌ من جهات متعددة. والعقلاء في العالم الإسلامي يبذلون جهوداً في إبعاد الناس عن سوء الظن، وفي القضاء على (فكرة التآمر) الذي يستهدف الإسلام والمسلمين، من منطلق أن سوء الظن هو نقيصة من النقائص التي تنهى عنها التعاليم الإسلامية.

اختراق الإسلام إعلانٌ للعداء ضدّه :

وعلى سبيل المثال، نورد هنا ما جاء في وثائق (مؤتمر كولورادو) الذي انعقد في الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٧٨، تقول إحدى هذه الوثائق عن الإسلام ما يلي : «إنه الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام، ولاختراقه في صدق ودهاء. ولذلك لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين».

إنَّ مثل هذه الخطط المريبة التي تُعدُّ لغزو العالم الإسلامي، يكون لها أسوأ النتائج وأخطر المضاعفات، إذ تساهم في تأليب الشعوب الإسلامية ضد الغرب بصورة عامة، وتؤدي بصورة تلقائية إلى إذكاء نوازع النفور بدلاً من تقوية مشاعر التفاهم والتسامح. ففكرة (اختراق الإسلام) من الأفكار الخطيرة التي تروج في أوساط عديدة، وهي شبيهة بفكرة (صدام الحضارات) التي تكاد أن تسيطر اليوم على صانعي السياسات في الساحة الدولية، والتي تُفسَّر على أساسها كثيرٌ من الأحداث التي تجري في هذه المرحلة من التاريخ، وتُفهم كثيرٌ من المواقف المتعصبة المتحيزة

غير الملتزمة بالقانون الدولي.

وتقتضي الأمانة العلمية والنزاهة الموضوعية في هذا السياق، أن نشير باختصار شديد، إلى ردود الفعل التي أحدثتها أقوال نيافة البابا بينيدكت السادس عشر، الواردة في محاضرته بجامعة ريغينسبورغ الألمانية، يوم ١٢ سبتمبر، حول موضوع العقل في الإسلام، أو العقل والقرآن، أو العقل في الحضارة الإسلامية.

إن ما ورد في محاضرته تلك بخصوص الإسلام ورسوله الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، يخالف حقائق التاريخ. وقد أصيب العالم الإسلامي بصدمة شديدة من جراء هذه الأقوال غير الصحيحة، على الرغم من أن صفوة من المفكرين والأكاديميين، قد ردّوا عليها بنزاهة وحكمة وفندوها، في إطار احترام المكانة الدينية والعلمية والأكاديمية لصاحبها.

والواقع أن ما ورد في محاضرة نيافة البابا، يرد كثيراً في الكتابات الغربية منذ أن ظهرت الطباعة وإلى اليوم. ولكن ما أثار الضجة الهائلة أن الأمر يتعلق هذه المرة بشخصية ذات اعتبار عظيم ومكانة سامية. وإننا كنا في العالم الإسلامي نتطلع إلى مبادرات عملية لإثبات حسن الظن، ولوضع حدّ لازدراء الإسلام، بل لازدراء الأديان السماوية عموماً، وللتطاول على مقدسات المؤمنين في سائر أنحاء العالم.

رؤية غربية مستنيرة:

إنَّ شعوب العالم الإسلامي تتطلع نحو المستقبل، لبناء علاقات إنسانية جديدة على أساس المبادئ الدينية السماوية، والمثل الإنسانية السامية، وما انتهت إليه البشرية من قوانين تحكم علاقات الدول والشعوب بعضها ببعض. ولكن ظواهر الأمور في هذا العالم، تؤكد أن الغرب - والمقصود هنا الدول الكبرى المتحكمة في زمام السياسة الدولية - يسير في الاتجاه المعاكس.

تقول الباحثة (سوزان نيكول) مساعدة المؤرخ اليهودي الدكتور ألفريد ليلينثال (Dr. Alfred M. Lilienthal) المعادي للصهيونية، في موضوع لها وزعته على الإنترنيت بتاريخ ١٣/ ٧/ ٢٠٠٥ : «الأمريكيون يساعدون بلادهم ضدّ الإرهاب، لو عرفوا الجواب الحقيقي عن السؤال (لماذا يكرهوننا ؟). إنَّ العرب والمسلمين يقولون للغرب باستمرار السبب الحقيقي، إلاّ أن الغرب لا يسمع. يجب علينا الاعتراف بتحيّزنا على امتداد نصف قرن ضد العرب والشعوب المسلمة الأخرى. لقد أوجدنا سببَ عدائهم لنا، فنحن، ولسنا هم، الذين بدأنا صراع الحضارات المريع الذي سنواجهه في الجيل القادم أو أكثر».

هذه رؤية غربية مستنيرة إلى عمق الأشياء. ننقلها على سبيل المثال، أن الغرب ليس كتلة واحدة، فهناك عقلاء يفهمون الأمور على حقيقتها، وحكماء يعملون من أجل السلام والتعايش ، والحوار بين الحضارات والثقافات والأديان.

إنَّ فكرة حوار الحضارات انطلقت من العالم الإسلامي. وقد تبنّت الجمعية العامة للأمم المتحدة الدعوة التي وجهها الرئيس الإيراني السابق السيد محمد خاتمي من فوق منبرها، لتعزيز الحوار بين الحضارات. وكان للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ دورٌ تفخر به، في تفعيل قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بجعل سنة ٢٠٠١ (سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات)، فقد عقدت عدة مؤتمرات وندوات دولية حول هذا الموضوع، بعضها بالتعاون والشراكة مع منظمات دولية وإقليمية، اليونسكو، ومجلس أوروبا، ومؤسسة أناليند الأورو ـ متوسطية للحوار بين الثقافات، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ ألكسو ـ التابعة لجامعة الدول العربية، وغيرها. وأصدر في الإيسيسكو (الكتاب الأبيض حول حوار الحضارات) باللغات الثلاث : العربية

والإنجليزية والفرنسية في طبعتين. وهو الكتاب الذي يضم الوثائق والقرارات والبيانات والإعلانات الخاصة بحوار الحضارات.

ولعلّ من المناسب أن نذكر أن (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) الصادر عن الأمم المتحدة في ديسمبر سنة ١٩٤٨، يعبر تماماً عن المنظور الحضاري الإسلامي، ما عدا المادتين السادسة عشرة والثامنة عشرة منه اللتين لنا عليهما تحفظات.

إنَّ العالم الإسلامي تمثله اليوم (منظمة المؤتمر الإسلامي) التي تضمّ في عضويتها سبعاً وخمسين دولة، إضافة إلى أربع دول أعضاء مراقبين، وهي : جمهورية روسيا الاتحادية، ومملكة التايلاند، وجمهورية إفريقيا الوسطى، والبوسنة والهرسك، إضافة إلى طائفة القبارصة الأتراك المسلمين. وتوجد أكثر من عشر منظمات إسلامية تعمل في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، منها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ، والبنك الإسلامي للتنمية.

ولكن لابد من الملاحظة هنا أن أكثر من ثلث المسلمين في العالم الذين يبلغ تعدادهم مليارًا ونصف المليار نسمة، غير ممثلين في دولٍ في منظمة المؤتمر الإسلامي. مثال ذلك المسلمون في الهند، وفي الصين، وفي جنوب إفريقيا، وفي دول الاتحاد الأوروبي، وفي الأمريكتين، وفي غيرها. ولذلك فلا في الإيسيسكو أن نولي عناية مركزة بالجاليات والأقليات المسلمة في سائر أقطار العالم، من حيث تقديم الدعم لمؤسساتها التربوية والتعليمية والثقافية والإسلامية، وتقوية الصلات الثقافية والحضارية بين المجتمعات الإسلامية في هذه الأقطار وبين إخوانهم في الدين في الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي.

ولعلّ من المناسب أن نشير إلى أن الإيسيسكو أشرفت في آخر شهر يونيو ٢٠٠٧، على عقد الاجتماع الخامس لرؤساء المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية

في جنوب شرقي آسيا ومنطقة الباسفيك في سنغافورة.

كما تشرف الإيسيسكو في هذا الوقت، على عقد الاجتماع السادس لرؤساء المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية في دول أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي في سانتياغو. وقد وضعت في الإيسيسكو (إستراتيجية العمل الثقافي في الغرب) التي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي العاشر المنعقد في ماليزيا في سنة ٢٠٠٣. وهو أعلى سلطة دستورية في منظومة العمل الإسلامي المشترك. وأنشأ في إطار هذه الاستراتيجية (المجلس الأعلى للتربية والثقافة في الغرب) الذي يضطلع بمهامّ التنسيق بين المؤسسات التربوية والثقافية الإسلامية في الأقطار التي توجد بها جاليات وأقليات مسلمة.

ولابد من الإشارة إلى أن مصطلح (العالم الإسلامي) هو من وضع الغرب أصلاً. ذلك أن المستشرقين هم الذين نحتوا هذا المصطلح. وقد صدرت مجلة بهذا الاسم (THE MUSLIM WORLD) باللغة الإنجليزية في ١٩١١. ولكن هذا المصطلح ينطوي الآن على مضمون يتجاوز الرقعة الجغرافية التقليدية، والتي تشمل البلدان الإسلامية، إلى المسلمين عامة حيثما وجدوا. ولذلك فإن المسلمين في أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي ـ مثلاً ـ هم جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، بهذا المفهوم الحضاري الثقافي، لا بالمفهوم السياسي والجغرافي. فالمسلمون أينما كانوا، هم حملة رسالة الحضارة الإسلامية، ودعاة سلام وتعايش وتفاهم بين الشعوب والحضارات والأديان.

كتلة إسلامية حضارية:

هذه الكتلة الإسلامية الحضارية هي قوةٌ للسلام وللأمن في العالم، ومصدر إشعاع ثقافي إلى مختلف الآفاق، وعنصر دفع لجهود المجتمع الدولي من أجل تعزيز

قيم التعايش والتفاهم والحوار بين الثقافات والحضارات والأديان.

وإذا كانت صورة العالم الإسلامي اليوم في الغرب يشوبها كثير من الظلال، ربما بسبب ما ترتكبه فئة قليلة معزولة متطرفة من أبناء المسلمين، من جرائم إرهابية هنا وهناك، ندينها بشدة ونرفضها ، لأنها تخالف تعاليم الإسلام، فإن ما يجب الإشارة إليه في هذا المقام، هو أن دولاً كثيرة من العالم الإسلامي مستهدفة بهذه الجرائم في المقام الأول وضحية لها. ولذلك فإن الرأي العام الإسلامي يقف ضد التطرف بكل أنواعه، ويرفض الإرهاب بجميع أشكاله رفضاً قاطعاً، لأنه يسيء إساءة بالغة إلى الإسلام والمسلمين أولاً وقبل كل شيء. وفي القرآن الكريم تقول الآية ٣٢ من السورة الخامسة (المائدة) : ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾. فهذه الآية القرآنية تعبّر أصدق التعبير وأقواه وأبلغه، عن الرؤية الإسلامية إلى الإرهاب أيًا كان، وعن الموقف الإسلامي الثابت من مرتكبي الإرهاب مهما تكن دوافعهم وأهدافهم. فهؤلاء المرتكبون للجرائم الإرهابية، قَتَلَةٌ لا يمثلون إلاّ أنفسهم. ولذلك فليس من الإنصاف ولا من العدل في شيء، أن يؤخذ المسلمون عموماً بجريرة هذه الفئة المنحرفة عن جادة الإسلام والخارجة على القانون.

العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب على أساس المصالح المشتركة :

إنَّ العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب يجب أن تقوم على أساس المصالح المشتركة، والالتزام بقواعد القانون الدولي، وخدمة قضايا الإنسان في كل مكان. وإن الأحداث التي تقع في البلدان الإسلامية والتطورات المتأزمة التي تشهدها مناطق إسلامية عديدة، تدعونا جميعاً إلى تضافر الجهود للتغلب على الأزمات وتسويتها، وفي المقدمة منها أزمة الشعب الفلسطيني ، التي تعدّ بكل المقاييس أخطر

تحدّ يواجه هذه العلاقات.

إن آفاق المستقبل تنفتح أمام العالم الإسلامي الذي يغالب مشاكله المتراكمة الناتجة عن سياسات استعمارية قديمة وجديدة، ويعمل على تحسين أوضاعه، ويواجه التحديات الحضارية التي يتفاقم خطرها كلما أمعن قادة القوى العظمى في الغرب، في ممارسة سياسة الضغط والسعي من أجل فرض نمطٍ حضاري واحد على حساب الخصوصيات الثقافية والحضارية للشعوب.

وأننا جميعاً، سواء في العالم الإسلامي، أو في أمريكا اللاتينية، نواجه هذا التحديَّ الحضاريَّ القاهر لإرادة الشعوب في الحرية والتنمية والتقدم والحفاظ على الخصوصيات. ولذلك لابد من تعزيز علاقات التعاون بين شعوب أمريكا اللاتينية التي نحمل لها كلَّ التقدير والاحترام، وبين شعوب العالم الإسلامي، وبينها وبين بقية شعوب العالم. فتلك هي السبيل إلى بناء المستقبل الإنساني الآمن.

المستشرقون والعداء للاسلام

١. (أ.ج. أربري) انجليزي معروف بالتعصب ضد الإسلام والمسلمين ومن محرري «دائرة المعارف الإسلامية».

٢. (الفرد جيوم) انجليزي معاصر، اشتهر بالتعصب ضد الإسلام. حاضر في جامعات إنجلترا وأمريكا. وتغلب على كتابته وآرائه الروح التنصيرية. ومن المؤسف أنه تخرج عليه كثير ممن أرسلتهم الحكومة المصرية في بعثات رسمية للخارج لدراسة اللغات الشرقية.

٣. (بارون كارا دي فو) فرنسي متعصب جداً ضد الإسلام والمسلمين. ساهم بنصيب بارز في تحرير «دائرة المعارف الإسلامية».

٤. (د. أ. ر. جب) أكبر مستشرقي إنجلترا المعاصرين كان عضوًا بالمجمع

اللغوي في مصر ، والآن أستاذ الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة هارفرد الأمريكية. من كبار محرري وناشري «دائرة المعارف الإسلامية». له كتابات كثيرة فيها عمق وخطورة وهذا هو سر خطورته.

٥. (جولد زيهر) مجري، عرف بعدائه للإسلام وبخطورة كتاباته عنه، ومن محري «دائرة المعارف الإسلامية».

٦. (جون مينارد) أمريكي متعصب كان يساهم في تحرير «مجلة جمعية الدراسات الشرقية» الأمريكية، وخاصة باب الكتاب الجديدة التي لها صلة بالإسلام وبالشرق على العموم.

٧. (صمويل زويمر) مستشرق منصر، اشتهر بعدائه الشديد للإسلام، مؤسس مجلة «العالم الإسلامي». الأمريكية التنصيرية، مؤلف كتاب «الإسلام تحد لعقيدة» صدر في سنة (١٩٠٨م) وناشر كتاب «الإسلام» وهو مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التنصيري في سنة (١٩١١م) بلكنهو بالهند، وتقديرا لجهوده التنصيرية أنشأ الأمريكيون وقفا باسمه على دراسة اللاهوت وإعداد المنصرين.

٨. عزيز عطية سوريال: مصري نصراني كان أستاذًا بجامعة الإسكندرية والآن يدرس بإحدى جامعات أمريكا، شديد الحقد على الإسلام والمسلمين وكثير التحريف للتعاليم الإسلامية.

٩. (غ. فون جرونباوم) من أصل ألماني يهودي مستورد إلى أمريكا للتدريس بجامعاتها وكان أستاذًا بجامعة (شيكاغو)، من ألد أعداء الإسلام. في جميع كتاباته تخبط واعتداء على القيم الإسلامية والمسلمين، كثير الكتابة وله معجبون من المستشرقين.

١٠. (فيليب حتى Ph.Hitti) لبناني نصراني تأمرك، كان أستاذًا بقسم

الدراسات الشرقية بجامعة برنستون بأمريكا ثم رئيساً لهذا القسم، وهو الآن بالمعاش. من ألد أعداء الإسلام، ويتظاهر بالدفاع عن القضايا العربية في أمريكا، وهو مستشار غير رسمي لوزارة الخارجية الأمريكية في شئون الشرق الأوسط، يحاول دائماً انتقاص دور الإسلام في بناء الثقافة الإنسانية ويكره أن ينسب للمسلمين أي فضل.

١١. (أ. ج. فينسينك) عدو لدود للإسلام ونبيه، كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري ثم أخرج منه على أثر أزمة أثارها الدكتور الطبيب حسين الهواري مؤلف كتاب «المستشرقون والإسلام» صدر في سنة ١٩٣٦م، وحدث ذلك بعد أن نشر (فينسينك) رأيه في القرآن والرسول مدعياً أن الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته.

١٢. (كينيت كراج) أمريكي شديد التعصب ضد الإسلام. قام بالتدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة لفترة من الوقت ثم رأس تحرير مجلة «العالم الإسلامي» الأمريكية التنصيرية ورئيس قسم اللاهوت النصراني في (هارتفورد) ومتعهد منصرين.

١٣. (لويس ماسينيون) أكبر مستشرقي فرنسا المعاصرين، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال إفريقيا، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر. كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري والمجمع العلمي العربي في دمشق، متخصص في الفلسفة والتصوف الإسلامي

١٤. (د. ب. ماكدونالد) أمريكي من أشد المتعصبين ضد الإسلام والمسلمين، يصدر في كتاباته عن روح تبشيرية متأصلة. من كبار محرري «دائرة المعارف الإسلامية»

١٥. مجيد قدوري: نصراني عراقي. رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط

بجامعة جون هوبكنز في واشنطن، ومدير معهد الشرق الأوسط للأبحاث والتربية بواشنطن، متعصب حقود على الإسلام وأبنائه.

١٦. (د. س. مرجوليوث) انجليزي متعصب ضد الإسلام ومن محرري «دائرة المعارف الإسلامية»، كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري، والمجمع العلمي في دمشق.

١٧. (ر. أ. نيكولسون) كان من أكبر مستشرقي إنجلترا المعاصرين، ومن محرري «دائرة المعارف». تخصص في التصوف الإسلامي والفلسفة وكان عضواً بالمجمع اللغوي المصري. وهو من المنكرين على الإسلام أنه دين روحي ويصفه بالمادية وعدم السمو الإنساني.

١٨. (هارفلي هول) رئيس تحرير «مجلة الشرق الأوسط» الأمريكية، وخطورته أنه يوجه سياسة مجلة من أهم المجلات المعنية بشئون الشرق الأوسط السياسة والثقافية في العصر الحديث.

١٩. (هنري لانس اليسوعي) فرنسي، من محرري «دائرة المعارف الإسلامية»، شديد التعصب ضد الإسلام والحقد عليه، مفرط في عدائه وافتراءاته لدرجة أقلقت بعض المستشرقين أنفسهم «الطائف»

٢٠. (يوسف شاخت). ألماني متعصب ضد الإسلام والمسلمين له كتب كثيرة عن الفقه الإسلامي وأصوله. من محرري دائرة المعارف الإسلامية ودائرة معارف العلوم الاجتماعية. وأشهر كتبه: «أصول الفقه الإسلامي».

ومن أهم موسوعاتهم وكتبهم ومجلاتهم الخطيرة ما يلي:

أولا:

أ- دائرة المعارف الإسلامية. صدرت بعدة لغات حية، يعاد طبعها بين حين وآخر.

ب- موجز دائرة المعارف الإسلامية.

ج- دائرة معارف الدين والأخلاق. (المقالات المتعلقة بموضوعات إسلامية).

د- دائرة معارف العلوم الاجتماعية. (الموضوعات المتصلة بالإسلام والعرب)

هـ- دراسة في التاريخ. (القسم المتصل بالإسلام ورسوله) من تأليف (أرنولد توينبي).

ثانيا: الكتب:

أ- حياة محمد. تأليف (سيرولیام موير).

ب- الإسلام. تأليف (الفرد جيوم).

ج- تاريخ (شارل) الكبير. تأليف القس (تبرين).

د- الإسلام تحد لعقيدة. ظهر بالإنجليزية من تأليف المنصر (صمويل زويمر).

هـ- دعوة المئذنة. ظهر بالإنجليزية من تأليف (كينت كراج)، وتاريخ العرب. ظهر بالإنجليزية والعربية، وطبع عدة طبعات من تأليف النصراني (فيليب حتى)، وهذا المؤلف مليئ بالطعن في الإسلام والسخرية من نبيه، وكله حقد وكراهية.

أ- طريق الإسلام. ظهر بالإنجليزية ، وترجم إلى العربية من تأليف جماعة المستشرقين، اشترك في تأليفه ونشره (أ. ر. جب).

ب- التطورات المبكرة في الإسلام، وكتاب محمد ومطلع الإسلام. من تأليف (د. س مرجوليوث)، وهناك غيرها كثير وكثير.

ثالثا: أهم المجلات التي يصدرونها:

أ- في عام (١٨٤٢م) أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم «الجمعية الشرقية

الأمريكية»، وفي العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم، وكذلك فعل المستشرقون في كل من النمسا وإيطاليا، وروسيا.

ب- مجلة شئون الشرق الأوسط. يصدرها المستشرقون الأمريكيون، وكذلك مجلة «الشرق الأوسط» وطابعها على العموم طابع الاستشراق السياسي كذلك.

ج- مجلة «العالم الإسلامي» وهي أخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر والتي أنشأها القس المنصر (صموبل زويمر) في سنة (١٩١١م) وتصدر الآن من (هارتفورد) بأمريكا، ورئيس تحريرها (كنيث كراج)، وطابع هذه المجلة تنصيري سافر.

د- وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة «العالم الإسلامي» في روحها واتجاهها العدائي التنصيري واسمها (Le Monde Musulman) وهناك مجلات أخرى غير ما ذكر.

القسم الثاني: قسم منصف معتدل: وهذا القسم يشمل أولئك النفر الذين اتجهوا إلى المنهج الاستشراقي بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، فكرسوا جهودهم في البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وأصبح منهم الدعاة للإسلام كما هو الشأن ب «توماس أرنولد»، الذي أنصف المسلمين في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»، وكذلك المستشرق الفرنسي «ناصر الدين دينيه» الذي أسلم وعاش في الجزائر وله كتاب «أشعة خاصة بنور الإسلام» مات في فرنسا، ولكنه دفن بالجزائر، وليس بغائب عن الأذهان النمساوي (ليوبولدفايس) الذي اعتنق الإسلام وغير اسمه إلى (محمد أسد) ليصبح بعد ذلك داعية من دعاة الإسلام والمدافعين عنه، وله من المؤلفات في ذلك «الإسلام على مفترق الطرق»، ونظرًا

لإنصاف هؤلاء أو إسلامهم فهم أقل من غيرهم خطأ وخطراً على الإسلام؛ لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف في الدين الإسلامي ومصادره. على أن هؤلاء لايوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص؛ لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى، لا تلقى رواجاً، لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولاعند عامة الباحثين، ومن ثم فهي لاتدر عليهم ربحاً ولا مالاً؛ ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين.

ومن هؤلاء الفئة من المستشرقين:

أ- (هارديان ريلاند ت ١٧١٨م) : أستاذ اللغات الشرقية في جامعة (أوترشت) بهولندا، له «الديانة المحمدية» في جزءين باللغة اللاتينية؛ لكن الكنيسة في أوروبا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها .

ب- (يوهان .ح . رايسكه ١٧١٦ - ١٧٧٤م) : أول مستشرق ألماني جدير بالذكر، اتهم بالزندقة لموقفه الإيجابي من الإسلام، عاش بائساً ومات مسلولاً، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية بألمانيا .

ج- (غوستاف لوبون) : مستشرق وفيلسوف مادي، لا يؤمن بالأديان مطلقاً، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية؛ مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره .

د- (زيجريد هونكه) : اتسمت كتاباتها بالإنصاف وذلك بإبرازها تأثير الحضارة العربية على الغرب في مؤلفها الشهير «شمس العرب تسطع على الغرب » .

ومن هؤلاء أيضاً : سلفستر دي ساسي (١٨٣٨م)، جاك بيرك، أنا ماري شمل، وكارلايل، ورينيه جينو، والدكتور جرينيه، وجوته الألماني، وغيرهم .

آثار المستشرقين:

بالنظر إلى مؤلفات المستشرقين يمكن أن نؤكد مدى حقد هؤلاء الفئة من الناس - عدا القليل المنصف منهم - على الإسلام وأهله، وكراهيتهم لهذا الدين؛ بل وهجومهم عليه ومحاولة دحضه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] ويرى بعض الكتاب المعاصرين أن حال هؤلاء الصنف من المستشرقين قد شهد نقلة نوعية في ميدان دراستهم؛ حيث كانت الكتابات الأوروبية المبكرة متأثرة بالدين النصراني إلى حد كبير، وكانت المحاولات الأولى تهدف إلى تقويض الإسلام كدين من خلال تشويه تعاليمه الأساسية، وترويج الأساطير والخرافات عن القرآن والرسول بأسوأ شكل ممكن؛ ولكنها الآن أخذت طابعاً آخر. فبدلاً من تقويض المعتقدات الإسلامية، التي ثبت أنها الإسلامي كقوة اجتماعية سياسية. ففي سنة (١٩٩٥م) أعد (روجر هاردي) برنامجاً إذاعياً في سبع حلقات بعنوان«الإسلام : الإيمان والقوة» ضمن عدة لقاءات مع رموز الحركة الإسلامية في أكثر من بلد منها: السودان وتركيا ومصر ومنطقة الخليج والشام إضافة إلى فرنسا وأمريكا. وفي هذا البرنامج الذي أذاعته ال (BBC) بأكثر من لغة، أشار (هاردي) إلى أن الكثير من السياسيين لا يملك سوى خبرة بسيطة بالقوى الاجتماعية والثقافية التي تصوغ الشرق الأوسط، فزياراتهم الرسمية إلى المنطقة تقتصر في الغالب على الالتقاء بالنخبة الحاكمة، ورجال الأعمال، وجماعات الضغط ؛ لذلك لايحصلون على فرصة للتعرف على الإسلام، والفكر الإسلامي، وحقيقة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من خلال الالتقاء الشخصي برموز الإسلام ومفكريه وعلمائه، وبدلاً من ذلك فهم يتعرفون على أفكار التيار الإسلامي من خلال المصادر التالية وبخاصة أمريكا.

أ- الصحافة الأمريكية .

ب- الدراسات الأكاديمية : وكان من حرص الولايات المتحدة على خبرات هؤلاء الأكاديميين أن استقدمت المستشرق الأمريكي (هاملتون جب) ليرأس قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة (هارفرد) المشهورة وليواصل كتاباته وبحوثه في شؤون العالم الإسلامي .

ج- التقارير السياسية وتقارير المخابرات الأمريكية التي تقدم لحكومة الولايات المتحدة، أو مايجري في أروقة البيت الأبيض من نقاش حول قضايا العالم الإسلامي تنال فيه الصحوة الإسلامية نصيب الأسد. ومن هنا يكون حكمهم على الإسلام والإسلاميين حكماً غير منطقي إذا هم أرادوا النصف، وأما ماداموا متمسكين بعدائهم فلا فائدة إذن من معرفتهم للإسلام الحق عن طريق أهله.

وعلى الرغم من التشابه في كثير من الحالات بين أوروبا وأمريكا في نظرتهم للمسلمين فإن السياسة الأوروبية في الشرق الأوسط تختلف نوعاً ما عن السياسة الأمريكية مع وجود المصلحة المشتركة بين الطرفين وهي أمن «إسرائيل» ومصادر البترول في الخليج، ففي كلمة ألقاها رئيس الوزراء البريطاني (جون ميجر) في مجلس الشرق الأوسط البريطاني ألمح إلى موقف بلاده من عملية السلام، ومن العدو الذي يهدد هذه العملية، ويقصد التيارات الإسلامية قائلاً: «الإرهاب عدونا جميعاً؛ لأنه موجه ضد أولئك الذين يبحثون عن السلام والتقدم في الشرق الأوسط. فالإرهاب هو مهمة الذين يرفضون الالتزام بالقوانين وبمبادئ المجتمع المتحضر، فلا بد إذن من أن نلاحق هؤلاء الإرهابيين ونقدمهم إلى العدالة فليس من المقبول على أي دولة أن تتسامح - فضلاً عن أن تدعم - الإرهاب، كما ينبغي على المجتمع الدولي أن يتحد للوقوف في وجه الدول المساندة للإرهاب» .

يبدو أن هناك رأيين متباينين لهذه النظرة، فمساعد وزير الخارجية الأمريكي السابق لشؤون الجنوب والشرق الأدنى (إدوارد جريجيان) يرى في كلمة ألقاها في يونيو (١٩٩٢م) أن الإدارة الأمريكية لاتنظر إلى الإسلام على أنه الخطر القادم؛ حيث يقول : «حكومة الولايات المتحدة لا تنظر إلى الإسلام على أنه العدو الإيديولوجي الجديد للغرب أو على أنه يهدد السلام العالمي، ويصف نظرية القائلين بعكس ذلك مثل (لويس هانتنتون) على أنها موقف سطحي من واقع معقد مضيفاً بأن الحرب الباردة لم تستبدل بسباق جديد بين الإسلام والغرب». ولكن من الصعب رؤية ذلك منعكساً بشكل واقعي على السياسة الأمريكية في تعاملها مع المسلمين، فهناك تيارات ضمن دائرة صناع القرار في السياسة الأمريكية ترى أن الإسلام هو بالضبط التهديد الجديد؛ ولكن لأسباب سياسية لايستطيع هذا التيار أن يفصح عن رأيه مباشرة وصراحة كما فعل (جريجيان)، إلا أنها تأتي ضمنياً. وقد تعلن بوضوح كما فعل وزير الخارجية الأمريكي سابقاً (فريد أيكل) حيث ألقى كلمة أمام لجنة الاستماع بالكونجرس الأمريكي في مايو (١٩٨٥م) - أي قبل سقوط العدو الرئيسي - الاتحاد السوفيتي - أشار (أيكل) إلى مصدرين للإرهاب هما : الشيوعية وأشكال من الأصولية الإسلامية؛ ولذلك نجد الولايات المتحدة تسعى لمجابهة الإسلاميين «الأصوليين كما يسميهم الغرب» من خلال مساندة الأنظمة العلمانية للقضاء على هذه الظاهرة التي تهدد مصالح أمريكا، وتهدد أمن إسرائيل أو من خلال أي منظمة أو طرق أخرى تساعدهم في تحقيق أهدافهم.

سيبقى الإسلام مصدر قلقا للغرب طالما هناك ظلم واستبداد ومحاولة إلغاء هويته. وإن الذين يجادلون اليوم بأن النزحة الإسلامية أو الإسلام السياسي هو أكبر تهديد للحضارة الغربية.

إذا كانت حالة التدافع الحضاري قد أوصلت الحضارة الغربية المعاصرة إلى درجة من التفوق المادي والعلمي والإداري فإن تداعيات هذا الصعود الحضاري علينا كأمة مسلمة تجاوزت بكثير النتائج المتوقعة عادة من صعود حضارة ما ربما لأن الحضارة الغربية في هذا الطور من أطوار نموها أشاعت أن هذا هو الطور النهائي من تطور الحياة على الأرض وأن التاريخ قد انتهى عند هذا الحد ..انتهى بإعلان تفوق الحضارة الغربية وإعلان أن قيمها هي القيم المثالية في حياة البشرية وعليه فعلى جميع شعوب الأرض أن تتبنى هذه القيم بحيث تقاس درجة نجاحها وتطورها بمدى سيادة هذه القيم التي تم اعتبارها الخير الأسمى الذي بحث عنه الفلاسفة القدامى طويلا.

ومن جهة أخرى أوجد هذا التفوق الغربي الكاسح حاجة ماسة لدى طلائع النهضة من أبناء حضارتنا المستمسكين بأصالتها وقيمها الرفيعة لمحاولة فهم وتفكيك العقل الغربي كخطوة أولى وأساسية للتعاطي مع واقع الهيمنة الحضارية الغربية فكثرت الدراسات والبحوث التي تحاول الغوص داخل العقل الغربي الحديث لترى الجذور الوثنية وقد تلبست بتعصب ديني بشع وامتزجا معا في دين عجيب سرى في دماء الحضارة الغربية الحديثة حتى لو أنكرته وتبرأت منه .

والأقرب إلى الحقيقة أن الفلسفة الغربية الحديثة التي قامت عليها الحضارة الغربية لم تستطع أن تحسم صراع الفلسفات لصالحها فظلت الأفكار والفلسفات القديمة الأكثر تعصبا هي منظومة الأفكار السائدة غربيا والمتحكمة في مواقفه وتعاملاته لاسيما فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين ولنأخذ موقف الغرب من الحجاب نموذجا لصراع الفلسفات هذه.

لاشك أن المتأمل لموقف الغرب من الحجاب سيجد مواقف متباينة متنوعة فبينما

يتحدث أوباما عن حرية المرأة المسلمة في ارتداء الحجاب حتى أنه اختار مستشارة محجبة وضمها لفريق مستشاريه في البيت الأبيض وهو يتحدث عن الحجاب بصورة تشي بالتقدير والاحترام يقول أوباما : إن الحكومة الأمريكية تقوم بإجراءات المقاضاة من أجل صيانة حق النساء والفتيات في ارتداء الحجاب ومعاقبة من يتجرأ على حرمانهن من ذلك الحق. في الوقت الذي يشن فيه الرئيس الفرنسي ساركوزي حربا على النقاب باعتبار أن المنتقبات غير مرحب بهن على أراضي الجمهورية الفرنسية. بل إنه وعندما كان وزيرا للداخلية تم تدشين قانون يمنع الفتيات المسلمات من ارتداء الحجاب داخل المدارس الحكومية الفرنسية.

كذلك فقد مثل الألماني الذي قتل المصرية المحجبة مروة الشربيني داخل قاعة المحكمة نموذجا لقطاع من المواطنين الغربيين خارج نطاق مؤسسات الحكم وصناع القرار الذين يرفضون الإسلام ويرون في ارتداء المسلمة للحجاب نموذجا حيا للإسلام ويضيقون ذرعا بالقيم التي جاء بها الإسلام ويمثلها ارتداء الحجاب على الرغم من أن العديد من المؤسسات والقطاعات قد أدانت سلوك هذا المجرم الألماني ونددوا بقيم التعصب وضيق الأفق.

لا يمكن إذن تفسير المواقف الغربية المتناقضة إزاء قضية الحجاب إلا بتعدد الفلسفات الحاكمة في الغرب وأنه ثمة صراع بين هذه الفلسفات يتحدد في محصلتها النهائية موقف الغرب من الإسلام وشرائعه وقيمه وممثليه.

فالمدرسة الأمريكية يغلب عليها الطابع البرجماتي الذي يقول عنه رائد المذهب وليم جيمس (إنه اتجاه تحويل النظر بعيدا عن الأشياء الأولية المبادئ، النواميس ، الفئات، الحتميات المسلم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة الثمرات، النتائج، الآثار الوقائع، الحقائق) فإذا كان احترام الحجاب سيرفع من أسهم

الولايات المتحدة ويحسن صورتها أمام المسلمين فلا بأس من احترامه ومنح الحرية لمن تشاء أن ترتديه لأنه في المقابل ستحصل الولايات المتحدة على الصفقات المربحة الثمينة والنفط والمواد الخام التي تحتاجها من الدول الإسلامية التي اكتسبت ثقتها وعلى مستوى الدخل الأمريكي يحدث لون من الاستقرار في المجتمع ويندمج المسلمون بصورة ناعمة في المجتمع الأمريكي والقيم الأمريكية الخاصة أي القيم النفعية البرجماتية التي لا تعول على أي مبدأ إلا بقدر نفعه ويأمل أصحاب هذا الفكر من تحقيق معادلة الإسلام البرجماتي.

أما المدرسة الغربية الأخرى التي تقودها فرنسا فهي تمثل إشكالية حقيقة ، فكثير من المعنيين بدراسة أحوال الجالية المسلمة في فرنسا لا يجدون تفسيرا مقنعا لموقف فرنسا من الحجاب والقمع الذي تلاقيه المحجبات على أراضي الجمهورية العلمانية ، فالصورة الشائعة عن فرنسا في أدبياتنا والتي روجها عدد من مثقفينا العلمانيين أن فرنسا هي بلد الحرية على أرضها أشرق عصر الأنوار الذي أخرج الناس من ظلمات العصور الوسطى وأن فلاسفتها العظام هم الذين أعادوا الاعتبار للعقل ولمركزية الإنسان في الكون ورفعوا لواء الحرية والتمرد على أي قيد يحد من حرية الإرادة الإنسانية و..و..فماذا حدث وكيف تقيم الجمهورية العلمانية محاكم التفتيش للمحجبات على هذا النحو ؟

لابد أن نذكر في هذا الصدد أمرين قد يصلحان كتفسير لتلك الإشكالية ..

الأمر الأول : أنه على الرغم من أن العلمانية الفرنسية قد قامت على أنقاض الدين إلا أن القيم الثقافية الحاكمة لا تزال غنية بالنكهة الدينية المشوهة فميراث الحروب الصليبية التي شاركت فيها أوروبا جميعا وكان لفرنسا فيها نصيب الأسد أصبح أحد مكونات الجينوم الغربي إن جاز التعبير يقول المفكر الغربي المهتدي محمد

أسد:(قد يبدو من سخرية التاريخ أن يظل هذا الحقد الغربي القديم على الإسلام قائما بطريقة لا شعورية في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره في مخيلة الغربي بيد أن هذا في الحق لا يبعث على الدهشة فنحن نعرف أن شخصا ما يمكنه أن يفقد بالكلية المعتقدات الدينية التي لقنها في طفولته ومع ذلك فإن انفعالا معينا ذا صلة بتلك المعتقدات أصلا يستمر دونما وعي في حال العمل إبان حياته فيما بعد . إن خيال الحروب الصليبية لا يزال يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هذا كما أن جميع اتجاهاته وتوجهاته نحو الإسلام والعالم الإسلامي لا تزال تحمل آثارا واضحة جلية من ذلك الشبح العتيد الخالد).

أما الأمر الثاني: فيتعلق لا بالموقف من الإسلام عموما ، ولكن بالموقف من الحجاب خصوصا ، فهم لا يشنون الهجوم على الصلاة والصيام ونحو ذلك من العبادات وإنما يخصون زي المرأة المسلمة تحديدا ، وأن هناك حالة من الهلع تسود الأوساط العلمانية من جراء انتشار الحجاب ، فالحجاب في مضمونه قيمة حضارية مباينة تماما لمنظومة القيم الغربية السائدة والتي يراد لها أن تكون قيما عالمية ، فشتان بين فلسفة تقوم على الستر والاحتشام ، وغض البصر ، وعدم الخضوع بالقول ، والتحفظ في العلاقات بين الجنسين وفلسفة أخرى تنادي بالحرية الجنسية التي تصل إلى حد الثورة ، وتدعو المرأة إلى التمتع بحرية جسدها ، وتتفنن مدن آمنت بهذه الفلسفة في صناعة الملابس المثيرة التي تسوقها على مستوى العالم كله باعتبارها النموذج الأكثر جمالا وأناقة.

هناك وقع التصادم الحتمي بين الدعوة للحرية والتي كانت أحد تجلياتها حرية المرأة في انتقاء ملبسها مهما كان متبرجا ، وبين القدرة على تحمل قيم مخالفة تفرز صورا من اللباس المختلف ، لكنه تصادم نستطيع منه استشفاف رائحة الخوف

والتمترس حول قيم الحرية الزائفة والمرجعية العلمانية السائدة فالخوف من تآكل الصورة النمطية للمرأة الغربية وما يستتبع ذلك من انهيار المشروع القيمي العلماني هو دافع أساسي للسلوك العدواني إزاء الحجاب والمحجبات.

كان قوم لوط من الشواذ، يمارسون الفحشاء مع أمثالهم من الرجال ، وعدوا الشذوذ هو الأصل، والطهارة هى الاستثناء، ولذا حاربوها وحاربوا الداعين إليها، وعلى رأسهم سيدنا لوط عليه السلام ، وكانت تساعدهم فى حربهم ضد الطهارة زوجته التى كانت تنقل أخباره إلى قومه ،وكانت نهاية هؤلاء القوم طبيعية حين انقلبت بهم الأرض فصار عاليها سافلها ، ومعهم زوج لوط ، الذى أنجاه الله ومن آمن به .

معاناة المسلمين في فرنسا

وهذه المسوغات بعينها هى ما يرفعه الصليبيون الاستعماريون المتعصبون فى فرنسا ضد المسلمين ، دع قضية الحجاب جانبا ، وانظر إلى مجمل ما يعانيه المسلمون من تمييز عنصرى بشع وكريه فى أرجاء البلاد الفرنسية ،مع أنهم يمثلون القوة الثانية بعد الكاثوليك ،ويبلغ عددهم أكثر من خمسة ملايين مسلم ،منهم ثلاثة ملايين يحملون الجنسية الفرنسية ،والباقى من المقيمين الذين قضوا فترات طويلة هناك فلا يوجد وزير مسلم واحد فى فرنسا ،ولا يوجد مسئولون مسلمون فى الإدارات الفرنسية حتى المستويات الدنيا ..والمسلمون يسكنون غالبا فى الأحياء الفقيرة ، ويعيشون مستوى اقتصاديا أقل من اليهود والكاثوليك ..ومع ذلك فهم يخدمون الدولة الفرنسية بإخلاص ، ويعطونها جهدهم وعمرهم ، ويأبى عليهم المتعصبون أن يكون لهم وجود إنسانى أو كيان محترم ..بل يريدونهم عبيدا بلا دين ولا عقيدة ولا ثقافة ولا هوية !.

إن فرنسا تمتلئ بالنساء العاريات والداعرات والمدمنين والشواذ والإباحيين ، ولكن ذلك لا يشغلها ولا يمثل لها مشكلة خطيرة ، فقط يشغلها إستراتيجيا وقوميًّا حجاب المرأة الفرنسية المسلمة الذى يعلن من وجهة نظرها عن هوية صاحبتها الإسلامية ..صار الحجاب علامة وشارة لدى فرنسا المتعصبة الظلامية ،وليس جزءا من العقيدة الإسلامية التى تلزم المرأة بالطهارة والعفة والنقاء ..ويجب التخلص من هذه الشارة وتلك العلامة ؛لأن ذلك يخل بالمعادلة العلمانية ، ويقضى على النظام الجمهورى ؟!.

ولا ريب أن المشابهة قائمة بين قوم لوط فى منطقهم المعوج ضد المتطهرين ، والمتعصبين الفرنسيين ضد الحجاب ،وكلا الطرفين يملك عقلا وبصرا وعلما وفقها ، ولكن الشذوذ والتعصب ضربا بظلامها على الجميع ،وإذا كان قوم لوط قد نالوا جزاءهم قديما ،فلا أظن المتعصبين الفرنسيين سيفلتون من العقاب الإلهى قريبا أو بعيدا.. وصدق الله إذ يقول ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ الكهف ، فالظلم هو سبب الهلاك ومقدمته فى كل مكان وزمان !.

القضية فى كل الأحوال ليست قضية الحجاب ، وإن كان الحجاب جزءا منها ، إنها قضية الإسلام الذى يكرهه الصليبيون المتعصبون ، ويحاربونه ليل نهار ، ويحققون انتصارات عظيمة (في هذا المضمار) .. .. ومع كل هذه الانتصارات الصليبية الاستعمارية ، فإنهم يخافون الإسلام والمسلمين ،لأن قيمه ضد طموحاتهم الشريرة وغاياتهم العدوانية وسلوكهم الإجرامى ضد الآخر استعمارا ونهبا وإذلالا واستعبادا .

والمفارقة أن الإسلام ينتشر فى عقر دارهم ،وبين أبنائهم الذين يهديهم الله تعالى إلى التعرف عليه وعلى مبادئه وتشريعاته ، وقد كثر القول مؤخرا عن دخول عدد كبير من الأوروبيين والأمريكان إلى الإسلام عقب أحداث سبتمبر (٢٠٠١) الغامضة ،التي اتهم المسلمون بتدبيرها ،حيث تهافت عدد كبير من أهل أوروبا وأمريكا على شراء نسخ القرآن الكريم ومحاولة التعرف على ما فيه وكانت النتيجة إسلام بعضهم ، وتحجب نسائهم المسلمات ،مما أثار ذعرا وقلقا فى دوائر المتعصبين الصليبيين الظلاميين الذين مازالوا يعيشون بمنهج بطرس الحافى !!.

والمسيحية أبعد ما تكون عن الصليبية الاستعمارية ،ولقد اتخذ الاستعماريون الهمج من الصليب شارة وعلامة على المسيحية ،وهم يذبحون ويقتلون المسلمين

والنصارى على السواء(الحملة الصليبية الثالثة توجهت إلى بيزنطة بدلا من القدس ، فأعملت فى أهلها النصارى قتلا وتشريدا ونهبا مما تقشعر له الأبدان).

وهو ما يكرره الصليبيون المعاصرون فى هيستيريا لا تقل خطورة عن الهيستيريا الصليبية القديمة ، حين يرون فى الحجاب ما تدل على تمدد الإسلام داخل المجتمع الصليبى الاستعمارى ،وهو ما يضعه الاستراتيجيون الغربيون تحت دائرة الضوء والتشريح لمعرفة مستقبله وتأثيره على المعادلة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى الغرب ،كما يرى بعض الباحثين .إن الإسلام اليوم وهو حاضر المسلمين دائما فى الشارع الأوروبى يجعل الأوروبيين يتساءلون دائما عن الإسلام ، وعن أولئك القوم الذين يتطهرون بالحجاب والعفة والنقاء ولا ينضوون تحت لواء الإباحية أو الإدمان أو الشذوذ ..وهذا ما تراه الحكومات الاستعمارية المتعصبة خطرا على وجودها فى المدى القريب أو البعيد .. ومهما يكن من أمر ،فإن الحملة المسعورة ضد الحجاب لن تزيد المسلمين إلا تمسكا بدينهم وحرصا عليه ودفاعا عنه وانتماء إليه ، والله غالب على أمره.

المرأة المسلمة في الغرب - تعاني بسبب حفاظها على الحجاب

رغم كل الادعاءات في الدول الأوروبية بأنها مرتع خصب لحرية التعبير والأديان إلا أن مظاهر العداء للإسلام تتضح يوما إثر يوم ولاسيما تجاه حجاب المرأة المسلمة، فمن منا لا يذكر قصة الطالبة الجزائرية التي منعت من دخول مدرستها في فرنسا لأنها ترتدي الحجاب في حين يسمح للطلاب اليهود بارتداء قلنسوتهم. وهناك أيضا قصة المدرسة النرويجية التي فصلت من مدرستها بعد أن أشهرت إسلامها وارتدت الحجاب، فسارعت لرفع عدة دعاوى أمام المحاكم دون جدوى بحجة أنها تمثل خطرا على النشء.

مسيرة تأييد!

وفي ألمانيا خرجت تلميذات مسيحيات مع أمهاتهن في مظاهرة احتجاج بولاية سكسونيا السفلى وهن يرتدين حجاب المرأة المسلمة احتجاجا على أمر وزيرة الثقافة في الولاية بالاستغناء عن خدمات معلمة مسلمة ؛ لأنها ترتدي الحجاب الإسلامي.

وذكرت جريدة الدعوة الإسلامية الصادرة بمدينة طرابلس بالجماهيرية العربية الليبية أن المعلمة المعنية كانت قد اعتنقت الإسلام منذ عشر سنوات وتمرست في مجال التدريس ومنحت عددا من شهادات التقدير .

قضية سياسية!!

وأعلن مايزن هولتر النائب السابق لرئيس المحكمة الدستورية العليا وهي أعلى هيئة قانونية في ألمانيا تطوعه لرفع قضية لها واصفا تصرف الوزيرة بأنه خلق من قضية إدارية قضية سياسية. ومن جانب آخر قالت روزا ماري رئيسة إدارة هامبورج التعليمية : إنه لا يوجد لديها أو لدى أي مسؤول في الولاية أي اعتراض على عمل مدرسة دخلت الإسلام منذ ٣ سنوات بالحجاب ؛ لأنه لا يوجد أي نص في القانون الألماني يمنع ذلك.

حجاب المرأة المسلمة في الثقافة الغربية!!

ثمة ظاهرة في العالم الإسلامي بدأت في العقدين الأخيرين تثير انتباه علماء الاجتماع الغربيين، وخاصة أولئك المهتمين بقضايا العالم الإسلامي خصوصًا، أو المهتمين بالظواهر الاجتماعية المختلفة عموماً. وهي ظاهرة عودة الحجاب بكثافة في الوطن العربي، ولاسيما في المجتمعات التي كان للاستعمار تأثير اجتماعي وثقافي كبير فيها.

لقد أخذت هذه الظاهرة تفاجئ زوار المدن العربية في الحزام الشمالي من الوطن العربي: مصر، وسوريا، ولبنان، وتونس، والجزائر، والمغرب. وصارت تمثل لغزاً مبهماً أمام أعين المراقبين الخارجيين، ذلك أن هؤلاء الفتيات هنَّ في متوسط العمر، ومن المنتميات للأجيال الحديثة، فضلاً عن أنهنَّ قطعنَ شوطًا كبيرًا في مضمار التعليم، والأهم أنَّ هؤلاء الفتيات قد تحجبنَ بإرادتهنَّ الحرة، بل وفي كثير من الحالات ضد رغبات آبائهنَّ.

مثار الاستغراب حسب عالم اجتماع غربي هو (LOIS BECK) يعود لكون الحجاب كان لقرون عدة يرمز إلى «اضطهاد» المرأة العربية المسلمة، وإلى المركز «المتدني» الذي كانت تحتله في المجتمع، وفق النظرة الغربية السطحية. عالم اجتماع غربي آخر هو (NIKKI KEDDIE)يَردّ أسباب الاستغراب والإثارة إلى كون ظاهرة الحجاب قد جاءت إلى المجتمع العربي بعد حركة نسائية نشطة شهدتها المنطقة خلال النصف الأول من القرن المنصرم. وكان السفور أثناءها رمزاً لتصميم النساء على «التحرر من الأغلال» . ويضيف (KEDDIE)أنَّ تلك الحركة نجحت فعلاً في صوغ قوانين للأسرة وللأحوال الشخصية في المنطقة.

هذه التساؤلات وغيرها دفعت علماء الاجتماع الغربيين إلى ربط هذه الظاهرة بالحداثة بمفهومها الغربي العلماني، متسائلين إن كانت هذه القضية تمثل نكسة ضد الحداثة. مستندين في ذلك إلى تصنيفات كثيراً ما تكون مقطوعة الصلة بمثل هذه الظواهر، ومختزلين الحداثة بشكل ظاهري سطحي وهو السفور والملابس العصرية والاختلاط الحر مع الجنس الآخر واللقاء «الرومانسي» بين الجنسين.

عالم اجتماع بريطاني هو (جودي مابرو) لخّص النظرة الغربية لظاهرة الحجاب وفق قراءة فيها شيء من الموضوعية في كتابه «تصورات الرحالة الغربيين عن النساء

في الشرق الأوسط».

يقول مابرو: «شكلت النساء المسلمات مؤخراً موضوع نقاش كثيف في الصحافة الغربية، خاصة حين طالبت قلّة قليلة من الفتيات في فرنسا وإنكلترا بحقهن في ارتداء غطاء الرأس في المدرسة. ولقد عكس السجال الطويل الذي دار في فرنسا، والآخر المقتضب الذي دار في إنكلترا، تلك النظرة الغربية المتأصلة التي ترى أنّ السبب الأوحد لاضطهاد النساء المسلمات هو دينهن. إذ إنه ، يضيف مابرو، طالما اعتقدت أوروبا أن النساء المسلمات يعانين من الاضطهاد ما لا تعانيه غيرهن من النساء، فهذا ما وصفته كتب الرحلات الغربية والأدب الغربي. وما صوّره الفن الغربي على مر فترة مديدة من الزمن، لذا فقد أُخذ الأمر على أنه واقعة لا شك فيها، ويمكن للجميع أن يروها متجلية في الحجاب، وفي مؤسسة الحريم. هاتان الظاهرتان لا تزالان تثيران اليوم ردود فعل قوية شأنهما في أي وقت مضى. يرى (مابرو) أنّ «الحجاب هو الذي يطلقه الغرب على كل وشاح يغطى به رأس المرأة، وهو تعبير يمكن أن يضلّل ويسوق إلى تعميمات زائفة ومغلوطة، لذا سرعان ما طفت على السطح مجموعة من الأفكار الخاطئة عن الإسلام والنساء المسلمات.

ومن الأمثلة التي يوردها مابرو على ذلك أنَّ مراسلاً لـ (جارديان) قام بتحقيق عن حالة تلميذتين في «أولتر بخشام» ارتدتا غطاء الرأس فطلب مقابلة والدهما لاقتناعه أن الإسلام دين يهيمن فيه الرجال، وأنَّ النساء المسلمات كائنات سلبية لا حول لها ولا قوة. غير أنَّ إحدى الفتاتين قالت له : إنَّ والدها مشغول، وعرضت عليه أن تساعده هي نفسها. ويقول هذا المراسل: من ثم فقد ساعدتني فاطمة طوال ٤٠ دقيقة كاملة، ومع أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها فإنَّ طلاقتها وثقتها بنفسها لو وجدتا في أي شخص في ضعف سنها لكانتا لافتتين للانتباه، فهي سيدة

تعرف نفسها وتعرف ما تريد. (الجارديان ١٩ يناير ١٩٩٠).

مثال آخر يسوقه مابرو، ففي مايو ١٩٨٩ تضمَّن برنامج تلفزيوني عن أفغانستان مقابلة أجراها رجل أيضاً مع بعض الفتيات في جامعة كابول، وحين أعربت الفتيات اللاتي يعشن في مدينة أنهكتها الحرب في رغبتهنَّ الجامحة في السلام، وعن استعدادهنَّ لقبول التسويات إذا ما كانت ضرورية لتحقيقه، أصيب المحاور البريطاني بصدمة. فقد كان واثقاً من أنَّ هؤلاء الصبايا اللاتي ترعرعن في فترة الحكم الشيوعي لا بد أن يجدن مكانة النساء أكثر أهمية من السلام. وحين طرح عليهن السؤال: «أأنتن مستعدات حقاً لارتداء الحجاب؟

أجبنَ جميعاً أنهنَّ مستعدات إذا ما كان لذلك أن يسهم في إحلال السلام في البلاد.

مثال آخر يضيفه مابرو موضحاً الرؤية الغربية لموضوع الحجاب والمرأة المسلمة عموماً. يقول: نشرت مجلة «ماري كلير» ، وهي مجلة للأزياء في بريطانيا مقالاً بعنوان «جزيرة العرب خلف الحجاب» في سبتمبر ١٩٨٨ . يصفه مابرو «بأنه يعزف على وتر افتراضات بالية ورثها عن الرحالة الغربيين بخصوص النساء الشرقيات».

ومن المقال: «غالباً ما تأتي خبرة الغربيين بالحجاب من رؤيتهم زمراً من النساء القصيرات المتسربلات من الرأس إلى أخمص القدمين بنوع من الكتان الأسود الفاحم، وهن يطفنَ على مهل في متاجر المدن الكبرى. ومع أنَّ هؤلاء النساء يبدينَ بمثابة الشيء الشاذ والغريب وهنَّ يركبنَ ويترجلنَ من سيارات الليموزين التي تراها متوقفة بانتظارهنَّ أمام محلات « الماربل آرش لماركس وسبنسر في لندن » إلاَّ أنهنَّ قد يكنَّ في بلادهنَّ ساحرات الجمال وغامضات وفاتنات ومدهشات مثل نجد تلك الصحراء القاحلة في شبه الجزيرة العربية».

يرى مابرو: أنَّ كاتب المقال المذكور لا يُعنى بهؤلاء النساء إلا بوصفهنَّ موضوعات جنسية. كما يرى في مكان آخر أن أسباب وصف الأوروبيين للمرأة المحجبة بالتخلف والبؤس إنما هو نتاج للمركزية العنصرية والإيمان بتفوق العنصر الأوروبي».

وفق هذه الرؤية كثيراً ما يدرس علم الاجتماع الغربي هذه الظاهرة بناء على نظرة سطحية هشة. فضلاً عن كونها، كما أسلفنا، مقطوعة الصلة بظروفها وأبعادها ومضامينها الحقيقية. وهو ما عبر عنه الفكر الغربي في التجمعات العالمية التي نُظمت لدرس قضايا المرأة في العالم، كـ «المؤتمر العالمي للسكان والتنمية» الذي عقد في القاهرة في سبتمبر ١٩٩٤، و«المؤتمر الرابع للمرأة» الذي عقد في بكين سبتمبر ١٩٩٥.

لقد تعامى الفكر الغربي تماماً في هذه المؤتمرات عن حقيقة أنّ النسق الاجتماعي في كل دولة يخلق أوضاعاً خاصة بها تسمح بإباحة حقوق للمرأة قد لا تتناسب مع دول أخرى لها نسق يتفق مع ظروفها، ومن ثم يختلف تناول قضية «تمكين المرأة»، وهو المصطلح الذي يسود حالياً، من مجتمع لآخر بحسب المعايير التي تشجع بها تقاليد كل مجتمع.

وهنا نعود لنتساءل مع عالم الاجتماع المصري «سعد الدين إبراهيم» حول حقيقة هذه الظاهرة ومدى أثرها على تطور المرأة وتخلفها كما تدَّعي تصنيفات علم الاجتماع الغربي. وحسب إبراهيم في كتابه الموسوم «النظام الاجتماعي العربي الجديد»: «أنه إذا كانت الحداثة تعني السفور والملابس العصرية والاختلاط الحر مع الجنس الآخر واللقاء الرومانسي بين الجنسين، ففي هذه الحالة تمثل الفتيات المحجبات نكسة لقضية الحداثة؛ أما إذا كانت الحداثة من ناحية أخرى تعني

اكتساب العلوم الحديثة والتكنولوجيا والإنسانيات، وإذا كانت تعني أيضاً الالتزام، ففي هذه الحالة تعدّ الفتيات المحجبات حديثات بكل المعاني».

ويصف الدكتور إبراهيم فوائد الحجاب بما يتناسب مع المنطق الغربي الفلسفي فيقول «إنّ هؤلاء الفتيات يؤكدنَ على واحد أو أكثر من المعاني التالية: هوية أصيلة في مواجهة تقليد أساليب الحياة الغربية، اعتراض على ما يبدو أمامهنَّ سلوكاً منحرفاً أو فاسداً في المجتمع، ثم التخفيف من الآثار الباهظة الناجمة عن ارتفاع معدلات التضخم وذلك بتجنب ارتداء الملابس الغالية والحرص على السمعة الأخلاقية .

كما أنّ هؤلاء الفتيات هنّ استجابة معقدة لعالم معقد من حولهنَّ. عالم لا يستطعنَ السيطرة عليه من قريب أو بعيد، ويشمل سيلاً متدفقاً من السلع الاستهلاكية الغالية والتضخم المرتفع، فضلاً عن أساليب الحضارة الغربية.

كذلك فإن هؤلاء الفتيات المحجبات يتعلقنَ بميراث يبدو وكأنه يستعيد إحساسهن بالجدارة ويحميهنَّ من المجهول. إنهنَّ بكل بساطة ينتقينَ من محتويات حقيبة الحداثة، ويأخذنَ من الحداثة ما تحتويه من علم وتكنولوجيا، ومن التزام بمستقبل مهني، ثم يتركنَ بقية هذه المحتويات، يحدوهنَّ شعور وقناعة عميقة بأنَّ ما اخترنه من هذه الحقيبة إنما يتسق مع تراثهنَّ ومع تعاليم الدين الحنيف، ومع الأصالة .

ويختم إبراهيم معلقاً: هذا هو سبيلهنَّ لكي يفرضنَ بعض النظام على عالم يبدو لهنَّ مفعماً بالفوضى والاضطراب.

بقي أن نذكر مثالاً أورده المفكر الإفريقي «فرانز فانون» عن المرأة الجزائرية أيام الاستعمار الفرنسي: «إن حجابها وسفورها كان جزءاً لا يتجزأ من تأكيدها لذاتها القومية والثقافية والحضارية. فعندما شجع الاستعماريون الفرنسيون النساء

الجزائريات على السفور عمدنَ إلى التمسك أكثر بالحجاب كرمز للمقاومة، وعندما تطلبت المقاومة سفور بعض النساء للتسلل داخل صفوف المستعمرين الفرنسيين وزرع المتفجرات في الأحياء السكنية الأجنبية تخلت بعض النساء عن الحجاب»، ولكن التخلي كان مؤقتا ولمصلحة بغية الجهاد في سبيل الله.

وقفات مع الهجمات الفرنسية على الحجاب

بداية، ومع تأكيد الرفض للقانون الفرنسي الذي يلغي فريضة من فرائض الإسلام، فإن الموضوعية تقتضي إلى أن القانون الفرنسي بحظر ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية جاء متأخرًا عن قوانين مماثلة سبقت فرنسا إليه بلدان عربية ومسلمة، فالردة العلمانية في تركيا بقيادة 'كمال أتاتورك' فرضت على المرأة التركية المسلمة نزع حجابها بقانون صدر في عام ١٩٢٤م، ثم جاء الانقلاب العسكري بقيادة الجنرال «كنعان إيفرن» في عام ١٩٨٠م ليتشدد في تنفيذ هذا القانون، ويضيف إليه قوانين أخرى بعد أن هبت رياح الصحوة الإسلامية على تركيا. ما زلنا نذكر كيف قامت دنيا العلمانيين ولم تقعد، عندما تجرأت نائبة استنابول 'مروة قاوقجي' على دخول البرلمان، وهي ترتدي الحجاب، ولم يكتف العلمانيون بإلغاء عضويتها في البرلمان التركي، وإنما نزعوا عنها جنسيتها التركية.

وفي مصر أصدر وزير التعليم المصري الدكتور «حسين كامل» في عام ١٩٩٤م قرارًا بمنع أية طالبة مسلمة من ارتداء الحجاب، إلا بعد تقديم طلب من ولي أمرها يحال إلى لجنة خاصة أعطاها قرار الوزير الحق في رفض الطلب أو قبوله كما ورد في خبر نشرته «الدستور» في ٢٠/ ٧/ ١٩٩٤م.

وفي تونس يحظر على المرأة المسلمة ارتداء الحجاب في أي مكان خارج بيتها ـ وكأن الحجاب فرض على المرأة في بيتها فقط ـ وتمنع أية متحجبة من العمل في أية

وظيفة رسمية أو غير رسمية إذا كانت متحجبة، وفي بلدان عربية ومسلمة أخرى تعرضت المتحجبة ولا تزال تتعرض للمضايقات بشكل أو بآخر.

وقفة أخرى: أشد فيها الانتباه إلى دور الأصابع الصهيونية الخبيثة في التحريض ضد الجاليات المسلمة في أوروبا لتشجيع الدول الأوروبية على إصدار مثل هذه القوانين التي تستهدف الجاليات المسلمة في أوروبا، تمامًا مثلما تقف الأصابع الصهيونية وراء الحرب التي تشنها الإدارة الأمريكية المتصهينة ضد كل ما يمت إلى العرب والمسلمين بصلة، وحذار أن تنطلي علينا حيلة وضع القلنسوة اليهودية في زمرة المحظورات، فارتداء القلنسوة ليس فرضًا في الديانة اليهودية كما هو الحجاب في الشريعة الإسلامية، والقانون نفسه الذي حظر على المسلمة ارتداء الحجاب هو نفسه القانون الذي يعتبر معاداة السامية، وإنكار المحرقة المزعومة جريمة يعاقب عليها في فرنسا العلمانية...!

ووقفة ثالثة: إلى أن القانون الفرنسي بمنع المسلمات من ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية لم يكن ابن ساعته، وإنما جاء بعد محاولات عديدة لمنع ارتداء الحجاب سبقت صدروه بسنوات طويلة. ففي بداية العام الدراسي لعام ١٩٨٩م قرر مدير معهد في مدينة «كراي» الفرنسية منع الطالبات المسلمات «ليلى» و«فاطمة»، و«سميرة» من دخول المعهد إلا بعد نزع حجابهن، وانتقلت القضية إلى الصحافة، وكان موقف الحكومة الفرنسية يومذاك غير موقف حكومة شيراك اليوم، فقد انحاز وزير التربية والداخلية لحق الطالبات المسلمات في ارتداء الحجاب، ودعا وزير التربية ليونال جوسبان مديري المدارس والمعاهد الفرنسية إلى عدم إرغام الطالبات المسلمات على خلع الحجاب إذا أصررن على ارتدائه، وأيد وزير الداخلية «بيار جوكس» موقف وزير التربية «جوسبان»، مؤكدًا أن موقف وزير

التربية هو الموقف الصحيح جدًا، لأنه كما قال «جوكس»: يحمي حق الطالبات المسلمات في التعليم، ولأنه يتماشى مع مبادئ التسامح في التعاطي مع الأفكار وليس إلى خيار فرض الرأي بالقوة.

وفي عام ١٩٩٩م نفذ سبعون مدرسًا في معهد جان مونيه في مدينة 'فلير' في غرب فرنسا إضرابًا للتنديد بالسماح للطالبات المسلمات بدخول المعهد بالحجاب، وفي نفس العام أصر ٣٢ مدرسًا في مدرسة بجنوب فرنسا على الامتناع عن التدريس، إلا بعد طرد طالبتين مسلمتين ترتديان الحجاب، فطردت الطالبتان فعلاً، ولم تعودا إلى المدرسة إلا بقرار من المحكمة.

وقفة رابعة: أشد فيها الانتباه إلى أن القانون الفرنسي لم يكن أول قنبلة تنفجر في حضن الجاليات المسلمة في أوروبا ولن يكون الأخير، فقد سبقه قانون مكافحة الإرهاب البريطاني الذي يستهدف المسلمين وحدهم، كما سبقه قرار الاتحاد الأوروبي والكثير من الدول الأوروبية بتجميد أموال جمعيات خيرية إسلامية، وإصدار الاتحاد الأوروبي القائمة السوداء الأوروبية وهي نسخة طبق الأصل عن القائمة السوداء الأمريكية، التي تعتبر غالبية الحركات والجامعات والأحزاب الإسلامية والوطنية جماعات إرهابية، ومن ضمنها حركة حماس وحركة الجهاد الإسلامي وحزب الله والقاعدة وطالبان.

وأخشى أن يكون قرار مجلس بلدية مدينة 'كارينو' الإيطالية بإغلاق مسجد المدينة، بداية موجة القنابل القادمة التي ستنفجر في حضن الجاليات الإسلامية في أوروبا، بعد قانون حكومة شيراك بمنع ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية الفرنسية.

***

نظرة الغرب إلى الحجاب

البرقع مقابل البكيني

«البرقع مقابل البكيني فسوق المرأة الأمريكية» عنوان لمقال سطره د.هنري ماكوو يبدي من خلاله تقديره للحياء كصفة ملازمة للفتاه المسلمة كما لا يخفي احترامه للمرأة المسلمة التي تكرس حياتها لأسرتها وإعداد النشء وتربيتهم. وعلى الوجه الآخر يبوح بما يضمره من استياء نتيجة الانحطاط القيمي والهياج الجنسي الذي تعيشه الفتاة الأمريكية .

د. هنري ماكوو- أستاذ جامعي ومخترع لعبة (scruples) الشهيرة ومؤلف وباحث متخصص في الشؤون النسوية والحركات التحررية .المقال يعكس مدى إعجاب بعض المنصفين من دعاة التحرير في الغرب بقيمنا الإسلامية رغم اختلاف الإيدلوجيات والتوجهات . وقد أثار مقال د.هنري ردود أفعال في الشارع الامريكي بين مؤيد ومعارض .

صورتان متناقضتان

يقول د. هنري في مقاله (على حائط مكتبي صورتان ، الأولى صورة امرأة مسلمة تلبس البرقع – النقاب أو الغطاء أو الحجاب – وبجانبها صورة متسابقة جمال أمريكية لا تلبس شيئا سوى البكيني ، المرأة الأولى تغطت تماماً عن العامة والأخرى مكشوفة تماماً)هكذا كانت مقدمة المقالة والتي تعتبر مدخلاً لعرض نموذجين مختلفين في التوجهات والسلوكيات .

حرب متعددة الأهداف

يشير الكاتب إلى الدوافع الخفية لحرب الغرب على الأمة العربية والإسلامية

موضحاً أنها حرب ذات أبعاد سياسة وثقافية وأخلاقية، إذ أنها تستهدف ثروات ومدخرات الأمة، إضافة إلى سلبها من أثمن ما تملك: دينها، وكنوزها الثقافية والأخلاقية. وعلى صعيد المرأة فاستبدال البرقع وما يحمله من قيم بالبكيني كناية عن التعري والتفسخ. يقول الكاتب (دور المرأة في صميم أي ثقافة، فإلى جانب سرقة نفط العرب فإن الحرب في الشرق الأوسط إنما هي لتجريد العرب من دينهم وثقافتهم واستبدال البرقع بالبكيني)!!

دفاعاً عن القيم

يمتدح د.هنري القيم الأخلاقية للحجاب أو البرقع ، أو ما يستر المرأة المسلمة فيقول (لست خبيراً في شئوون النساء المسلمات وأحب الجمال النسائي كثيراً مما لا يدعوني للدفاع عن البرقع هنا ، لكني أدافع عن بعض من القيم التي يمثلها البرقع لي) ويضيف قائلاً(بالنسبة لي البرقع (التستر) يمثل تكريس المرأة نفسها لزوجها وعائلتها ، هم فقط يرونها وذالك تأكيداً لخصوصيتها).

وكأن د.هنري يتفق هنا مع ما ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها لما سئلت: أي النساء أفضل؟ قالت (التي لا تعرف عيب المقال ، ولا تهدي لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لزوجها ، والإبقاء على رعاية أولادها) أو كما قالت رضي الله عنها.

المسلمة مربية أجيال

ويشيد الكاتب بمهمة ورسالة المسلمة والمتمثل في حرصها على بيتها واهتمامها بإعداد النشء الصالح فيقول (تركيز المرأة المسلمة منصب على بيتها ، العش حيث يولد أطفالها وتتم تربيتهم ، هي الصانعة المحلية ، هي الجذر الذي يُبقي على الحياة الروح للعائلة ..تربي وتدرب أطفالها ..تمد يد العون لزوجها وتكون ملجأ له) .

وماذا عن المرأة الأمريكية ؟

بعد الانتهاء من شرح الصورة الأولى التي على مكتبه وهي صورة المرأة المسلمة ينتقل د. هنري إلى الصورة الثانية فيقول (على النقيض ، ملكة الجمال الأمريكية وهي ترتدي البكيني فهي تختال عارية تقريباً أمام الملايين على شاشات التلفزة....وهي ملك للعامة... تسوق جسمها إلى المزايد الأعلى سعراً ....هي تبيع نفسها بالمزاد العلني كل يوم)

ويضيف (في أمريكا المقياس الثقافي لقيمة المرأة هو جاذبيتها ، وبهذه المعايير تنخفض قيمتها بسرعة ...هي تشغل نفسها وتهلك أعصابها للظهور)

الجنس والعواطف الفارغة

ينتقد د. هنري فترة المراهقة الشاذة التي تعيشها الفتاة الأمريكية حيث التعري والجنس والرذيلة فيقول (كمراهقة قدوتها هي بريتني سبيرز المطربة التي تشبه العرايا ، من شخصية بريتني تتعلم أنها ستكون محبوبة فقط إذا مارست الجنس ... هكذا تتعلم التعلق بالعواطف الفارغة بدلاً من الزواج والحب الحقيقي والصبر).

الفتاة المسترجلة

ثم يعرج الكاتب إلى الآثار السلبية لتلك الحياة الماجنة التي تعيشها الفتاة الأمريكية فيقول (العشرات من الذكور يعرفونها قبل زوجها...تفقد براءتها التي هي جزء من جاذبيتها .. تصبح جامدة وماكرة ..غير قادرة على الحب)

ويشير إلى أن المرأة في المجتمع الأمريكي تجد نفسها منقادة إلى السلوك الذكوري مما يجعلها امرأة عدوانية مضطربة لا تصلح أن تكون زوجة أو أما إنما هي فقط للاستمتاع الجنسي وليس للحب أو التكاثر .

— النظام العالمي يكرس العزلة —

وينتقد د. هنري نظام الحياة في العالم المعاصر حيث التركيز على الانعزالية والإنفراد فيقول (الأبوة هي قمة التطور البشري، إنها مرحلة التخلص من الانغماس في الشهوات حتى نصبح عباداً لله ...تربية وحياة جديدة) ويضيف قائلاً (النظام العالمي الجديد لا يريدنا أن نصل إلى هذا المستوى من الرشد .. حيث يريدوننا منفردين منعزلين.. جائعين جنسياً ويقدم لنا الصور الفاضحة بديلاً للزواج) .

ويكشف د. هنري زيف ادعاءات تحرير المرأة ويصفها بالخدعة القاسية إذ يقول : (تحرير المرأة خدعة من خدع النظام العالمي الجديد ، خدعة قاسية أغوت النساء الأمريكيات وخربت الحضارة الغربية)

ويؤكد الكاتب أن تحرير المرأة يمثل تهديداً للمسلمين فيقول (لقد دمرت الملايين وتمثل تهديداً كبيراً للمسلمين).

وأخيراً يقول د. هنري [لا أدافع عن البرقع (أو النقاب – أو الحجاب) لكن إلى حد ما بعض القيم التي يمثلها ، بصفة خاصة عندما تهب المرأة نفسها لزوجها وعائلتها والتواضع والوقار يستلزم منى هذه الوقفة].

- أليس هذا الكاتب و أمثاله أكثر صدقاً وجرأة وقولاً للحق من الكثير من دعاة العلمانية في بلادنا؟!

- ألا يكفي المرأة المسلمة فخراً بأن يشيد بمكارم أخلاقها من ليسوا على دينها ؟

بعد هذا كله

ألا يمكن أن نرى شباب اليوم يتخلون عن النمط الغربي في الحياة ويعودون إلى شرقيتهم.

الحرب على الحجاب:

جاء الإسلام مكملاً لمكارم الأخلاق مناديًا بالبُعد عن كل ما يثير الغرائز ويحرك الشهوات ، وذلك من أجل إصلاح البشرية والسمو بها عن مرحلة البهيمية والفوضى إلى مراتب مرتفعة من العفة والطهارة. قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ولأن الشهوات والغرائز الطبيعية جزء أساسي من تكوين الإنسان فقد سعى الإسلام لضبطها وتوجيهها التوجيه الصحيح ، فشرع الزواج قناة وحيدة لإشباع الغرائز والشهوات وإنشاء الأسرة التي هي النواة الرئيسية للمجتمع الإسلامي.

ولأن النفس أمارة بالسوء فقد حرَّم الإسلام كل ما يمكن أن يؤدي إلى إثارة غرائز الإنسان أو تهييج شهواته، لذا جاء الأمر الرباني للمسلمين بأن يغضوا من أبصارهم وأمر المسلمات بارتداء الحجاب يحفظن به أنفسهن وحرَّم عليهن التبرج والسفور ومخالطة الرجال غير المحارم، قال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور].

ولأن أمر الحجاب في الإسلام عظيم فقد جاء الأمر الرباني للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام بأن يأمر أزواجه وبناته قبل نساء المؤمنين بارتداء الحجاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب]. فإذا كان الأمر بالحجاب قد بدأ بأزواج النبي ﷺ وهن العفيفات الشريفات الطاهرات فكيف ببقية نساء المؤمنين وخاصة في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الفتن وصار فيه الدين غريباً؟

من أجل ذلك توعَّد الله عز وجل المتبرجات المظهرات لزينتهن لغير أزواجهن بالعذاب الأليم يوم القيامة قال ﷺ في وصف أهل النار (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا).

التبرج هو إظهار المرأة زينتها لغير محارمها وهو من الأمور المحرمة في الإسلام لأن المقصود منه هو إثارة شهوات الرجال من غير الأزواج وإحداث الفتنة في المجتمع.

أما الحجاب فهو نقيض التبرج ويُقصد به الستر والإخفاء ومنه حاجب العين الذي يمنع عنها الغبار والأتربة وأشعة الشمس وحاجب الملوك أو الرؤساء والذي يمنع عنهم الدخلاء والمتطفلين والمتسكعين.

وتقتضي فطرة الإنسان العفة والطهارة ولذلك نجد أن إبليس اللعين عندما أغوى آدم عليه السلام وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة وتم له ما أراد، سقطت عنهما ثيابهما وبدت لهما عورتاهما فأخذا يلتقطان من أوراق الشجر ليخفياهما وذلك التصرف الطبيعي والتلقائي الذي قاما به من دون أن يأمرهما به أحد يدل على أن

الأصل في الفطرة البشرية العفة والطهارة وإخفاء العورات.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف].

كانت النساء قبل الإسلام وفي عهد الجاهلية يتبرجن ويلبسن الملابس الخفيفة ويمشين في الأسواق ويعرضن أنفسهن على الرجال، لذلك جاء الأمر من عند الله لنساء المسلمين بارتداء الحجاب، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب].

أما في العصر الحديث فقد تفننت النساء في ابتداع أساليب جديدة من التبرج والسفور وصارت المصانع الغربية تمد بلاد المسلمين بالملابس الضيقة الشفافة التي تكشف أكثر مما تستر، وتزيد من مفاتن النساء. وغمرت هذه المصانع أسواق المسلمين بأنواع كثيرة من المساحيق والطلاء والعطور المثيرة للشهوات وأنواع شتى ومتباينة من الأحذية التي تجعل النساء يتمايلن في مشيتهن ويبالغن في التغنج والدلال.

وعندما بدأت مظاهر الصحوة الإسلامية تدب في العديد من بلدان العالم وانتشر الحجاب في بلاد المسلمين ووسط بناتهم في الدول الغربية هاج الغرب وماج وتجاوب معه بعض أنصار الرذيلة ودعاة الفجور في بلاد المسلمين وبدأوا في محاربة الحجاب الإسلامي حرباً لا هوادة فيها ووصفوا الحجاب بأنه يغطي على عقل المرأة وأنه جزء من اضطهاد الإسلام لها ونعتوا المحجبات بنعوت لا تليق ورموهن بالتخلف والرجعية والاستسلام لسطوة الرجل وغيرها مما ينعق به الناعقون.

اتخذت هذه الحملة أشكالاً عديدة فمرة نسمع من يقول : إن الحجاب يعزل المرأة عن بقية شرائح المجتمع ، ويحرمها من دورها .

وظهر من يدعو إلى (تحرير) المرأة وغيرها من الدعاوى الساقطة المردودة، ونسى هؤلاء الذين لا هم لهم إلا تحرير المرأة من قيمها واحترامها لنفسها أن الإسلام ما شرع الحجاب إلا صوناً للمرأة المسلمة ، وتكريما لها ، وإعلاءً لقدرها ، وتقديراً لدورها في المجتمع إذ إن المرأة المحجبة تكون بمنأى عن مشاكسات الذئاب البشرية ومصانة ممن لا يريدون لها إلا أن تكون متاعاً ومكاناً لتفريغ الشهوات.

وعندما يشعر هؤلاء أن ما ساقوه من حجج يتساقط من تلقاء نفسه نسبة لضعفه وعدم موضوعيته نجدهم يلجأون إلى الاستشهاد برأي بعض من يتدثرون برداء الدين من المستغربين والماركسيين وذوي المصالح الخاصة على أنهم من العلماء المسلمين فيلوون لهم أعناق الحقائق ويستشهدون بأدلة ليست في مكانها ويفسرون الأحكام الإسلامية حسب هواهم متوهمين أن هذه الافتراءات سوف تنطلي على الأمة الإسلامية، وما دروا أن علماء الأمة الأمناء على دينها واقفون لهم بالمرصاد مفندين حججهم ودعاواهم.

وعندما تأكد لهم أن الحجاب الإسلامي أصبح مطلبًا شعبيًا وأنه آخذ في الانتشار وسط نساء المسلمين لم يجدوا بداً من إعلان الحرب عليه، وخلال الفترة الماضية قامت العديد من الدول الغربية بشن حملة ضارية على الحجاب في المدارس ودواوين الحكومة.

تشتد هذه الحملة في فرنسا حيث فصلت السلطات التعليمية العديد من الطالبات المسلمات لإصرارهن على ارتداء الحجاب وتجلى اهتمام الحكومة الفرنسية بمحاربة الحجاب عندما أعلن رئيس الوزراء الفرنسي أنه قد آن الأوان

(لاستئصال) الحجاب من المجتمع الفرنسي وأنه لا مكان في المدارس الفرنسية لطالبة محجبة، وأكد ذلك الرئيس الفرنسي جاك شيراك الذي زاد عليه أن الحجاب يمثِّل مشكلة ثقافية تهدد المجتمع الفرنسي العلماني ويجب التصدي لها بكل صرامة وحسم.

وتمتد الحملة المسعورة وتشمل الولايات المتحدة حيث قضت محاكمها بتأييد فصل العديد من الطالبات المحجبات، كما تتعرض النساء المحجبات للاعتداء بسبب الحجاب الذي يبدو أنه يثير حساسية بعض المتعصبين في المجتمع الأمريكي.

وفي هولندا تأخذ الحملة على الإرهاب طابعاً أكثر سخونة حيث تشن الصحف التي تتبع لليمين المتطرف حملة متواصلة شعواء على الحجاب وأشادت هذه الصحف بمبدأ مدير إحدى المدارس والذي رفض السماح لطالبة محجبة بدخول المدرسة وبرر موقفه بأنه (يؤمن بالمساواة التامة بين الرجل والمرأة) وأن حجاب المرأة المسلمة يرمز (للظلم الواقع على عاتقها).

وفي المقابل نجد نماذج مشرقة لبعض الدول الأوروبية التي اعترفت بالحجاب كجزء من الخصوصية والحرية الشخصية للمسلمات حيث قضت المحكمة العليا الألمانية بحق المسلمات في ارتداء الحجاب ومنعت الجهات المعنية من التغول على ذلك الحق وضمان تمتع المسلمين به.

كذلك فإن الدنمارك قد أقرت بهذا الحق للمسلمات حيث قضت محكمة دنماركية بفصل معلم ومعلمة قاما بطرد طالبة صومالية من المدرسة لإصرارها على ارتداء الحجاب ، .وقررت المحكمة أن ارتداء الحجاب لا يتنافى مع التعاليم المعمول بها.

ومما يؤسف له أن بعض المسؤولين في دول عربية وإسلامية انساقوا وراء هذه الحملة الجائرة وانضموا للهجمة الشرسة على الحجاب وحملوا لواءها وأعلنوا

- صراحة - منعه وسط طالبات المدارس وقاموا بفصل من أصرت عليه بوصفه جزءًا أصيلاً من هويتها الدينية وشخصيتها العامة.

ففي مصر على سبيل المثال تتعرض النساء المحجبات لمضايقات عديدة ، فقد تم قبل فترة منع مذيعة بإحدى القنوات الفضائية من الظهور على شاشة التليفزيون بسبب ارتدائها للحجاب بدعوى أنه (يثير الحساسيات)، وتم كذلك فصل امرأة محجبة تعمل مساعدة طيار في إحدى شركات الطيران بسبب رفضها التخلي عن الحجاب رغم أن ارتداءه لم يؤثر على كفاءتها ومقدرتها على أداء عملها.

كما أقدمت مدرسة (شامبليون) بالإسكندرية والتابعة للسفارة الفرنسية بفصل طالبة مسلمة بسبب الحجاب مما أثار الرأي العام المصري ضد إدارة المدرسة، وتدخل شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي وهاجم إدارة المدرسة ودعاها للالتزام بالتقاليد الإسلامية السائدة في مصر، وكذلك قامت إدارة إحدى المدارس الخاصة بطرد معلمة محجبة وهددتها بالفصل وعدم إعادتها للعمل إلا بعد أن تخلعه.. والأمثلة على تلك الحملة كثيرة ومتعددة.

وفي تونس أقدمت إدارة معهد القنال الثانوي على منع ٣٨ طالبة من أداء الامتحانات بسبب ارتدائهن الحجاب، كما أقدمت إدارة معهد المنذر بن عكاز على رفض السماح لطالبات مسلمات بأداء الامتحانات بسبب الحجاب، وبالرغم من أن بعضهن اضطررن إلى خلع الحجاب ليتمكن من أداء الامتحانات إلا أن مدير المعهد أصر على رفضه واشترط على الطالبات الذهاب إلى قسم الشرطة وتوقيع تعهد بعدم ارتداء الحجاب مستقبلاً!!

وكانت السلطات التعليمية التونسية قد أصدرت في عام ١٩٨١م منشوراً قضى باعتبار الحجاب رمزاً طائفياً يجب محاربته ومنعه في المدارس الثانوية والجامعات، مما

أدى لزيادة التمييز ضد المحجبات في الجامعات وحتى بعد تخرجهن حيث يواجهن صعوبات بالغة في الحصول على وظائف حكومية.

ويبقى السؤال الكبير هو: لماذا اتحد كل هؤلاء على محاربة الحجاب؟ ولماذا هذه الحملة الشرسة وفي هذا التوقيت بالذات؟ هل السبب هو فوبيا الحجاب والخوف من كل ما يرمز للإسلام؟ أم أنها حالة مرضية وترسبات نفسية كانت تعتمل في دواخل مرضى النفوس ، ولم تجد فرصة للخروج إلى العلن بهذه الصورة إلا بعد تداعيات أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تبعها من تطورات عالمية وما يسمى بالحرب على الإرهاب؟!

ولكن يبقى أصحاب القلوب المطمئنة العامرة بالإيمان على يقين بأن العاصفة سوف تزول ، وأن سحب التشكيك سوف تنقشع عما قريب ، وأن الله متم نوره ولو كره الكافرون.



الفصل الثاني

العداء الأوروبي للاسلام

صراع الحضارات

منذ بداية عقد التسعينيات من القرن الماضي (القرن العشرين)، كانت فكرة صراع الحضارات مجرد أطروحة نظرية لأحد الباحثين أو المفكرين ولكن مع بداية القرن الجديد وبالتحديد بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، تم وضع صراع الحضارات في صلب السياسات والاستراتيجيات الغربية ، وانتقلت من حيز التنظير أو النبوءة إلى دائرة الفعل السياسي والتخطيط الاستراتيجي.

وتتم الآن عمليات مركبة للهندسة الكونية ، ويقوم رسام الخرائط الغربي حالياً بتحريك ريشته وأدواته العسكرية والسياسية على رقعة فسيحة من الأرض، من خلال رؤيته التي استقاها من نظرية صراع الحضارات.

وفي هذا الشأن بالغت أغلب المناقشات والدراسات عندنا على الأقل في تقييم هذه الفكرة وبيان فسادها وخطئها، وهناك من طالب بحوار الحضارات بدلاً من صدام الحضارات.

في حين لم يعترف البعض بهذا المفهوم وفضلوا دفن رؤوسهم في الرمال رغم أن الإعلان جاء صريحاً من الجانب الآخر. بينما كانت هناك زوايا وأبعاد أخرى لم تأخذ حقها الكامل من البحث والدراسة، وهذه الزوايا والأبعاد تطرح مجموعة من الأسئلة البحثية الجديرة بالتأمل والنظر منها على سبيل المثال لماذا تصر الحضارة الغربية على منازلة الإسلام، رغم أن المسلمين في أضعف حالاتهم الآن. ولا يمثلون أي تحد للغرب بالمقاييس الكمية والواقعية؟ وأيضاً لماذا أشعل زلزال سبتمبر ٢٠٠١ صراع الحضارات وهل هو مجرد رد فعل للحادث أم أن الأمر معدله سلفاً؟

وبعبارة أخرى لو أن حادث ١١ سبتمبر لم يقع فعلاً هل صراع الحضارات كان سيظل على نفس المنوال الجاري الآن أم كان سيقبع في دائرة الأطروحة الفكرية والنظرية ذات الإيقاع البارد وليس في دائرة التفاعلات الحية والأنشطة الملتهبة.

وأخيراً ماذا عن المستقبل؟ وما هو مستقبل صراع الحضارات؟ وإلى أين تضع الحرب أوزارها؟

— لماذا ينازلون الإسلام؟ —

عاد نابليون بونابرت يوماً من إحدى غزواته الناجحة، وتبدو عليه علامات الحزن، فقيل له: لماذا لا تبدو سعيداً وقد سيطرت على كل أوروبا؟ فقال: ليتني ولدت قبل ألف عام. وقتها كان يمكنني أن أدعى أنني إله أو ابن إله ويصدقني الناس. أما الآن فلو ادعيت ذلك ما صدقني أصغر بائعة سمك في باريس. وهكذا دائماً الطغاة إذا لم تكفهم الأرض، تطلعوا إلى السماء.

من هذا الفهم لطبيعة الغرور والجهل البشري خصوصاً لدى الطواغيت يمكننا أن نجد العون والمساعدة في اجتهادنا للإجابة عن السؤال الدقيق، لماذا تصر الحضارة الغربية على منازلة الإسلام وحضارته رغم أن المسلمين في أصعب وأقصى مرحلة من تاريخهم لا يمثلون أي تحدي أو خطورة على سيادة وهيمنة الغرب الحالية، بل هم يسيرون عن رضا في فلكه، ويعيشون في دائرة الإلحاق والتبعية. ويمكننا القول أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية لذلك يمكننا تناولها تباعاً كما يلي:

السبب الأول : السقوط الحضاري الغربي:

إن الحضارة الغربية تعاني من حالة إفلاس روحي وسقوط حضاري وتفتقر إلى المنظومة الأخلاقية الشاملة التي يتمتع بها الإسلام وقد قال المؤرخ الكبير أرنولد توينبي في معرض تقييمه للحضارة الغربية: «الحضارة الغربية أشد الحضارات إجراماً في التاريخ». وتاريخ أوروبا سواء في العصور الوسطى أو العصر الحديث يعطي عشرات الأمثلة على ذلك. العصور الوسطى تميزت بالحروب الدينية الدامية والصراع المستعر بين البابا والامبراطور ، أو السلطة الزمنية والسلطة الروحية فضلاً عن كم الجرائم التي

ارتكبوها خلال الحروب الصليبية. وقد جاهدهم الزعيم صلاح الدين الأيوبي بأسمى أخلاق الفروسية واعترفوا هم بها وعندما قال له بعض المسلمين: لماذا لا تعاملهم بالمثل قال كلمته الرائعة: «نحن لا نكفر بأخلاقنا من أجل أعدائنا».

أما عصر الاستعمار بمرحلتيه الماركنتيلية (الاستعمار التجاري) والامبريالية. فقد تميزت المرحلة الأولى بالسيطرة على البحار وإقامة المحطات التجارية وتجارة الرقيق.

أما المرحلة الثانية (الامبريالية) فقد تميزت بالاحتلال المباشر للأرض، ونهب الثروات وفتح الأسواق.

وفي كل ذلك كان النمط معروفًا استعباد للشعوب وسلب واغتصاب لكل ثروة ومصادرة لكل حق. أما تاريخ ونشأة الولايات المتحدة على وجه الخصوص، فهو أقبح فقد تم إبادة شعوب بأكملها (الهنود الحمر) واستبعاد شعوب بأكملها في إفريقيا في أكبر تجارة دولية للرقيق شهدها العالم (وتراوح عددها بين ١٥ مليون و٢٥ مليون حسب تقديرات أهل الغرب نفسهم وتم إقامة أكبر شبكة للسكك الحديدية في العالم على أشلاء هؤلاء الزنوج. في حين تم هيكلة الاقتصاد الأمريكي على أكتاف هؤلاء العبيد خصوصاً في ولايات الجنوب، وقامت الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦٥م لإنهاء ما كان يسمى حتى ذلك الوقت «بالمؤسسة الخاصة» أو «نظام العبيد» وحتى بعد ذلك لم يكن لهم مكان في المجتمع.

والولايات المتحدة التي جعلت من نفسها الحكم والقاضي الذي يحاكم الأنظمة والشعوب على شبهة امتلاك أسلحة الدمار الشامل هي الوحيدة التي استعملت هذا السلاح ضد مدينتي هيروشيما وناجازاكي في اليابان رغم أن اليابان كانت في طريق مفاوضات الاستسلام بناء على اقتراح الامبراطور وعلى نفس المنوال وبذلك الطابع المادي الاستغلالي الذي يعبر عن المصالح الصماء العارية من أي مضمون

إنساني وأخلاقي، استمرت مسيرة الحضارة الغربية في تكريس اللاعدالة واللامساواة وقد عبرت عن ذلك مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة في صراحة تحسد عليها: «الفقر خطيئة، وعلى الفقراء أن يموتوا جوعاً تكفيراً عن خطيئتهم!!». وهي أيضاً التي قالت لا يوجد شيء اسمه القانون، بل يوجد صراع الأقوياء في غابة الرأسمالية» وهو ما دفع الكثير من الكتاب والمفكرين أن يطلقوا على تلك الرأسمالية «الرأسمالية المتوحشة». وواصلت الرأسمالية: رحلة تطورها حتى وصلت إلى محطة العولمة والتي شطرت العالم إلى شمال غني وجنوب فقير. وعمقت الفجوة بين الفقراء والأغنياء في العالم وداخل المجتمع الواحد. ووصل ضحايا العولمة في يومين اثنين إلى ما يعادل ضحايا قنبلة هيروشيما من الفقر والجوع والتشرد.

وما نود أن نلفت النظر إليه، هو أن الحضارة ليست في الهاي تيك ، والبستالايت وأشعة الليزر ، والفمتو ثانية ، وصواريخ كروز، وغيرها من مظاهر التقدم المادي ولكنها رقي إنساني ، وسمو أخلاقي ، وعدالة بين الشعوب، وهو ما فشلت فيه الحضارة الغربية بامتياز. لقد استطاعت الحضارة الغربية ورأس حربتها الولايات المتحدة، أن تقنع العالم كله بقوتها ولكنها لا تستطيع أن تقنع أي مخلوق على وجه الأرض بإنسانيتها. ومن هنا كان لابد من البحث عن النموذج الأخلاقي والمعرفي المعبر عن ضمير الإنسانية والمتمثل في الإسلام، والذي يتلاقى مع أحلام وتطلعات الإنسان في حياة كريمة خالية من الاستعباد والمظاليم. ومحاولة تحطيمه حتى لا تنكشف عوراتهم في أي وقت.

السبب الثاني العقدة التاريخية الغربية:

نتيجة للمواجهات العسكرية وصدامات القوة التي حدثت بين الإسلام والغرب خلال المراحل التاريخية المتعاقبة منذ الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام مروراً بالفتوحات في عهد الدولة الأميرية ، والتي شملت تلك الرقعة

الفسيحة من العالم القديم، والتي امتدت من بلاد الهند والسند ، وبلاد ما وراء النهر حتى الصين شرقاً إلى شاطئ بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) غرباً.

كل ذلك مثل لغزاً أمام أعداء الإسلام. إذا كيف تكونت تلك القوة الهائلة؟ وكيف تحققت تلك الإنجازات الضخمة في فترة زمنية وجيزة من عمر الزمن؟ وكيف أمكن للمسلمين أن يحطموا أكبر إمبراطوريتين في العالم القديم وهي فارس والروم وفي وقت واحد وعلى جبهتين دون أن يسبب ذلك أي أعباء فوق الطاقة أو تورط في أزمات عميقة. وهو الأمر الذي جعل أحد أبرز القادة التاريخيين في الغرب وهو نابليون بونابرت يبدي إعجابه بالعرب قائلاً؟ «لقد استطاع العرب أن يفتحوا نصف العالم في نصف قرن !!».

ثم جاءت الحروب الصليبية في العصور الوسطى الأوروبية وليست الإسلامية واستطاع زعيم مثل صلاح الدين الأيوبي أن يقف في وجه أوروبا كلها. وتفشل الحملات الصليبية بعد مائتي عام. ويتم أسر أعظم ملوك أوروبا وهو لويس التاسع في المنصورة، والذي صرح بعد عودته من الأسر: «لقد انكسرت السيوف، الآن تبدأ حرب الكلمة»، وكانت تلك المقولة هي الترجمة الحقيقية لعملية صياغة وتشكيل العقل والوجدان الغربي تجاه الخطر الإسلامي والمارد الذي يمثل تهديداً للوجود الغربي. وذلك عبر جهد وعمل دؤوب ومنظم ومتواتر عبر القرون عن طريق مؤسسات الاستشراق والأنشطة الكنسية.

وتم رسم صورة قبيحة وكريهة للإنسان المسلم فهو الهمجي والبربري والإرهابي السفاك للدماء والذي يتعجب الكثيرون منا الآن من ظهور هذه الصورة النمطية السلبية في كل مستويات وأعمال الميديا الإعلامية الغربية. وفي ثنايا الخطاب الثقافي والإعلامي الغربي. وعلى ألسنة القادة والسياسيين الغربيين في أوقات الأزمات مثل

التصريحات التي أدلى بها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش ورئيس الوزراء الإيطالي بير لسكوني قبل ضرب أفغانستان من أنها حملة صليبية وأنها مواجهة بين حضارة الغرب وبربرية الإسلام. وبالطبع فهم الجميع أن الاعتذار كاذب والصدق في فلتات اللسان ومكنون الصدور.

وليس أدل على تلك العقدة التاريخية مما فعله الجنرال اللبني ؟عند دخوله القدس عام ١٩١٧م. عندما قال: الآن انتهت الحروب الصليبية، بينما فعل الجنرال الفرنسي غورو أكثر من ذلك عند دخوله دمشق ، فقد ذهب على قبر صلاح الدين الأيوبي ووضع قدمه على القبر وقال: «ها قد عدنا يا صلاح الدين، وقدمي فوق رأسك ، وعلم بلادي يرفرف فوق سماء بلادك ، الآن انتهت الحروب الصليبية.»، ثم جاءت الدولة العثمانية، والتي استطاع محمد الفاتح أن يفتح المدينة العصية القسطنطينية والتي أحدث سقوطها دوياً هائلاً في أوروبا وكان فتح القسطنطينية في ذلك الوقت يعادل الآن فتح لندن وباريس وروما في وقت واحد.

وخاضت الدولة العثمانية ٤٠ حرباً ضد روسيا من أجل منعها من الوصول إلى الشعوب والولايات العربية والمياه الدافئة والتي تعتبر الممر التجاري وقلب العالم. وحارب كل شعوب أوروبا كبيرها وصغيرها. من فيينا إلى البلقان إلى اليونان إلى الجبل الأسود إلى الإنجليز والفرنسيين ليمنعهم أيضاً كل تلك الوقائع والأحداث التاريخية وغيرها الكثير هي التي أوجدت ذلك الحقد الأسود تجاه المسلمين والتي تجعل الغرب الذي يدعى الريادة في العقلانية والمنطقية يفقد دائماً توازنه عند تعامله مع الإسلام.

السبب الثالث: انتهاز الفرصة والخوف من المارد:

هذا السبب يتشابك بشكل منطقي مع السببين السابقين، فإذا كان الغرب يفتقر إلى النموذج والمنظومة الأخلاقية، ولديه عقدة مستحكمة من العداء والكراهية

للإسلام. وفي نفس الوقت فإن العرب والمسلمين في أضعف حالاتهم، وفي حالة يرثى لها من الانكشاف والانقسام.

بالإضافة إلى أن المجتمعات الإسلامية مخترقة ولا يوجد لديها مناعة أو حصانة وفي حالة قابلية للاستعمار كما قال مالك بن نبي، وتعاني من الازدواجية ، وحالة استقطاب حادة بين الإسلاميين والعلمانيين من جهة وبين الوطنيين والقوميين من جهة أخرى أو اليمين واليسار من جهة ثالثة. بالإضافة إلى أنه يوجد منذ مائتي عام في ثقافتنا الوطنية والقومية في كل المجتمعات الإسلامية خطان فكريان متوازيان لا يلتقيان أبداً ولا يوجد أي حوار أو تواصل بينهما. التيار الأول يطلق عليه تيار التحديث أو التنوير . والتيار الثاني هو ما يسمى التيار المحافظ، أو بعبارة أخرى أنصار الوافد وأنصار الموروث. أو التراث والمعاصرة وهو الأمر الذي يضعف أو يلغي أي إمكانية للتوافق العام. والتوافق العام هو أحد المقومات الأساسية لقيام أي تجربة سياسية أو تنموية ناجحة.

وفوق ذلك جاءت القضية الفلسطينية والانتفاضة الأولى والثانية للشعب الفلسطيني، بالإضافة إلى ضرب العراق في حرب الخليج، الثانية وما بعدها من حصار العراق وإسقاط نظامه، ليعري الأنظمة العربية ويبين مدى عجزها وتهافتها. كل ذلك شكل الصورة الرديئة للعجز والضعف العربي، وأعطى فرصة استثنائية قد لا تتكرر للإجهاز على الفريسة، وبالتالي فمن الخطأ الاكتفاء بضعف الخصم وعدم تشكيله لأي خطر أو مزاحمة على الأرض، بل يجب التخلص منه نهائيًّا، فالغد غير مضمون، وقد يخرج هذا المارد من القمقم (الإسلام). أو يسترد المريض عافيته فتنقلب كل الموازين، وقد عبر عن ذلك الرئيس الأمريكي السابق نيلسون في كتاب له بعنوان «انتهزوا هذه اللحظة» حيث تنبأ فيه بأن القرن الحادي والعشرين سيشهد صراعاً بين العالم الحر والعالم الإسلامي.

صراع الحضارات و١١ سبتمبر

كما أسلفنا كان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين منا. أن فكرة صراع الحضارات التي نادى بها صامويل هانتجتون وبرنارد لويس وغيرهما. هي مجرد كتابات لكتاب أعماهم الغرور وأسكرهم النصر بلا حرب على المعسكر الاشتراكي عقب انهيار الاتحاد السوفيتيي وسقوط جدار برلين عام ١٩٨٩ . ولكن بعد أحداث الثلاثاء الدامي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فوجئ الجميع بأن هذه الرؤية النظرية قد تم اعتمادها عمليًّا ووضعت موضع التنفيذ الشامل وأصبحت مدرجة في ثنايا السياسات الغربية عموماً. والأهداف والخطط الإستراتيجية للولايات المتحدة على وجه الخصوص. ومنذ الساعات الأولى للحدث الكبير بدأت التفاعلات الحية والحارة لصراع الحضارات. وتشكلت كل مظاهر صدام الثقافات حيث تم وضع العربي والمسلم في قِفص الاتهام. وانفكت العنصرية من عقالها في موجات عاتية ضد الأقليات والجاليات المسلمة في الولايات المتحدة بعد أن اعتقد الجميع بالنجاح في حصارها إقليميًّا ودوليًا في مؤتمر مناهضة العنصرية الأخير في دير بان بجنوب إفريقيا قبل أحداث سبتمبر بفترة وجيزة، وجرت محاولات محمومة لتكتيل العالم ضد شعوب وأجناس بعينها لمجرد انتمائها لدين معين، حتى لو كانت هذه الأمم والشعوب تملك من العمق الحضاري والتاريخي، ما تفتقده الولايات المتحدة ذاتها، وتولت الميديا الإعلامية الكوكبية الواقعة تحت السيطرة الصهيونية، النفخ في العقدة التاريخية الغربية السابق الحديث عنها. وتم استدعاء الصورة المقيتة للعربي والمسلم من الذاكرة التاريخية، والإدراك الجمعي في الوجدان الغربي. وتم بعد ذلك الإعلان

عن الحملة الدولية للإرهاب والتي هي موجهة أساساً للمجتمعات العربية والإسلامية. والإرهاب هنا لابد أن تكون له صفة عربية أو إسلامية. بشكل فرضي قسري حاد وصارم، وتم تجريم المقاومة المشروعة في كل الأعراف والقوانين والمواثيق الدولية، فضلاً عن الأديان السماوية. وأصبح لفظ الإرهاب مصطلحًا مطاطًا يتسع ويضيق حسب الهوى والمواصفات القياسية الأمريكية. وتم إلغاء المدارس الدينية في باكستان واليمن، وإنشاء إدارة مختصة في وزارة الخارجية الأمريكية لتعديل وتغيير المناهج الدينية والتعليمية في دول الشرق الأوسط.

وفي شهر يونيه ٢٠٠٤م تم عقد ثلاثة مؤتمرات كونية وهي مؤتمر القمة الأوروبية الأمريكية، ومؤتمر قمة دول الثمانية ثم مؤتمر قمة دول حلف الأطلنطي في استانبل. وقامت الولايات المتحدة في هذه المؤتمرات الثلاثة بتقديم ومناقشة مبادرة الإصلاح للشرق الأوسط الكبير بغرض توحيد مسارات التعامل الدولي مع دول المنطقة بفرض وضع آليات للثواب والعقاب والتي يمكن عن طريقها وضع روشتة الإصلاح الأمريكية موضع التنفيذ. والهدف تفكيك البنية التحتية الاجتماعية والثقافة والمدنية حيث يتم التحكم في العقول ومحاكمة الضمائر والعقائد، وتربية الأطفال وتعليم المرأة وفقاً للهوى الحضاري الغربي، ومن وحي النزعة المركزية الغربية (euro- centrism) التي ترى نفسها مركز وقلب العالم، ومنبع الحكمة، ومصدر وحيد للقيم والمعايير والصواب والخطأ. وهي أعلى درجات الجبروت البشري حيث يتم مصادرة الإرادات والمصائر والحقوق، وشطب الهوية وإلغاء الثوابت جرت في شهر نوفمبر ٢٠٠٤، وفي تجمع انتخابي بولاية فلوريدا الأمريكية أعلن الرئيس الأمريكي بوش قانون متابعة وتقصي الأنشطة المعادية للسامية حول العالم وإنشاء إدارة جديدة تختص بهذا الأمر في وزارة الخارجية الأمريكية بحيث يتم توقيع عقوبات قاسية على الأفراد والشعوب والدول التي

تقوم بتوجيه النقد إلى إسرائيل أو الصهيونية.

وبهذا القانون الأخير تكتمل ثلاثية من القوانين المقيدة للحريات. حيث سبقه «القانون الوطني- باتريوت أكت» والذي يعطي سلطات واسعة وغير محدودة للسلطات الأمريكية في التصنت والتجسس وعمليات المتابعة والرصد والاشتباه والتفتيش وهو الذي يحد من الحريات المدنية ويضع قيوداً على التحركات والحريات الشخصية وهي القيمة العليا التي كانت تزهو بها دائماً الولايات المتحدة، وهذا القانون يطبق بضغوط وكثافة عالية على الجاليات العربية والمسلمة والقادمين من بلاد الشرق الأوسط.

والقانون الآخر هو قانون متابعة الحريات الدينية والذي بموجبه تقوم الولايات المتحدة بالتفتيش على ١٩٢ دولة وكتابة تقارير دورية عن حالة كل دولة. وأيضاً هذا القانون يطبق على غالبية الدول الإسلامية بصفة خاصة. وبالطبع فقد تم دفن مبادئ عريقة في العلاقات الدولية مثل مبدأ سيادة الدول، ومبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية لأي دولة، وبعد عملية السرد لمظاهر وأشكال صراع الحضارات يفرض نفسه التساؤل الهام هل صراع الحضارات كان شيء مرتب له سلفاً وبالتالي ليس له علاقة بحادث سبتمبر أم أن كل هذه المظاهر هي من قبيل رد الفعل الانفعالي العميق. والحقيقة أنه يمكن القول بشيء من العناية والموضوعية. إن الحقيقة مازالت غائبة عن أحداث ١١ سبتمبر، وكل ما صدر ونشر هو اجتهادات لم تصل إلى درجة الحسم أو اليقين، وبالتالي فإن الدخان والغبار الذي تصاعد بكثافة يوم الحادث، مازال موجوداً أمام العقول والأبصار. ولكن ما يلفت النظر هنا هو أن صاموئيل هانتجتون قد نشر نظريته عن صراع الحضارات ضمن دراسة مطولة بعنوان «المصالح الأمريكية ومتغيرات الأمن» في مجلة الشؤون الخارجية في يونيو

عام ١٩٩٣م، وهو أستاذ علوم سياسية، ومدير لمؤسسة جون أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد. وهو شخصية عامة ومعروفة ووثيق الصلة بمراكز ودوائر صنع القرار في أمريكا. وحاد سبتمبر وقع في ٢٠٠١ وهي فترة كافية لكي يتم ترتيب الأجهزة ووضع الخطوط العريضة ورسم السياسات. أي أن البرامج والخطط معدة سلفاً وفي المقابل فإنه من السذاجة والسطحية استبعاد أي تأثير لحادث سبتمبر على صراع الحضارات ولكن من المنطقي أن يعطيها قوة دفع هائلة ويعدها بكم كبير من التفاعلات والتوترات دون أن يكون هذا الصراع مرتبط بحادث سبتمبر ارتباط المنشأ أو المركز. وبعبارة أخرى يمكن القول أن ١١ سبتمبر ليس نقطة الأصل لصراع الحضارات ولكنه محرك إضافي شديد القوة لهذا الصراع.

صراع الحضارات – رؤية مستقبلية

من ناحية المستقبل، فنحن نتفق مع البروفسير صاموئيل هانتجتون صاحب الفكرة في توقعه بتطور صراع الحضارات خلال العقدين الأول والثاني من القرن الواحد والعشرين، وهو ما يبدو الآن جلياً وواضحاً للعيان على الساحة العالمية المترامية الأطراف. ولكننا نختلف معه في إهماله المتعمد للقضية الفلسطينية كأحدى بؤر الصراع الحضاري الشامل. والتي سوف تؤثر متوالية الأحداث فيها عددياً أو هندسياً على مستقبل صراع الحضارات. ففي قضية العرب والمسلمين المركزية والتي تمس بشكل مباشر الضلع الثالث في مثلث المقدسات الإسلامية. ونحن نعتقد أن إهمال وتجاهل صاموئيل هانتجتون للقضية الفلسطينية ليس ناتجاً عن نقص في ثقافته ولكن لأنه يرى أن هذه المسألة محسومة من واقع رؤيته الأيدلوجية. بالإضافة إلى ذلك تأتي العراق وأفغانستان بجوار فلسطين كمحاور أساسية ونقاط ارتكاز لصراع الحضارات. وسوف تؤثر حركة المقاومة المسلحة في هذه المواطن الثلاث

سواء سلباً وإيجابًا على مستقبل صراع الحضارات. ومن الخطأ بل ومن الصعب أيضاً إعطاء أحكام مسبقة عما ستؤول إليه الأحداث في هذه المواطن. بالنسبة للعراق من الممكن جداً أن تتضرر المقاومة ويتسع مداها كرد فعل طبيعي وانتقامي للحرب القذرة والهجمات الوحشية التي يقوم بها الجيش الأمريكي في الفلوجة وبالتالي تتحول العراق إلى فيتنام عربية ومستنقع للولايات المتحدة. ولكن في المقابل فالتطور يمكن أن يكون سلبياً فإن تعدد الطوائف والمذاهب في العراق بين شيعة وأكراد وسنة والتباين الحاد في المواقف لكل طائفة. فالأكراد في الصف الأمريكي والشيعة بحكم المرجعية الدينية سلبيين أو مسالمين باستثناء تيار الصدر الذي تم ترويضه وتبقى المقاومة العنيفة من جانب السنة والتي «يمكن كسر إرادتها مع وصول درجة القمع العسكري إلى حدها الأقصى. ويبقى أخيراً أن القضية بالنسبة للولايات المتحدة هي حساب كبير للأرباح والخسائر بلغة المحاسبين. فإذا زادت الأرباح عن الخسائر لن تخرج الولايات المتحدة أبداً والعكس هنا أن تخرج أمريكا مهزومة وعليه يتوقع المحللين أن تستمر مشكلة العراق مستعصية لمدة ١٠ سنوات قادمة. بالنسبة لأفغانستان الموقف أشد غموضاً نتيجة بعد المسافات والتعتيم الإعلامي الأمريكي. توجد مقاومة ولكنها محدودة التأثير ومن الصعب إعطاء أحكام مسبقة أو قطعية عن مستقبل الحالة هناك ولكن يمكن ملاحظة اختلاف في أفغانستان في حالتين، الحالة الأمريكية عن الحالة السوفيتية. وفي الحالة السوفيتية كانت الحرب ضروس والحركة الجهادية فوارة وعاتية بعوامل ذاتية وبمؤثرات خارجية منها الدعم الهائل الذي تلقته المقاومة الأفغانية إقليمياً ودولياً من باكستان والولايات المتحدة نكاية في السوفييت ومن الدول العربية والإسلامية بضوء أخضر أمريكي. ولكن في الحالة الأمريكية الأخيرة. المقاومة محاصرة في مناطق محدودة في الكهوف والجبار وفقدت الظهير الباكستاني الذي صار عدواً لدوداً. بالإضافة إلى

تجفيف المنابع من أي دعم مالي أو عسكري. والوقوع تحت ضغط هائل بفعل الحملة الدولية ضد الإرهاب ولكن كل هذا يمكن أن يصلح تفسيراً للكمون الحالي أو الحركة المحدودة ولكن لا ينفي إمكانية النشاط والتطوير مستقبلاً خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار طبيعة الشعب الأفغاني وتاريخه وشموخه العقائدي. وأيضاً لا ننسى عيوبه الاجتماعية من القبلية إلى أمراء الحرب إلى بارونات المخدرات. هذا من ناحية محاور الارتكاز للصدام المباشر. ولكن من الناحية الفكرية يتفق أهل العلم والفكر الصحيح، على أن الحرب ضد الله تجارة خاسرة، لذلك على المدى الطويل تكون القضية محسومة من الناحية العقدية. خصوصاً مع ارتفاع وتيرة المظالم وسفك الدماء مما يستدعي تدخلاً إلهياً وجريان للسنن الكونية التي بينها القرآن الكريم.

أما من ناحية الفكر السياسي، فقد تنبأ المؤرخ الكبير أرنولد تويبني بأن زمن الهيمنة الأمريكية قصيرة ولن يتعدى خمسين عاماً. أما المؤرخ الأمريكي بول كينيدي في كتابه «صعود وهبوط القوى العظمى» فقد تنبأ بتراجع وانهيار القوة الأمريكية نتيجة التمدد الاستراتيجي وازدياد النفقات والأعباء العسكرية والإستراتيجية بشكل يفوق الإمكانيات والقدرات المتاحة، ورغم أن بول كينيدي ومدرسته، اختلف معها البعض مثل زيجينو برحنسكي- مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق والأستاذ الحالي بجامعة كولومبيا وكذلك «ألفريد توفل» صاحب الكتاب الشهير «المواجهة الثالثة» والذي يرى أن الولايات المتحدة لن تنهار وأن الصراع الحقيقي للحضارات ليس بين الإسلام والغرب ولكن بين الموجات الحضارية الثلاث الزراعية ثم الصناعية ثم موجة ما بعد الصناعة أو ما بعد الحداثة أي صراع بين حضارة جديدة وحضارة قديمة. ومهما يكن من أمر هذه الرؤى والاختلافات تبقى وجهة نظر بول كينيدي لها قيمتها ووجاهتها، وهي جديرة بالتأمل والنظر.

أما الكتاب الأكثر أهمية لنفس المفكر «بول كينيدي» فهو كتاب «الإعداد للقرن

الواحد والعشرين». وهو عبارة عن دراسة موسوعية شاملة عن القرن الجديد. ولكن ما يهمنا هو أنه خصص فصلاً كاملاً عن الحضارة الإسلامية، وتحدث عنها بموضوعية، وروح علمية منصفة يحمد عليها. وقدم توصيفاً دقيقاً لنقاط القوة والضعف في المجتمعات الإسلامية، من حيث تخلف التعليم وعدم المواءمة بينه وبين احتياجات المجتمع، وكذلك غياب مناهج حكم توافقية في غالبية البلدان الإسلامية. وأوضح أيضاً أن أبرز معضلات العالم الإسلامي هي القضية الفلسطينية ومشاكل الحدود والأقليات. ورفض اتهام العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية بأبدية التخلف لأسباب طبيعية ثابتة فقال بالنص: «أن الإسلام قبل النهضة الأوروبية، قاد العالم في الرياضيات وعلوم رسم الخرائط والطب والعديد من وجوه العلم والصناعة، كما ضم هذا العالم مكتبات وجامعات ومراكز، في وقت لم تكن اليابان وأمريكا تمتلك شيئاً من هذا، ولم تكن أوروبا تمتلك إلا القليل. أهم ما ذكره «بول كينيدي» في هذا الفصل، وكان موفقاً فيه لدرجة كبيرة هو قوله: «أن العالم الإسلامي يقتصر إلى ثقافة المشروع» بمعنى عدم وجود رؤية استراتيجية تمكنه من تحديد أهدافه بدقة ووسائل وأدوات الوصول لهذه الأهداف عن طريق التربية كأداة للتغيير الاجتماعي، وتحريك المؤسسات الاقتصادية، ووسائل التطوير الحضاري. وقد أغنانا «بول كنيدي» عن الكثير مما نود أن نقوله، فقد أشاد بالحضارة الإسلامية وإمكانية فوزها بالسباق الحضاري في القرن الواحد والعشرين. والحق ما شهدت به الأعداء.

وأخيراً، فإن مأساة المسلمين الحالية هي أزمة الإنسان المنتمي للإسلام ، وليست في الإسلام كرسالة. لذلك قال شوقي مخاطباً النبي ﷺ قائلاً:

أتباعك بين أيديهم نوران قرآن وسنة فما بالهم في حالك الظلمات

ورغم كل المآسي التي تصب على رؤوس المسلمين من حقنا أن نحلم بأن تشرق

شمس الحضارة الإسلامية من جديد، ويتغير الواقع.

وأكدت أحداث ١١ سبتمبر وما تبعها من تداعيات حقيقة طالما نبهت إليها أصوات من الجانبين هي ضرورة بذل مزيد من الجهد لإعادة صياغة هذه العلاقة دون ركون إلى المقولات الجاهزة ، والتفسيرات التآمرية المختزلة من الجانبين، فرغم أن الثقافة الإسلامية تأمر كل مسلم أن يعدل حتى مع أعدائه فإن خطاب العداء الكاسح للغرب انتقل إلى بعض الأدبيات الفكرية والدعوية الإسلامية كرد فعل لخطاب العداء الغربي وهو رد كان يجب ألا ينجر بعض منا إليه حتى لو أظهر الآخرون العداء.

فكما أن الإسلام لا يجوز اختصاره في مفاهيم مشوهة قاصرة كذلك الغرب فهو ليس كياناً واحدًا، بل عالم مركب فيه المتحيزون والمنصفون، وفيه المضللون الذين لا يجدون مصدرًا يمكنهم عن طريقه تكوين صورة أكثر اقتراباً من الحقيقة عن الإسلام والمسلمين كذلك يجب التفرقة بين الشعوب والحكومات وبين المؤسسات الإعلامية ، والأوساط الأكاديمية.

ولعل ما شهدته الدعوة الإسلامية من نجاحات عقب هذه الأحداث متمثلة في دخول آلاف الأمريكيين الإسلام تؤكد أن العداء المتصور «بضاعة تروج وليس موقفاً مبدئيًا كاسحًا يلتزم به كل غربي أو كل أمريكي، وإذا أخذنا علم الاستشراق كمثال طالما وضع في إطار تآمري بوصفه عملاً عدائياً منظماً استهدف تشويه صورة ثقافتنا، وجدنا التعميم مخلاً إلى حد بعيد فرغم أن صلات وثيقة ربطت بين كثير من المستشرقين وبين مؤسسات سياسية وأمنية غربية بعضها استخدم المستشرقون لخدمة أهداف استعمارية إلا أن الظاهرة هذه لم تخلو من إيجابيات كثيرة يصر البعض على إهدارها.

وأقر واحد من أهم الباحثين الإسلاميين المدققين في النصف الثاني من القرن العشرين هو الدكتور حسين مؤنس صاحب العديد من الأعمال الموسوعية في حقلي التاريخ والجغرافيا. إذ يقول في مقدمة الطبعة الأولى من مؤلفه الضخم وتاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ما يلي: [كلامنا عن العلوم عند العرب كثير وحديثنا عن فضلهم على الحضارة العالمية أكثر، ولكننا إذا استثنينا قلائل منا صفروا الغاية إلى التأليف في العلوم عند العرب ، وخدموا هذا المطلب بالبحث والتأليف من أمثال: أحمد عيسى، ومصطفى نظيف، ومصطفى الشهابي ونيفين أحمد ، وزكي وليدي، وبهجة الأثري، وفدوى حافظ طوقان وغيرهم من أجلاء العلماء. وجدنا أن معظم ما تفخر به في هذا المجال إنما هو من كشوف غيرنا من أمثال «جورج روشكا» و«هانزفون مجيبك» وجورج سارتون وكارلو فللينو، وبول كراوس، وألدو مبيلي ، وهاينريس سوتر، وماكس مايرهوف، وكونراد ميللر، وخوان بيرنيس، وغيرهم كثيرون جدًّا ممن أنفقوا- وينفقون- العمر في دراسة المخطوطات العربية في العلوم وحل رموزها وإثبات فضل العرب وأهل الإسلام على هذا العلم أو ذلك بالحجة والبرهان الساطع.

واقتصار اهتمامنا على الدوائر التي تضع صورة «الإسلام العدو» في الغرب من المؤكد ما يبرر هذا العداء من المسلمين للغرب ..

أولاً: لأن الغرب هو الذي بدأنا بالعدوان السافر في الحروب الصليبية وما بعدها من موجات الاستعمار العسكري التي توالت لأكثر من قرنين.

ثانياً: هجوم من جانب كثير من المستشرقين على الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة، الأمر الذي جعل تاريخ العلاقة بين الجانبين منذ الحروب الصليبية يحكمه العداء، غير أن ثمة محاولات لإعادة هذه العلاقة الشائكة على نحو مختلف ينبغي ألا تهمل

وسط صخب الخطاب التحريضي.

ومن النماذج الحديثة لذلك أن الكاتب الأمريكي المعروف «جون إسبوزيتو» أصدر في عام ٢٠٠٢ كتابًا يحمل عنوان «الحرب غير المقدسة» –الإرهاب باسم الإسلام، طرح فيه تصوره للسياق الصحيح الذي ينبغي أن توضع فيه أحداث الحادي عشر من سبتمبر، محذرًا من أن صدى مضاعفات الماضي مازال يتفاعل في النفس المسلمة، فلقد أحدثت حركة الاستعمار الأوروبي- حسب رأي إسبوزيتو- جرحًا غائرًا في المسلمين في كل مكان ، وكان الإسلام بالنسبة للقريبين «ديانة السيف والجهاد أو الحرب المقدسة» بينما كانت المسيحية، بالنسبة للمسلمين «دين- الحروب الصليبية وطموحات الهيمنة».

كذلك قدم إسبوزيتو في كتابه عروضًا موجزة عن حركات إسلامية مثل الأخوان المسلمين في مصر، وحماس والجهاد الإسلامي في فلسطين، وحزب الله في لبنان، وجبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر، وهو يشير إلى أن عدداً من دول الشرق الأوسط تشهد حاليًا انبثاق ما يصفه بأنه- تيار إسلامي غير عنيف- فعال سياسيًّا لا يرفض الديمقراطية وليس مناهضاً للغرب.

والدراسات التي تحاول إعادة بناء صورة الإسلام في الذهنية الغربية لا تكاد تنقطع، وإن كانت لا تلقى الاهتمام الكافي، وإحدى أهم هذه الدراسات صدرت بالألمانية وعنوانها «الإسلام العدو: بين الحقيقة والوهم» وفيه تحذر الكاتبة الألمانية «أندريا لويج» من ظاهرة من تطلق عليهم «الخبراء الوهميين» أمثال- جيرهارد كونستلمان« وبيتر شول لاتور- اللذين سيطروا على أجهزة الإعلام لسنوات دون منازع بوصفهما خبيرين في شئون الشرق الأوسط، ولا شك في أن سيطرة ما يسمى بـ «ثقافة الصورة» والغياب شبه التام لقوى عربية أو إسلامية تقوم بجهد إعلامي

مقابل، يمنح هذه البضاعة المسمومة فرصة ذهبية لأن تروج على أوسع نطاق.

ورغم الانتشار الكاسح لهذه المقولات لم يعد العالم العربي أن يجد أصواتاً تزعجها ظاهرة الخبراء الوهميين فخاضت ضدها حروباً لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً- للأسف- حتى الآن، وبدلاً من التحليل العلمي الجاد رسمت للعالم الإسلامي صورة وهمية من خلال تضخم المخاوف النفسية والعنصرية، ومن هنا وجه المستشرقون في جامعة «هامبورج» الاتهام لبعض خبراء الإعلام، بأنهم يعملون بأساليب غير شريفة على توسيع الفجوة بين الثقافتين الشرقية والغربية وتعميقها بالإشارة دائماً باستحالة الحوار بينهما.

ولا تقتصر هذه الحالة أو الظاهرة على ألمانيا، ففي فرنسا هناك مثلاً «ألكنسدر دل» فهو يعد جزءاً ممن تسميهم صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية وحلقة الخبراء السحرية المدعوين في شكل دوري إلى شاشات التلفزة، وبخاصة منذ الحادي عشر من سبتمبر، فهو كنموذج لهؤلاء الخبراء، لا يحب التعقيد ويرى أن العالم يمكن تحليله بسهولة، ومن تحليلاته الواسعة الانتشار أن مبدأ رفض الحكم الكافر هو الذي يفسر غالبية النزاعات بين المسلمين والكفار في كشمير والسودان وأرمينيا والشيشان وحتى في كوسوفا ومقدونيا حيث أصبح المسلمون يشكلون الغالبية السكانية وبطبيعة الحال تحدث مثل هذه التفسيرات أثراً خطيراً في الغرب الذي يحتفظ للحروب الدينية بأسوأ الذكريات ويربط بينهما وبين مفاهيم سلبية عديدة.

وتكشف أندريا لوييج عن جهل فاضح بالإسلام والثقافة الإسلامية بين المتخصصين، تنقل عن اثنين من المتخصصين الألمان هما أرمجارد وبين ماليزفير قولها: إنه لمن التناقض الغريب والمدهش حقاً بين عدم معرفتنا بالإسلام والثقافة الإسلامية وبين ثقتنا الشديدة في إطلاق الأحكام عليها، ولم يحدث مرة أن استنكر

هذا الجهل ولو مرة واحدة، بل إن النقد والاتهام يوجه باستمرار إلى تلك الثقافة دون أدنى حرج.

وفي معظم الحوارات التي تدور عن الإسلام تتكرر دوماً عبارة «إنني لا أعرف شيئاً عن الإسلام ولكن .. وتعلن لوبيج قائلة: «إننا لا نفيق عند» لا أعرف:« هذه لأنها ببساطة تسمح لنا ببناء عالم آخر للإسلام حتى لو لم يتسق هذا لبناء مع الواقع، وهو فعلاً كذلك، فهو مطلوب لفصل «نحن» عن «الآخر» والداخل عن الخارج فعلاً لا ينمحي لكي يؤمن حدود الهوية الغربية وحصنها. وهنا تظهر الكلمة السحرية ذات الحروف الخمسة «إسلام فتنشر الفزع- بل أن أحد أساتذة العلوم السياسية النمساويين يحذر من أن إنسانية الغرب مهددة أكثر من أمنه بسبب العداء للآخر.

ولا تعني مثل هذه الحقائق أن ميراث العداء ذهب إلى غير رجعة أو أن العلاقات القائمة تخلو من عوامل التوتر، فمازالت العلاقات بين الشمال والجنوب عموماً تفتقر إلى التوازن والعدالة وتغلب عليها إرادة الهيمنة الغربية، وما تعانيه ثقافات الجنوب من هذا الواقع تعاني الثقافة الإسلامية منه النصيب الأكبر، ويشكل الموقف الغربي المنحاز للكيان الصهيوني العقبة الأكبر في طريق قيام علاقات إيجابية بين الطرفين.

كما أن تغير صورة الإسلام والمسلمين في الغرب على نحو إيجابي مرهون بعوامل عديدة أولها ضرورة تحديد منابع السيل الهادر من الصورة السلبية وبذل جهد لتصحيحها بالوسائل التي تناسب المجتمعات الغربية وباللغة التي يفهمها المواطن الغربي كما أن إعادة بناء الصورة مرتبط بشكل مباشر بإعادة بناء واقع العالم الإسلامي نفسه، وما يلفت النظر أن كثيراً من الغربيين الذي اعتنقوا الإسلام ورأوا

في قيمه طريقًا للنجاة هالهم حالة التخلف التي يعيشها العالم الإسلامي. وبالتالي اضمحلال قدرتنا على بناء عالم أفضل تأسيساً على قيم الإسلام وثقافته.

وقد كثر الحديث في السنوات الأخيرة من القرن العشرين عن نهاية الأيديولوجيات ونهاية التاريخ التي طرحها الأمريكي من أصل ياباني «فوكوياما» والتي حاول من خلالها أن يستثمر سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية ، وانهيار نموذج معين للبناء الاشتراكي لكي يؤكد بذلك إننا نشهد نهاية التاريخ ثم سقوط حائط برلين الذي يعد علامة العصر وبداية التحول الكبير في مسار حركة التاريخ.

بدأت الحملة ضد الإسلام والمسلمين في الغرب أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، حيث اندلعت حملة واسعة من العدوان والشك والتحريض ضد جميع العرب والمسلمين، كما ارتفعت في الغرب أصوات كثيرة تدعي أن الحضارة العربية والإسلامية تحمل في نسيجها بذور العنف والإرهاب. وأنها تمثل بذلك الخصم الأكبر والنقيض الكامل لكل ما هو غربي ، بل لكل ما هو إنساني وحضاري.

إن مكمن الخطورة في هذا التوجه أنه يصدر عن ساسة كبار مثل تاتشر ، ومفكرين مثل هنتجتون وفوكوياما ، ويناقض الثوابت الإسلامية التي تتمثل في التعايش الإيجابي وفي ثقافة الحوار والسلام وتجنب الصراع والفتن والحروب الظالمة وغيرها من مبادئ يقررها الإسلام أصلاً ومرتكزاً للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

أما ما تردد الأوساط الغربية ضد الإسلام، فهو فهم مغلوط ، وفكر مدَمر يهدم قيم الإسلام ، ومثله العليا في الحياة، فإن الإسلام دين حضاري رفع من قيمة الإنسان.

لقد لخص الإسلام حضارته الإنسانية في التعايش بين البشر على اختلاف أجناسهم، وهو الإسلام الذي نشر حضارته في كل أنحاء العالم، وفي غمرة هذا الإحساس بالنجاح للإسلام سياسيًّاوعسكريًّا في تحرير آسيا وشمال إفريقيا، أى الغرب الغارق في ظلامه أن الفتوحات الإسلامية ضربة قاصمة له، ولعل ذلك ما يفسر التحامل على الإسلام من مؤرخي الغرب في الماضي والحاضر.

الذين نظروا إلى حضارات الشرق المزدهرة في مصر القديمة وبابل وآشور وفينيقيا، بازدراء وتعالٍ، واعتبروا أن الإسلام نسخة متحولة من الديانات السابقة والمسلمين كفرة- برابرة- ولا تزال لفظة «مور» تطلق على المسلمين منذ أيام الأندلس حتى الآن، وقد عمقت الحروب الصليبية هذه النظرة إلى الإسلام والمسلمين.

ومن كتابات الأوروبيين السابقين والتالين لتلك الحروب نعلم إلى أي مدى كان الجهل بالإسلام وقيمه ـ ورسالته العالمية ، فنجد بعض الكتاب في الغرب يصفون الإسلام والمسلمين أوصافًا شائنة وذميمة فهذا «ساوزن» يرى في الرسول ﷺ ساحرًا هدم الكنيسة في إفريقيا والشرق.

لكن رؤية الشرق للإسلام من خلال كتاب مثل «فولتير» و«أبيلارد واليزابانتي، والأخير أسس مدرسة كرست لدراسة أفكار «ابن رشد» وهؤلاء نظروا إلى الإسلام باعتباره ثورة تنطوي على مضامين أخلاقية واجتماعية نبيلة، ومع هذه البداية التي انطوت عليها هذه الآراء نحو الإسلام ودوره في الدعوة للعلاقات الإنسانية، انتكس الغرب من جديد بعد أن تخلى عن حروبه الصليبية لمصلحة التوسع الاستعماري مؤسساً «الاستشراق» ليكون من أهله مع تقديم أبحاث علمية عن الإسلام للساسة الأوروبيين والنظرة إلى التراث الإسلامي نظرة مشوهة تكرس

العرقية والطائفية ، والإقليمية.

وكان من هؤلاء المستشرقين «ليوتي» و«تيراس» وليس غريبًا أن يكونوا جميعًا من رجال إدارة المستعمرات، فقد انطلقوا من مفاهيم «الأورية» ومركز الحضارة، وعقم العقلية السامية وأشاعوا أن الحضارة الإسلامية محض محاكاة ونقل، حتى الفقه الإسلامي قالوا عنه تقليد غير معمق للقانون الروماني، وأن الفن الإسلامي مجرد زخارف ليس إلا.

لقد لخص الإسلام حضارته الإنسانية في حتمية التعايش بين البشر على اختلاف أجناسهم. وتعدد أممهم، وتنوع أديانهم، ودعا الجميع إلى الالتقاء على كلمة سواء مع الحفاظ على الخصوصية والتسليم بالتعددية وقبول الآخر وغرس في أتباعه ثقافة التسامح مع الآخرين من الأعداء والمخالفين له، واستقامة لشريعة الإسلام على الجهاد لا يكون إلا وسيلة للدفاع عن الدين والوطن ومقدسات الأمة ولم تقم مطلقاً على أن العداء أو الصراع يكون لمجرد الاختلاف في الدين.

لقد وضح لنا أن هناك غزوًا فكريًّا مقصودًّا ، ويعمل لإذابة الشعوب وسلخها عن عقائدها ومذاهبها وحضاراتها لتصبح مسخاً تابعاً لغيره يؤمر فيطيع، ولقد عمل الغزو الفكري على تضليل المجتمعات الإنسانية وخداعها والتمويه عليها وقلب الحقائق وتشويهها عن طريق زخرفة القول، وكم عانى الإنسان والشعوب من أولئك الذين يصنعون الغزو الفكري ويصدرونه في موجات تقتحم حياتنا وفكرنا.

ولقد كان للغزو الفكري، في كل جيل، وفي كل عصر دوره التخريبي في حياة الناس. إلا أن البشرية لم تشهد مرحلة من مراحل حياتنا وضعاً كان فيه للغزو الفكري خبراء ومتفلسفون وأجهزة ومؤسسات كعصرنا الحاضر هذا، الذي اتخذ فيه الغزو الفكري صيغة الفلسفة والنظرية والمبدأ الذي يعتنقه الأتباع، ويدافعون

عنه وينقادون إليه.

وقضية الغزو الفكري أصبحت اليوم أشد القضايا خطراً، وتبدو ظواهر الغزو المدمر في قلوب وعقول كثيرة من المثقفين في هذا العصر واضحة بينة، والسلاح الذي يستعمله الغزو الفكري مدمر، يؤثر في الأمم والمجتمعات أكثر مما يؤثر المدفع والصاروخ والطائرة.

لا شك أن الاستشراق يشكل الجذور الحقيقية التي تقدم المدد للتنصير والاستعمار، والعمالة الثقافية ويغذي عملية الصراع الفكري ويشكل المناخ الملائم لفرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي والعربي، فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمد المنصرين والمستعمرين وأدوات الغزو الفكري بالمواد التي يسوقونها للعالم الإسلامي والعربي لتحطيم عقيدته وتخريب أفكاره والقضاء على شخصيته الحضارية التاريخية.

ففي القارة الإفريقية وحدها عشرة آلاف مركز للبحوث والدراسات، القسم الكبير منها متخصص في شؤون العالم العربي والإسلامي، ووظيفة هذه المراكز تتبع وترصد كل ما يجري في العالم ومن ثم دراسته وتحليله، مقارنة مع أصوله التراثية التاريخية، ومنابعه العقدية، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار لتبني على أساسه الخطط ، وتوضع الإستراتيجيات الثقافية والسياسية وتحدد وسائل التنفيذ.

إن الخطاب السياسي في المجتمعات الصناعية، وبالرغم من البلاغة اللفظية المتعلقة باحترام التنوع الثقافي كحق أساسي من حقوق الإنسان لا يزال يحمل الكثير من العداء للقيم الثقافية الدينية في العالم الثالث، فبعد انهيار المعسكرْ الشيوعي، نرى اهتماماً متزايداً في الشمال من أجل خلق عدو جديد للقيم الرأسمالية وهو الإسلام، وللأسف الشديد يجري الترويج لهذه الفكرة على الصعيدين الوطني والدولي.

إن تصريحات الأمين العام لحلف الأطلسي في هذا الخصوص تعبر عن هذا التوجه العلني في أعلى مستويات القرار في الدول الصناعية حين قال: (إن الأصولية الإسلامية هي في حد أدنى تماثل خطر التهديد الشيوعي الذي واجه الغرب أثناء الحرب الباردة).

كما يراجع في هذا الخصوص أيضًا .. صموئيل كنتجتون، الأستاذ في جامعة هارفارد في مقالته الشهيرة عن صراع الحضارات- حيث يعتبر أن للإسلام حدودًا دموية دائمة، فالإسلام يرى نفسه محاربًا في الغرب ، ومحاصراً من الشرق باستمرار، وأن العالم كله ضده، وعلى هذا الأساس فهو في رأي صاحب المقال في حاجة اقتتال دائم لم تقف عبر التاريخ.

ورغم ذلك لابد أن نعود مع الأطروحات التي طرحها النظام العالمي الجديد، أو ما يسمى «بصراع الحضارات» الذي أطلقه «هنتجتون» والقائم على أن النزاعات الدولية سواء منها الإقليمية أو العالمية ستكون في المستقبل على شكل «صدام الحضارات» أي هي استمرار للحروب الصليبية والعداء بين الشرق والغرب، ومحاربة الإسلام والمسلمين في أوروبا والغرب عامة، عدا محاولة تفكيك الروابط الإسلامية والعربية في منطقة الشرق الأوسط، وخاصة في عالمنا الغربي الذي احتوى هذه الرسالة، ولم يكن ذلك على شكل «صدام الحضارات» وليس على شكل «صراع الأيديولوجيات» والتأكيد والإلحاح في الخاتمة على ضرورة أن يتخذ الغرب جميع التدابير على المستوى القريب كما على المستوى البعيد للدفاع عن مركزه ومصالحه، كل هذا فجر سلسلة من الأزمات والقضايا الجديدة لتضاف في الكم المتراكم من الأزمات وبؤر التوتر التي كان يعاني منها العام ولا يزال، ودخل العالم في دوامة من الأحداث وصلت إلى مرحلة وصفها بأنها «عصر الأزمة» أو عصر

الصراع الخطير .. الإسلام في الواجهة.

يرى الدكتور محمد عابد الجابري، أن خطورة كتاب هنتجتون تكمن ما بين «المقدمة» و«النتيجة» ويشعل كل منهما بضعة أسطر لا غير، أما بؤرة الموضوع- بالتعبير الأمريكي- فهو «الإسلام» بالدرجة الأولى. ذلك أن صاحب المقالة يركز على الإسلام سواء في تحليله «التاريخي» أو في عرضه لوقائع الحاضر، والإسلام الآن ومنذ عقدين من السنين أصبح الواجهة ، فهو الشغل الشاغل في الغرب ، بل العدو الأول، فلماذا الخوف من الإسلام؟ وهل أصبح الخوف سمة العصر الحديث؟.. يعلل الدكتور «المهدي المنجرة» ذلك بانعدام الثقة في الذات الغربية، وزعزعة الثقة في النفس، فانتاب من جراء ذلك الغرب خوف وارتباك بين وفي رأيي لفهم هذا العنف الغربي ، إصراره على محاولة غزوه الحضاري لباقي بلدان العالم، ولكي نفهم جيداً إعلامه باعتباره يكشف عما بداخله، ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الشعور بالخوف الذي يسيطر عليه، لقد ظهرت في الغرب عشرات من الكتب بعناوين فيها الخوف لدرجة أن الكلمة انتقلت إلى الصحف والمجلات والشاشات المرئية ، وأمواج الإذاعات ودائماً تصادفنا كلمة «الخوف» الخوف من ماذا؟ الخوف من الديمقراطية، من الإسلام، من اليابان، من الحضارات الأخرى.

لقد صارت الحضارة الغربية «حضارة الخوف» والحضارة التي يدخلها الخوف بهذا الهوس الشديد والمبني بالخصوص على انعدام الثقة في النفس، تدخل في مراحل اندفاعية، ويبقى على الآخرين أن يؤدوا ثمن هذا الاندفاع حتى وجود توازن جديد في العالم.

إن قوة الإعلام الفاعلة التي أحسن الغرب استخدامها للتأثير والتوجيه في الأفكار والأحداث حولت العالم إلى بيت صغير تعرف فيه الشاذة والفاذة،

وأصبحت الصورة المعاصرة عن «الإسلام» ترسم في أذهان الغربيين عن عدة مكونات أعمقها العوامل التاريخية، فالمسيحية التي تمثل العالم «الغربي» تشتبك لأكثر من ألفي عام مع العالم «الإسلامي»، منذ فتح شبه الجزيرة الإيبرية في القرن السابع الميلادي، مروراً بالحرب الصليبية والصراع الطويل مع السلطة العثمانية في القرن الخامس عشر إلى انهيار «الامبراطورية» التي كانت تمثل آخر مجد إسلامي عام ١٩١٨ .

كما كشفت انهيار الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية السلافية والبلقان بدءاً من عام ١٩٨٩ . عن مدى عمق المشاعر المعادية للأتراك «المسلمين» التي كان ولا يزال يستغلها أي راغب في حشد التأييد الشعبي لآرائه أو حزبه واستمداد الشرعية لمنظماته في تلك الدول (صراع بين الأرثوذكس والمسلمين في البوسنة، والتوتر بين الصرب والألبان، وبين البلغار والأقلية التركية، وبين الأرمن والأذربيجانيين)، وتمتد آفاق هذا التفكير إلى اعتبار دول أوروبا الغربية مخاوفها حيال «التهديد الإسلامي» عموماً، بما في ذلك مسألة الهجرة إليها شكلاً من أشكال البديل الأيديولوجي الذي حل محل الحرب الباردة، فسارع الغرب إلى تنصيب الإسلام والعالم الإسلامي خصماً له. وتنامى التيار العنصري في الغرب، حيث شهد العقد الأخير من القرن العشرين تنامي التيارات اليمينية في أوروبا بسبب تزايد الحضور الإسلامي في الغرب، وسجلت هذه التيارات اليمينية حضوراً يبعث على القلق، فظهر على سبيل المثال، فلاميش يلوك في بلجيكا .. والحزب القومي البريطاني .. وحزب الشعب الدانماركي .. والجبهة الوطنية الفرنسية، ورابطة الشمال الإيطالي وحزب الشعب السويسري ولعل العديد من الحكومات الأوروبية اليوم تضم تيارات يمينية ضماناً للأغلبية البرلمانية على الرغم من العداء العلني الذي تبديه هذه التيارات للإسلام والمسلمين.

وقد ارتفعت العديد من الأصوات في أوروبا تطالب بحماية المصالح الأوروبية لتمرير خطابها المناوئ للجهذ الإسلامي، فبدأت الحملة للحد من الهجرة، والمطالبة بسن قوانين تحظر الحجاب في المدارس والجامعات والمؤسسات العامة، وتشديد قوانين اللجوء، وقد صرح المستشرق برنارد لويس لصحيفة «دي فيلت» الألمانية بأن أوروبا ستكون جزءاً من «المغرب العربي» وليس العكس لماذا؟ لأن التوجهات الحالية تظهر أن أوروبا ستشهد أغلبية مسلمة في نهاية القرن الواحد والعشرين على أقصى تقدير، أو فضلاً عن الأعداد المتزايدة من المهاجرين العرب والمسلمين، فإن الأوروبيين يتأخرون في سن الزواج، ولا ينجبون سوى عدد قليل من الأطفال بعكس مسلمي أوروبا الذين يتزوجون في سن مبكرة وينجبون عدداً أكبر من الأطفال، أما جريدة «لوموند» الفرنسية فقد أنجزت ملحقاً خاصاً عن الإسلام في ١٣/ ١٠/ ١٩٩٤ ضم مجموعة من المقالات لأسماء فرنسية، إضافة إلى استطلاع للرأي العام نشرت نتائجه حيث ورد في الاستطلاع : أن الإسلام يعتبر الدين الثاني في فرنسا «لكنه دين غير محبوب» و«محتقر بالنسبة للفرنسيين» لأنه يرفض كل ما هو غربي ويميل بشكل كبير إلى التعصب.

وقد ركزت الصحيفة في كل المقالات التي ضمنها الملحق الإسلامي على العناصر التي تضاعف من كراهية الإنسان الغربي للإسلام والمسلم، فقد تحدثت عن القهر الذي تعاني منه المرأة في بعض بلدان الشرق، وقطع يد السارق، والانتصار لتعدد الزوجات واستفراد الرجل بالعصمة، وجلد الزاني كأنه لا يوجد في الإسلام إلى هذه الأمور .. بينما أغفلت عن تعمد كل حديث عن النبل والتسامح والإخاء والعدالة، وهو ما أكدته المستشرقة الفرنسية «آنا ماري ديل كاجر» المتخصصة في الفقه الإسلامي تقول : «إن الغرب يكره الإسلام لأنه يجهله، باعتبار أن الإنسان عدو ما يجهل، فكلمة« مسلم »لا تستدعي في ذهن الغرب للأسف

الشديد سوى الجهل والصحراء وحياة البداوة» أما صورة «نبي الإسلام» فقد أشبعها الغربيون إساءة ويجب تصحيح هذه الصورة ليس فقط لأنها صورة مغلوطة من أساسها ولكن أيضاً لأن الدين الإسلامي هو دين التسامح وعقيدته إنسانية شاملة، كما أنه يخاطب في الإنسان أقدس حاسة وهي العقل، فهو دين العقل والحرية ويحترم أهل الكتاب، إن الإسلام أسيء فهمه في الغرب بدرجة كبيرة تثير إزعاج المنصفين من أبناء الغرب أنفسهم، إن الاختلاف في اللون والدين وغيرها من البشر سنة إلهية يتوجب أن تكون بداية للتعارف والتلاقي، وليست سبباً للاضطهاد والتمييز العنصري والتطرف القومي كما يشير القرآن الكريم إلى هذه المفاهيم الإنسانية الراقية في واحدة من آياته الحكيمة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات:١٢]، حتى معاداة الإسلام والمسلمين تعتبر الكتابات الغربية عن الإسلام المصدر الأهم لمعرفة صورة الإسلام والمسلمين في الغرب.

وتشمل هذه الكتابات ما تنشره المجلات والصحف من مقالات وبحوث، وما يصدر عن الكتاب الغربيين من مؤلفات ودراسات تتناول كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين سواء في مجال التعريف بشريعة الإسلام وأحكامه وعقائده وقيمه، أو في مجال التعريف بحياة المجتمعات الإسلامية الممتدة في المنطقة الجغرافية والتي يشكل المسلمون فيها الأكثرية، مما يطلق عليها البلاد الإسلامية، وهذه الكتابات كثيرة ومتنوعة أهمها ما تزخر به الموسوعات العلمية ودوائر المعارف التي تعتبر من أبرز المراجع التي يعتمد عليها الباحث المتخصص والقارئ العادي، ومن البديهي أن يرجع إليها «الإعلام» لمعرفة الكثير مما يريد معرفته عن الإسلام والمسلمين فساهم في نقل الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين جعلها ضمن اهتمامات الإنسان الغربي، فارتسمت للإنسان المسلم في ذهنه صورة فائقة السلبية، معالمها تتميز بصفات

سلوكية غير محببة. بحيث لا يستطيع المتتبع للأحداث السياسية في الغرب أن يغمض عينيه على تعامل وسائل الإعلام الغربية مع الأحداث ومحاولة تفسيرها من وجهة نظر محددة سلفاً، وتدل الدراسات العديدة على وجود تماثل كبير بين الصورة السيئة التي يقدمها خبراء الدراسات الشرقية والإسلامية في الدوائر العلمية والاستخباراتيه عن الإسلام والمسلمين والصورة السيئة التي تروج لها وسائل الإعلام الغربي.

وقد ذكر «إدوارد سعيد» أن نتائج دراساته تؤكد تطابق وجهات نظر الخبراء في الدراسات الشرقية والإسلامية الذين تستعين بهم الدوائر السياسية في الغرب، وبين الطريقة التي تعالج بها وسائل الإعلام الغربي أمور الشرق والإسلام، وقد أبرزت تلك الدراسات أن الفكرة المركزية التي يحملها الطرفان، الخبراء ووسائل الإعلام- هي أن الإسلام- يمثل تهديداً للغرب، وهذا واضح من نظرة «برجنسكي» عن «هلال الأزمات» إلى المستشرق« برنارد لويس »عن عودة الإسلام».

إن الإسلام- بالنسبة لهؤلاء- كما يقول إدوارد سعيد- يعني نهاية الحضارة الغربية باعتباره دينًا لا إنسانيًا وغير ديمقراطي ولا عقلاني»؛ ولذلك فإن الإسلام في وسائل الإعلام- يمثل تهديداً ينبعث من حركة ناهضة لا تحمل خطر العودة إلى القرون الوسطى فحسب بل وكذلك كما يقول «دانيال مونيهان» تدمير للنظام الديمقراطي في العالم الغربي.

ويرى إدوارد سعيد : أن هذه النظرة للإسلام تتفق مع التفكير الاستشراقي الذي رسخ الاعتقاد بأن «الإسلام لا يمثل منافساً رهيباً فحسب بالنسبة للغرب، بل إنه يمثل كذلك تحديًا متأخرًا للمسيحية» على أن هذا الذي تقوم به وسائل الإعلام الغبية من تشويه صورة الإسلام والمسلمين داخل المجتمعات الغربية لا

يمثل الوجه الوحيد للخطر، بل إن لهذا الخطر وجهاً آخر يتمثل في ترويج الإعلام الغربي لهذه الصورة المشوهة في أصقاع الأرض.

وقد أتاحت تركيبة النظام الإعلامي الغربي أن يحقق هذا الهدف. إن الإعلام الغربي اليوم يتمتع بقدرة كبيرة على السيطرة والهيمنة على المستوى الدولي أن «ثمانين في المائة» من تدفق الأنباء يصدر عن وكالات الأنباء الغربية الكبرى. إن الإحساس بخطورة «الإسلام» وهم ليس له ما يبرره حسب موازين المنطق، ومن المؤسف كما يقول الدكتور «محمد فاروق النبهان» «أن الغرب وهو الأقوى حضارياً وعسكرياً واقتصادياً لم يحرص على تصحيح هذه الصورة وبخاصة من خلال إعلامه القوى القادر على الإقناع، ولسنا بحاجة للتذكير بخطورة المواقف والتوجهات التي يتبناها الغرب على الصعيد السياسي والتي تحمل الكثير من الدلالات والمؤشرات على تبني الغرب لسياسة معادية للعالم الإسلامي مما يثير مشاعر التوتر في النفوس ويعمق الفجوة بين الإسلام والغرب، وينعكس ذلك بصفة مباشرة على الأوضاع الأمنية والاستقرار الاجتماعي خاصة بالنسبة للأقليات الإسلامية التي تعيش في البلدان الغربية، وعلى العموم فالحرب ضد الإسلام والمسلمين تتم بالكلمة والصورة والصوت وأحياناً بالكاريكاتير .. وكل واحد يساهم بقدر طاقته العدوانية والعنصرية مما يستلزم وجود حوار حضاري وديني وثقافي بين الإسلام والغرب. وبين الإسلام والمسيحية، غايته استكشاف كل فريق للفريق الآخر، واحترام كل طرف لعقيدة الطرف الآخر لأن تحقيق أمل البشرية يتم عبر تكامل الحضارة لا تصادمها.

أعداء الإسلام يرون في الإسلام خطراً كبيراً وتحدياً أكبر أمام الغرب، ولذلك كانت حصيلة تأمل نتيجة الدراسات الإعلامية التي تناولت صورة المسلمين في

الوسائل الأوروبية المقروءة والمسموعة والمرئية سلبية في أغلب الأحيان، بعض الأحداث المرتبطة بالمسلمين عموماً تزيد هذه الأحداث المتعلقة بالأقليات الإسلامية في القارة الأوروبية والآسيوية أو في بعض الدول العربية والإسلامية أكثر تعقيداً.

إنهم ينسبون للمسلمين التطرف والعنف والجهاد وتعدد الزوجات ونبذ العلمانية ورفض الاندماج. هذا ما يروجونه في وسائل إعلامهم، ففي إحدى القنوات الفضائية الفرنسية، تحدث مذيع خلال برنامج عن وضع المرأة في باكستان، وعن الشريعة الإسلامية التي تحرم على المرأة ولوج عالم الدراسة، وهي في البيت تبقى ألعوبة في يد الرجل، تباع مثلما تباع البهائم وغير ذلك من الأباطيل المشينة.

أما قضية الفتيات المحجبات والتي تناولتها مجلة «دير شبيجل» تحت عنوان فيه استفزاز بمشاعر المسلمين في فرنسا. اختزلت مجلة «الاكسبريس» موضوع الحجاب الإشكالي بعنوان «الحجاب المؤامرة» كيف يتسلل الإسلاميون؟ ويحتوي الموضوع على مفردات تثير الفزع الواضح لدى القارئ، كاتبة المقال تصف المحجبات بالإرهابيات.

تشويه مفهوم الجهاد في الإسلام في الإعلام الغربي، ومن ذلك تأكيد البعض على أن الإسلام هو دين قتل وتقتيل، وأصبح يكفي أن تتم الإشارة في أي مقال لمصطلح الجهاد مقرونة بترجمة في اللغة الفرنسية «بالحرب المقدسة»، لكي تثار الزوابع والهواجس والمخاوف.

فعلى سبيل المثال نشرت صحيفة «لونوفيل أوبزرفاتير» مقالاً عما وصفته بانفجار الحالة الإسلامية في فرنسا، فهناك في تلك الفترة أكثر من ألف مسجد وأكثر من ستمائة جمعية إسلامية تم مهاجمة البعض منها وتكرار العمليات الإرهابية،

واختطاف الرهائن الأجانب، هذا هو التصور في هذه الدول عن الإسلام وما يقوم به الإعلام التي لا يمكن أن نبعد عنه الدور الصهيوني في تشويه صورة الإسلام في هذه المقالات والهجوم واتهام المسلمين، إن هذا العداء الغربي للإسلام لا يوجد ما يبرره، لأن الإسلام هو دين الحضارة والعلم والمساواة والحرية والديمقراطية والاعتراف بالآخر، ولكن ما نراه اليوم من حملة إعلامية غربية ضد الإسلام هو مؤامرة ليس على المسلمين بل على الغرب ومصالحه في هذه الدول.

أما في الصحف الأوروبية حيث تصف وسائل الإعلام الدين الإسلامي بالدين البدائي والإرهابي وأن الحضارة الإسلامية هي البديل عن «الشيوعية» وأيديولوجياتها خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

صحيفة «صنداي تايمز» كتبت مقالاً يحمل عنوان «الوجه القبيح للإسلام» قال فيه أن الإسلام الذي كان حضارة عظيمة تستحق الحوار معها قد انحط وأصبح ديناً بدائياً لا يستحق إلا الإخضاع وهناك مزاعم وادعاءات تزعم فيها أن الثقافة الإسلامية مختلفة جملة وتفصيلاً عن الثقافات الأخرى وغير متفتحة.

الحملات الإعلامية تظهر بين الفنية والأخرى عنصرية الغرب تجاه الإسلام مما يساهم بطبيعة الحال في تنميط صور مغلوطة تماماً عن الإسلام بوصفه ديناً للكراهية والتعصب والعنف في حين أن الإسلام برئ من كل هذه الهواجس والأفكار المغلوطة والتهم الفاسدة، فالدين الإسلامي دين تسامح وعفة لا دين قتل، إذن ماذا يريد الغرب من الإسلام والمسلمين؟ ما هدفه من تشويه صورة الدين الإسلامي الحنيف؟.

إن الكثير من المسلمين في عالمنا الإسلامي ينظرون بدهشة وحيرة إلى مظاهر العداء للإسلام والمسلمين، التي لا تخطئها عين غافل تلك المظاهر التي تتبدى في أجهزة الإعلام الصاخب القادر على اختلاق الأكاذيب، وتجاهل الحقائق وتضخيم

الصغير من الأمر، وتقزيم الكبير منه، وصنع المعارك الموهومة، وتشكيل الرأي العام الذي أصبح قوة ضغط لا يمكن إغفالها في تكوين القرار السياسي في الغرب، وهي ظاهرة العداء التي تراها أيضًا في تجييش الجيوش لغزو أراضي المسلمين- وقهر إرادتهم- وفرض مصالح الغرب عليهم بالقوة الباطشة كما حدث في العراق وأفغانستان.

العداء الأوروبي للإسلام حقيقة واقعة، وهو ليس مجرد ضرب من الأوهام أو محاولات تسميم العلاقات بين العرب والمسلمين من جهة، وبين أوروبا والغرب من جهة أخرى، وهو عداء يحتاج إلى وقفة جادة من الدول العربية والإسلامية، وبحثه على أعلى المستويات الأوروبية لمحاولة وضع حد لهذا العداء قبل أن تزداد الأزمة يوماً بعد يوم وهذا ما يقودنا إلى تحقيق نبوءة «صدام الحضارات» التي بشر بها «صاموئيل هنتجتون» وهو صدام يبدأ ثقافيًا وينتهي مسلحًّا.

وهنا لابد من الإقرار أن مسألة العداء للإسلام في أوروبا حالياً تخطت المفهوم المحايد لمصطلح «الإسلاموفوبيا» الذي يعني مجرد النفور من الإسلام، فما هو موجود حالياً ليس النفور السلبي بمعنى «الرفض والابتعاد» بل تحول إلى نفور محمل بالعداء والإقصاء، وهو ما أشارت إليه المنظمات الإسلامية التي عقدت اجتماعها في فرنسا، ونددت بوجود «مناخ فاسد» ومعاد للإسلام وزيادة النظرة السلبية للمسلمين في فرنسا، واعتبرت أن المسلم في أوروبا بات الحلقة الأضعف. ولا تنقص الذرائع لتوجيه أصابع الاتهام إليه، وأن الموقف ضد الإسلام والمسلمين يشهد حالة من التشنج تغذيه النقاشات حول الهوية الوطنية والنقاب، وتصويت سويسرا على منع المآذن.

لا يمكن لنا أن نتغاضى عن وجود اشتباك ثقافي عقائدي ديني داخل الدول الأوروبية نفسها، وهي حالة يمكن أن تتمدد إذا لم تعالج على أسس صحيحة تقوم على

المعارضة الكاملة والاعتراف، ولابد للغرب وفي مقدمته أوروبا أن تعترف أنه يستهدفنا دينيًّا وعقائديًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وماليًّا وهو استهداف مستمر منذ قرون.

لنعود إلى ما قاله بابا الفاتيكان (بينديكت السادس عشر) في محاضرة علمية ألقاها في جامعة «زيجنسبور» الألمانية، أمام نخبة من المثقفين والأكاديميين.

فقط أرني ما آتي به محمد وجاء جديدًا، عندها ستجد فقط ما هو شرير ولا إنساني، فأمره نشر الدين الذي نادى به بالسيف] لم يجد البابا إلا هذه الحيل ليستشهد بها في محاضرته وهذا أمر عادي لأن الكنيسة مجبولة على مثل هذا السلوك، الذي يعبر عن انفصام عميق في شخصيتها المتقلبة الأطوار، فهي تبدي غير ما تخفي، وهي تعقد مقارنة ضمنية بين الإسلام والمسيحية، وهي تسعى إلى إثبات أفضلية المسيحية على الإسلام ، وهذا يستجلي منذ البداية من تهجمه على الإسلام وقدحه الظاهر في جملة من الأمور التي تعتبر مسلمات وبديهيات في العقيدة الإسلامية والتي لا تنكشف إلا من خلال القراءة العميقة، ليخلص القارئ أو الباحث من ذلك بشكل أو بآخر.

ولئن كان واضحاً بالمنطق العقلي المنظور، والدليل الواقعي الملموس لدى الكنيسة: أن الدين الإسلامي يشمل كل تلك السلوكيات والمعاملات والأخلاق والقيم التي من شأنها أن تخلق تماماً عالماً سمحاً تنتفي فيه الفوارق والطبقية، وتتلاشى فيه العنصرية العرقية أو الدينية أو غيرهما. إلى درجة أن قوانين الشريعة الإسلامية تسمح لرعايا الدول الأجنبية المعادية للإسلام بحق المواطنة على تراب الدول الإسلامية ولئن كان الأمر كذلك، فإن الكنيسة طالما تجاهلت هذا الوجه السمح للإسلام وصنفته في لائحته الأديان والثقافات المنبوذة، ليس لأنه يستحق النبذ ولكن لأنه يملك الحقيقة التي تخشى منها الكنيسة.

— أسباب صعود الإسلاموفوبيا —

هناك قراءة مختلفة لأسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا خلال الآونة الأخيرة، منها قراءة ثقافية ترى أن صعود الإسلامو مفوبيا هو انعكاس لمشاعر سلبية عميقة مدفونة في وعي المواطن الغربي ضد الإسلام والمسلمين، وتعبير عن تحيز تاريخي وثائقي ضد الإسلام كدين، وضد المسلمين وحضارتهم.

وقراءة ثانية ترى ظاهرة الإسلاموفوبيا هي نتاج لبعض الأحداث الدولية التي أثرت بقوة على العلاقات بين العالم الإسلامي والمجتمعات الغربية خلال السنوات الأخيرة، وعلى رأس هذه الأحداث هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، وما تبعها من هجمات حيث رفع مرتكبوها شعارات إسلامية، ضربت مجتمعات غربية مختلفة مثل أسبانيا وبريطانيا، هذا إضافة إلى بعض المشكلات الثقافية الدولية التي أثرت سلباً على العلاقات الإسلامية – الغربية مثل أزمة الرسوم الدانماركية وأزمة تصريحات البابا بنديكت السادس عشر وأزمة الحجاب في فرنسا، وتصريحات بعض القيادات الغربية الدينية والسياسية المسيئة للمسلمين.

أما القراءة الثالثة، وهي المطروحة في هذا المجال، فهي قراءة سياسية اقتصادية، ترى أن صعود الإسلاموفوبيا خلال السنوات الأخيرة انعكس لبعض التغيرات المجتمعية الكبرى التي لحقت بالمجتمعات الغربية والإسلامية خلال العقود الأخيرة، وعلى رأس هذه التحولات تراجع قوى اليسار الغربي التقليدية التي سادت خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وصعود قوى اليمين الثقافي والديني في الغرب والعالم الإسلامي خلال الفترة ذاتها، ويعيب القراءة الثقافية

لظاهرة الإسلاموفوبيا طبيعتها القدرية التي تكاد تفرض أن الخلاف الثقافي بين المسلمين وأبناء المجتمعات الغربية خلاف حتمي، وتكاد تعفي المسلمين من مسئولية فهم المجتمعات الغربية ، تفاصيل ما يدور فيها ، كما تعفيهم من سبل توعيتها بصورة الإسلام الصحيحة خاصة في ظل تنامي أعداد المسلمين في الدول الغربية، وانفتاح أعداد متزايدة من أبناء تلك المجتمعات على فهم الإسلام والمسلمين وتنامي قوى العولمة والاتصالات بما يسهل عملية التواصل مع الآخر وتوعيته ويعيب القراءة الثانية أنها قد تقتصر على الأحداث المادية وتصورها منزوعة عن سياقها وكأنها ولدت لحظياً وليست نتاجاً لتراكمات حدثت عبر عقود.

لذا تمثل القراءة الثالثة أسلوبًا أكثر ديناميكية لفهم أسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا إلى المجتمعات القريبة خلال العقود الأربعة الأخيرة، وهي قراءة ترى أن للمسلمين والعرب دوراً يمكن أن يلعبوه للتأثير على مسار تلك الظاهرة الخطيرة.

نحو قراءة ديناميكية للظاهرة

القراءة الثالثة لأسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا تعود بنا إلى أوائل النصف الثاني من القرن العشرين وهي فترة وصلت فيها التيارات اليسارية إلى قمة سيطرتها على المجتمعات الغربية وراحت تنشر أجندتها الناقدة للتراث الغربي والتقليدي باعتباره تراثاً منغلقاً على الذات، وراحت في المقابل تطالب بالانفتاح على الآخر: «الديني والعرقي والوطني» من خلال أفكار وبرامج سياسية ترحب بهذا الآخر في المجتمعات الغربية ذاتها وتضمن له حقوقاً ومزايا مختلفة.

السيطرة الثقافية لليسار الغربي كانت انعكاساً للسيطرة السياسية لشرائح يسارية بات ينظر إليها اليوم على أنها قوة تقليدية متراجعة النفوذ وعلى رأس تلك القوى

الحركات العمالية والمؤسسات النقابية والسياسية المعبرة عنها.

هذا إضافة إلى طبيعة السياسيات الدولية خلال تلك المرحلة ووجود الاتحاد السوفيتي كدولة عظمى تمثل التيار اليساري وتنشر أفكاره وسياساته عبر العالم بما في ذلك العديد من بلدان العالم الثالث. سيطرة اليسار داخل المجتمعات الغربية وحضوره على المستوى الدولي، تبلور عند نهاية الحرب العالمية الأولى ووصولاً إلى قمتها في ستينيات القرن العشرين ولكنهما لم يدوما طويلاً، منذ بداية السبعينيات شهدت المجتمعات الغربية والساحة الدولية العديد من المتغيرات الكبرى التي أخضعت اليسار وبرامجه، على المستوى الاقتصادي بدأت المجتمعات الغربية في التحول من الاقتصاد الصناعي إلى الخدمات ثم إلى اقتصاد المعلومات كما زاد التنافس الاقتصادي الدولي بين الدول الغربية بعضها بعضاً من ناحية، وبين الدول الغربية وبعض القوى الدولية الصاعدة- كبعض بلدان آسيا من ناحية أخرى.

وقد شهدت الساحة الدولية تغيرات كبرى ساهمت في تراجع اليسار الغربي وعلى رأس هذه التحولات سقوط الاتحاد السوفيتي وفشله كنموذج سياسي واقتصادي، وتعرض القوى اليسارية عبر العالم لتحديات اقتصادية وسياسية مختلفة، من بينها هزيمة اليسار في الشرق الأوسط مما ساعد في صعود قوى اليمين في المنطقة.

وفي ظل هذه البيئة وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول التي رأت فيها بعض القوى اليمينية الغربية المتطرفة فرصة لترويج نظرية طرحتها منذ سقوط الاتحاد السوفيتي، تقول إن الغرب في حاجة إلى عدو جديد يتوحد ضده وأن الإسلام مرشح للعب هذا الدور- خاصة أن الإسلام دين أجنبي وأن للمسلمين وجوداً متنامياً في المجتمعات الغربية مما يجعلهم هدفاً سهلاً للعنصرية الجديدة.

دور اليمين الإسلامي

القراءة السابقة لأسباب صعود وانتشار الإسلاموفوبيا بالمجتمعات الغربية مؤخراً ترى أن للمسلمين دورًا يمكن أن يلعبوه في مواجهة تلك الظاهرة، وعلى رأس هذا الدور التحالف على المدى البعيد- مع قوى اليسار الغربي لإحياء الأجندة اليسارية القائمة على نشر قيم العدالة الاجتماعية واحترام حقوق الآخرين والأقليات.

ويكون ذلك عن طريق فهم طبيعة هذه الأجندة، وما تعنيه على المستويات المختلفة، والتوفيق الإيجابي غير التلفيقي بين عناصر تلك الأجندة والفكر الإسلامي على مختلف المستويات بما في ذلك المستويات الفكرية والأخلاقية.

والواضح هنا أن قوى اليمين الإسلامية أقرب من قوى اليسار الغربية في أجندتها السياسية والاقتصادية مقارنة بقوى اليمين، وأن هناك بعض الخلافات الثقافية المتعلقة بقضايا الأسرة والعلاقات الاجتماعية التي تشكل نقاط تعارض بين اليمين الإسلامي واليسار الغربي، وأن الواضح هنا أن العالم الإسلامي مازال يفتقر بوضوح لتلك البرامج بعد مرور هذه السنوات على أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.

والمهمة الثانية هي التعاون مع الأقليات المسلمة في الدول الغربية لتأهيل وتدريب أكبر عدد من السفراء المدنيين والقادرين على تقديم صورة الإسلام الصحيحة للمواطن الغربي بشكل يومي ومؤسسي منظم.

العداء للاسلام

(ويسلم الرب إلهك أولئك الأمم بين يديك .. ويوقع عليهم اضطرابًا شديدًا حتى يفنوا .. ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو أسماءهم من تحت السماء فلا يقف

أحد بين يديك حتى تفنيهم .. سفر تثنية الاشتراع الفصل السابع ٢٣، ٢٤).

هنا نسأل، هل يحتوي القرآن على مثل هذه الدعوة إلى الإبادة؟ لا ؛ لأن هذه الكلمات مستنة من العهد القديم.

الرجل رأس المرأة .. إن المرأة لم تتعظ فليقص شعرها .. أما الرجل فلا ينبغي له أن يغطي رأسه إذ هو صورة الله ومجده .. أما المرأة فهي مجد الرجل .. لم يخلق الرجل من أجل المرأة بل المرأة لأجل الرجل، لذلك ينبغي أن يكون لها سلطان على رأسها.

نعود إلى السؤال الآخر- هل الأمر الموجه إلى النساء بتغطية رؤوسهن وإطاعة الرجل موجودة في القرآن؟ لا يوجد ذلك ، بل هو ورد في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثيا.

هل تمثل هذه المقتطفات السبب الحقيقي وراء الحملات الصليبية والألف حرب وحرب التي أدمت العالم اليهودي- المسيحي طوال قرون من الزمن؟ هل تؤسس لتهميش المرأة في هذه المجتمعات نفسها؟ إنه لمن السخف الاعتقاد بذلك .. فلماذا إذاً، ومنذ ١١ سبتمبر يحاول بعض المثقفين والخبراء إقناعنا بأن مصدر المصائب التي تعيشها بلاد الإسلام موجود في القرآن، ارجعوا إلى الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً.

لماذا يحاول هؤلاء المثقفون تشويه الإسلام وإظهاره في هذه الصورة؟ ولماذا التركيز عليه ؛ لأنه دين العدالة الاجتماعية والديمقراطية والعلم والمعرفة والاحترام للآخر.

يحذر المفكر الفلسطيني – إدوارد سعيد- بقوله: علينا التعامل مع مفهوم الإسلام بحذر. إننا عندما نتكلم عن الإسلام نلغي تلقائياً إلى حد ما- الزمان والمكان- ويوضح أن كلمة الإسلام تحدد جزءاً يسيراً نسبياً مما يحدث في العالم الإسلامي الذي يعد أكثر من مليار ونصف المليار نسمة، ويتضمن عشرات البلدان

والمجتمعات والتقاليد واللغات، وطبعاً عدداً لا حد له من التجارب المختلفة ومن الخطأ محاولة اختزال ذلك كله بشيء اسمه الإسلام.

ومن مساوئ جاك روله الأستاذ المحاضر في جامعة روان الفرنسية وعالم اللاهوت الكاثوليكي أنه ينسى التاريخ وتعرجاته فيقول: «منذ محمد والإسلام فتح، محمد نفسه كان محارباً عسكرياً وفاتحاً. يسوع لم يحمل السلاح ولم يحارب».

هذا الفرق جوهري بين النظريتين التي أطلقها روله باختلاف الزمن والوقت، إذ منذ ظهوره في القرن السابع وعلى مدى قرنين أو ثلاثة فقط عرف الإسلام انتشاراً ساحقاً، وجاءت الانتصارات العسكرية لتؤكد لمسلمي القرون الوسطى أن دينهم دين الحق، وبسبب الحملات الصليبية التي ضاعفت من ظاهرة وفكرة الإسلام ليس إسلاماً إذا لم ينجح عسكرياً لا شيء يجب أن يقف إذن في وجه انتشار الإسلام، هذا صلب القرآن.

في هذا الإطار منذ التسعينيات وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي بدأ بعض الساسة ومراكز البحوث في التفتيش عن عدو جديد وطالعتنا صحيفة «نيويورك تايمز» بالقول: «تتحول الأصولية الإسلامية بسرعة إلى تهديد رئيسي للسلام الشامل والآمن .. ويشبه هذا تهديد النازية والفاشية في الثلاثينيات كما الشيوعيين في الخمسينيات».

يعيش المسلمون حالة ضعف تحت سيطرة أنظمة غير شرعية في أغلب الأحيان ومدعومة من الغرب.

لابد من العلاقة بين الغرب والإسلام

١ - الغرب: من العسير جدًّا تحديد الغرب بتعريف معين يشمله بجميع فئاته وهيئاته؛ لأنه مكون من عناصر معقدة تجعل من الصعوبة بمكان وضعه تحت العنوان «الاختزالي» «الغرب» فهذه مجرد تسمية لتعريف سهل يستعمل في اللغة

اليومية، فالغرب ليس فقط الإعلام أو البيت الأبيض أو الامبريالية أو الاستشراق أو اللوبي الصهيوني أو أو ...، ولكنه أيضاً له ثقافة ذات مرجعيات معتبرة وحضارة وتاريخ، مع الأخذ في الاعتبار أن الغرب مكون أيضاً من عدد غير محدد من الأفراد والحركات وجماعات الضغط التي لا تقع ضمن أي من تلك الدوائر.

٢- الإسلام عندنا- نحن المسلمين- هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، ولكن ما يهمنا هنا هو ما يعنيه الإسلام في نظر الغربيين، فمعظمهم لا يعترف به كدين سماوي، وكثير ممن يقر بأنه دين، يقصره على العرب دون سواهم، ثم هم يرون بأن الإسلام تيارات متعددة فمعظم المفكرين في الغرب مقتنع بأن التيار الإسلامي ليس تيارا واحدا، وإنما هو عدة تيارات مختلفة، وهناك تمييز واضح بين الإسلام التقليدي حسب ما يسمونه، والإسلام الثوري أو ما يسميه «جيمس بيل»، بإسلام المؤسسات، والإسلام الشعبي، فيما قسم آخرون الحركات الإسلامية على أساس مناهجها في الإصلاح، وهناك تقسيم ثالث يفرق بين التيارات الإسلامية التي تؤمن بالإصلاح من خلال استيعاب أفكار ومصطلحات أجنبية، وبين أولئك الذين يرفضون الانفتاح على الغرب، هذا هو على وجه التقريب مفهوم الإسلام لدى الغرب.

وبحسب المفهوم السابق عرفنا أن الغرب ليس مجرد كيان واحد أو كتلة واحدة يمكن الحكم عليها بحكم واحد، هكذا من غير تفضيل- بل هم دول متعددة ومجتمعات مختلفة، ولهم أيضاً ديانات متغايرة، فاليهود على اليهودية والنصارى- عباد الصليب- على النصرانية، وهم أيضاً على ثلاثة مذاهب رئيسية- البروتستانت- والكاثوليك- والأرثوذكس- ولهم مذاهب أخرى متعددة غير هذه الثلاثة، كما أن الغرب فيه الملاحدة والشيوعيين واليهود والنصارى، منذ زمن بعيد

ليسوا على دين موسى ولا عيسى بن مريم، بل هم على الكتب المحرفة عن التوراة والإنجيل. وهم على الشرك وليس على التوحيد الذي تدعو إليه الرسل، ولذلك فهم أعداء التوحيد.

كما أن للغرب هيئات ومؤسسات متعددة منها ما له تأثير كبير على الرأي العام والقرار. كالإعلام والعلماء والمفكرين والأكاديميين، وصناع القرار، ومنهم عامة من كافة أفراد الشعوب الغربية والذي يهمنا هنا هم أولئك الذين يؤثرون تأثيراً كبيراً على المسلمين من جهة، وعلى الشعوب الغربية من جهة ثانية، وعلى صناعة القرار من جهة ثالثة، أولئك هم الفئات الثلاث: الإعلاميون- الأكاديميون- صناع القرار .. السياسيون.

الواقع أن هؤلاء الأكاديميين هم أولئك النفر الذين عنوا بدراسات مختلفة عن الشرق الإسلامي شملت حضاراته وأديانه وآدابه وثقافته، ويعرف هؤلاء بالمستشرقين ، وقد كان الباعث لهم على سلوك هذا المنحنى شدة الحاجة إلى الهجوم على الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر. نتيجة لما رأوه من أن الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين، وأخذت تشكلهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم فيما مضى، وكذلك ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم الحروب الصليبية، ثم الفتوحات العثمانية في أوروبا بعد ذلك في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام والكره لأهله فاستغلوا هذا الجو النفسي، وازدادوا نشاطاً في الدراسات الإسلامية تدفعهم في ذلك عدة دوافع منها:

١- **الدافع الديني**: والذي بدأ بالرهبان مستمراً إلى عصرنا الحاضر، وكان هَمُّ هؤلاء أن يطعنوا في الإسلام ، ويشوهوا محاسنه ، ويحرفوا حقائقه، ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن

المسلمين «قوم همج»، لصوص، وسفاكو دماء يحثهم دينهم على الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو.

٢- **الدافع الاستعماري:** لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد المسلمين بعد هزيمتهم وانتهاء الحروب الصليبية، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ليتعرفوا على مواطن القوة فيضعفونها، ومواطن الضعف فيغتنمونها، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الإستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا، وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث وما عندنا من ديانة.

٣- **الدافع التجاري:** وهو أحد الدوافع الاستشراقية، رغبة في تعامل الغربيين مع المسلمين لترويج بضائعهم، وشراء موارد المسلمين الطبيعية الخام بأبخس الأثمان، ولقتل الصناعات المحلية الإسلامية التي كانت لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلف بلاد المسلمين.

٤- **الدافع السياسي:** وهذا يتجلى في عصرنا الحاضر بعد استقلال الدول العربية والإسلامية .. ففي كل سفارة من سفارات الدول الغربية لدى الدول العربية والإسلامية «سكرتير» أو «ملحق ثقافي» يحسن اللغة العربية أو لغة البلد الذي يعمل به، ليتمكن من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة فيتعرف على أفكارهم، ويبث فيهم من الاتجاهات السياسية وما تريده دولته، وكثيراً ما كانوا يبثون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبين الدول العربية والدول الإسلامية تحت ستار توجيه النصح وإسداء المعونة، وليست حادثة مشورة السفيرة الأمريكية في بغداد قبل احتلال الكويت منا ببعيد.

٥- الدافع العلمي: من المستشرقين نفر قليل جداً أقبلوا على الاستشراق بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها.

موقف المستشرقين من الإسلام:

ينقسم المستشرقون في مواقفهم من الإسلام إلى قسمين:

القسم الأول: قسم متعصب شديد العداء للإسلام، وهؤلاء يسعون جهدهم للطعن في هذا الدين، وتشويه صورته الناصعة البياض في نفوس الغافلين من الغربيين سواء من المفكرين أو من غيرهم من بقية الشعوب، حتى لا يتعرفوا على محاسن هذا الدين، فيسلكوا سبيله وينهجوا منهجه، فيفقد هؤلاء المستشرقون أهدافهم ويخسرون كل ما يسعون إليه.

المخاطر التي تهدد العالم الإسلامي:

«لقاء الحضارات» من العبارات التي تزايد استخدامها في الآونة الأخيرة بشكل لافت للنظر، فهي عبارة متعددة المعاني لاشتمالها على العديد من المجالات وتزداد أهميتها إذا ما نظرنا إليها في إطار المجال الديني، وخاصة في إطار ما يطلق عليه «حوار الحضارات».

أثناء انعقاد المجتمع عام ١٩٦٤ قام الفاتيكان بتكوين منظمتين هما «المجلس البابوي للحوار بين الديانات» و«اللجنة العليا لتنصير الشعوب» وهاتان المنظمتان على اتصال دائم بالعاملين في بعثات التبشير والحوار الديني بالعالم أجمع. وذلك إلى جانب كونهما من أهم الإدارات الفرعية والمنظمات التي تضمنها إدارة البابوية ومنها: سكرتارية دولة الفاتيكان والمجالس العليا وعددها (١١) والمحاكم، والمجالس العامة وعددها (١١) إلى جانب الإدارات الإدارية.

إن العالم الإسلامي يعيش اليوم، أدق وأخطر مراحل التحول في علاقاته الدولية .. حيث تغيرت ملامح الصورة وتبدلت الموازين العالمية بعد ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، وعالم اليوم الذي تمثل فيه الأمة الإسلامية موقع الوسط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب .. يجتاز مرحلة شديدة الحساسية والتعقيد والتحولات والتحديات العظمى التي تدق أبواب العالم الإسلامي من كل جانب وعندما نتحدث عن العالم الإسلامي نعني ضمناً الوطن العربي.

هنا وجب علينا كمفكرين وقوميين ضرورة الوقوف والتصدي لهذه الهجمة الشرسة التي يتعرض إليها عالمنا المعاصر الجديد.

إن التحولات من القطبية الثنائية إلى نظام القطب الواحد يعني أن العالم أصبح الآن أحادي التوجه، وتوجب تجديد الدور الإسلامي في عالمنا المعاصر ليقوم على الحوار والتفاوض.

والأهم من ذلك هو قدرة العالم الإسلامي على إعادة تشكيل نفسه حتى يمكنه التعامل الإيجابي مع هذه المتغيرات التي تطرح فرصاً ينبغي انتهازها ضمن مخاطر المتغيرات التي تهدد العالم الإسلامي.

ازدياد الفجوة التكنولوجية بين العالم الإسلامي والشمال المتقدم الصناعي الرأسمالي أن العالم الإسلامي وهو يدخل القرن الحادي والعشرين لا يستطيع أن ينأى عن التطورات والمتغيرات التي تجري في النظام العالمي الجديد، بل يجب عليه مواجهتها بمفاهيم تتواكب مع المعطيات الدولية الجديدة من الخيارات المطروحة عليه بما يحقق خيراً للأمة الإسلامية جمعاء، والعمل على تعزيز الروابط السياسية والاقتصادية بين دولها وتوسيع آفاق التعاون بينها في مختلف المجالات.

خلقت المتغيرات التي حدثت منذ أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول فجوة واسعة بين

الشعوب الضعيفة وبين تلك الدول التي تريد التحكم بأقدار ومصير هذه الشعوب، وبدأ الصراع يأخذ منعطفاً جديداً في صراع الحضارات بين الشرق والغرب، أو منطلقاً آخر يذكرنا بالحروب الصليبية التي حدثنا التاريخ عنها كحروب استعمارية ضد العروبة والإسلام.

وتصريحات القادة في الغرب المسيحي والتي أكد الجميع أنها الحرب الصليبية الجديدة ضد الإسلام، وأن ما يجري الآن في كل الساحات العربية والإسلامية هو تأكيد لمعاني هذه الحرب.

ومنذ أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول اندلعت حملة واسعة من العدوان والشك والتحريض ضد جميع العرب والمسلمين كما ارتفعت في الغرب أصوات كثيرة تدعي أن الحضارة الغربية والإسلامية تحمل في نسيجها بذور العنف والإرهاب، وأنها تمثل بذلك الخصم الأكبر والنقيض الكامل لكل ما هو غربي بل لكل ما هو إنساني وحضاري.

إن مكمن الخطورة في هذا التوجه أنه يصدر عن ساسة كبار مثل «تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، ومفكرين مثل هنتجتون وفوكوياما، ويناقض الثوابت الإسلامية التي تتمثل في التعايش الإيجابي ، وفي ثقافة الحوار والسلام وتجنب الصراع والفتن والحروب الظالمة، وغيرها من مبادئ يقررها الإسلام أصلاً مرتكزاً للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

أما ما يتردد في الأوساط الغربية ضد الإسلام، فهو فهم مغلوط، وفكر مدمر لا يفهم قيم الإسلام ومثله العليا في الحياة، فإن الإسلام الحضاري رفع من قيمة الإنسان.

لقد نشر الإسلام حضارته الإنسانية في كل أنحاء العالم ، وفي غمرة هذا

الإحساس بالنجاح للإسلام سياسيًّا وعسكريًّا في تحرير آسيا وشمال إفريقيا- رأى الغرب- الغارق في ظلامه، أن الفتوحات الإسلامية ضربة قاصمة له، ولعل ذلك ما يفسر التحامل على الإسلام من مؤرخي الغرب في الماضي والحاضر.

إن لهجة الغربيين اليوم في كلامهم عن الإسلام والمسلمين ليست من النوع الذي يثير الرغبة في محاولة تحسين صورة الإسلام والمسلمين في أعينهم ، بل من النوع الذي يثير الغضب والحنق، لقد أساؤوا الأدب في الكلام عن شيء نبيل وعزيز لدينا.

إن العداء الغربي للإسلام والمسلمين ليس بالجديد علينا كما ذكرنا سابقاً، ولكن بدأت حملة واسعة استخدمت فيها كل وسائل الإعلام لنشر صورة سيئة للإسلام والمسلمين في الغرب.

وعند الحديث اليوم عن الإسلام، فهناك الإسلام والحضارة كما تمثل ويتمثل في ثمرات العقل المسلم ، وتجربة المسلمين في مختلف مناحي الحياة الدنيا التي يستطيع العقل الإنساني أن يدرك حسنها أو قبحها، نفعها، أو ضررها، دون عجز أو قصور بفطرته إلى أن يستلهم فيها رأي الوحي وكلمة السماء.

ولقد عرف العرب والمسلمون. الإسلام الحضارة منذ تأسيس دولتهم الأولى «دولة المدينة» تلك التي كانت بيعة العقبة، عقداً تأسيسياً لها، والتي تبلورت ومؤسساتها تدريجيًّا منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. .

إن التحديات التي تواجه العروبة والإسلام كثيرة جداً فلابد أن نكون حذرين من هذه التحديات التي تواجهنا، خاصة أن الأعداء يحيطون بنا من كل جانب وخاصة الدولة الصهيونية التي غرست في قلب الوطن العربي والإسلامي يساندها كل أعداء العرب والإسلام، من أجل تدعيمها وتقويتها لتكون عائقاً أمام التطور

العربي الإسلامي، حيث أن الأمة العربية والإسلامية تعاني من الغزو الفكري الذي يعمل على شغل الناس بكل ما هو بعيد عن الفهم الصحيح لمبادئ الإسلام والعروبة. ولا يخفى على أحد أن التيارات الغازية تعمل بكل ما تملك من إمكانيات على غزو المجتمعات الإسلامية والعربية، غزوا يفتن الأمة ويضعف انطلاقها ويقيد حركتها ويبعدها عن الواقع.

أن أصحاب التيارات المعادية للإسلام لازالوا يتحركون ولا يزال الغزو الفكري الجذور ويركز على تشويه الأصول.

أن عمليات الاستشراق والتغريب لم تستسلم ولم تلق السلاح، ولكن تحاول أن تعيد جهودها من خلال شعارات جديدة وهي «صراع الحضارات» أو صراع الشرق والغرب.

ومع ذلك لم نتمكن من أن تنتصر لأن الإسلام دين العدالة والمساواة والإخاء والاعتراف بالآخر.

!؟

الفصل الثالث

البابا يوحنا بولس الثاني وتنصير العالم

في كتابها (الفاتيكان والإسلام) نشرت الدكتورة زينب عبد العزيز نص رسالة بابا الفاتيكان بولس الثاني حول تنصير العالم، وهي أخطر وثيقة تنشر ، ولأهميتها فقد ننشرها كما هي بعد حذف بعض الكلمات من تعليقها على رسالة البابا.

نص رسالة البابا بولس الثاني حول تنصير العالم

في الرابع عشر من شهر نوفمبر (١٩٩٤م) أعلن البابا يوحنا بولس الثاني، في روما: خطابه الرسولي الجديد والخطاب يدور حول الإعداد للاحتفالات الخاصة ببداية الألفية الثالثة لمولد المسيح، وهو بعنوان «مع اقتراب الألفية الثالثة» وهو صادر عن مطبوعات الفاتيكان والتي قالت عنه جريدة «لوفيجارو» الفرنسية الصادرة في (١٥/ ١١/ ١٩٩٤): «إنه بمثابة بيان للسياسة التي يجب أن تتبعها الكنيسة، و«البيان» هنا يأخذ معني المنشور السياسي.

وموضوع بداية الألفية الثالثة من الموضوعات العزيزة على البابا. إذ إنه قد آثاره لأول مرة في السابع عشر من شهر أكتوبر عام (١٩٧٨م)، في كنيسة «سكستين» بالفاتيكان، في الخطاب الذي ألقاه بعد تعيينه بسويعات في منصب البابوية. وقد عاد إليه ثانية في الرابع من شهر مارس عام (١٩٧٩م) في أول صفحة من خطابه الرسولي حول «المسيح فادي البشر».

ونجد نفس الفكرة في خطاب رسولي آخر حول «رسالة الكنيسة» الذي أصدره في السابع من شهر ديسمبر عام (١٩٩٠م) والذي كان بمثابة النص المرجعي لآلاف الكاثوليك الفرنسيين الذين اجتمعوا في مدينة «لورد» (من ٤ إلى ٩/ ١١/ ١٩٩٤م) في لقاء بعنوان «تبشير الكوكب».

ومن هنا ندرك كيف أن موضوع الألفية هذا «مرتبط بضرورة عملية جديدة لتنصير العالم» على حد قول «جوزيف فاندريس» مراسل جريدة لوفيجارو في

الفاتيكان (١١/ ١١/ ١٩٩٤م) والذي يواصل قائلاً: «إن عام ألفين سيصبح إذن: «عام الخلاص» وعام استقبال ذلك الإنجيل الذي عرضه يسوع في المعبد اليهودي بمدينة الناصرة، كرسالة تحرير لكافة شعوب العالم».

لذلك كان البابا قد دعي كافة الكرادلة إلى اجتماع عام في يومي (١٣، ١٤ يونيو ١٩٩٤م) لمناقشة الإعدادات الخاصة بذلك «العام المقدس» واقترح المجمع الكنسي أن يكون الموضوع الرئيسي للاحتفال هو: «يسوع المسيح، محور العالم وسيد تاريخه» وأن تستعد كافة الكنائس المحلية لهذا الحدث طوال فترة الأعوام الخمسة القادمة، أي من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٠!

وتكمن أهمية صدور هذا الخطاب الرسولي في هذا التوقيت من شهر نوفمبر ١٩٩٤م، وبعد شهر واحد فقط من صدور آخر كتاب للبابا وهو بعنوان «ادخلوا في الرجاء» في أنه نفسه يري ضرورة أن يستعد كافة الكاثوليك لعام ألفين، بأن يضعوا أنفسهم في الجو الطقسي الخاص بهم والمسمي «مقدمات أعياد الميلاد» والتي تبدأ قبل الخامس والعشرين من شهر ديسمبر بأربعة أسابيع.

والخطاب في مجمله عبارة عن نداء لكافة الديانات المسيحية، وغير المسيحية لتشارك في هذا الاحتفال، إلى جانب كونه «مجاهرة بالعقيدة الكاثوليكية لتنصير الكافة، وفقاً لها» على حد قول إيلي مارشال في نفس جريدة لوفيجارو. وقد استقي الكاتب عبارة «المجاهرة» هذه من نفس الشكل الاحتفالي الذي خطط له البابا في إطار تمجيدي للثالوث ينتهي «بجمع عالمي للقربان»!!

والخطاب يقع في سبعين صحيفة، وهو موجه إلى كافة رجال الإكليروس بمختلف رتبهم، وإلى كافة الأتباع المدنيين بمناسبة الإعداد ليوبيل عام ألفين.

ويتكون هذا الخطاب الرسولي من خمسة أقسام، تتضمن تسعة وخمسين بنداً،

عناوينها كالآتي:

١- «يسوع المسيح هو نفسه بالأمس واليوم».

٢- يوبيل عام ألفين.

٣- الإعداد لليوبيل الكبير.

٤- الإعداد الفوري:

أ- المرحلة الأولي.

ب- المرحلة الثانية.

العام الأول: يسوع المسيح.

العام الثاني: الروح القدس.

العام الثالث: الله – الأب.

جـ- بغية الاحتفال.

٥- «يسوع المسيح هو نفسه...إلى الأبد».

ويتضمن القسم الأول ثمانية بنود، يوضح خلالها البابا: سر الثالوث ومساواة يسوع الأب، ومساواة الروح القدس ليسوع، وكيف أن «المسيح فادي العالم» هو الوسيط الوحيد بين الله والبشر (بند ٤).

لأن «المسيح هو الله حقاً، وهو إنسان حقاً، وهو سيد الكون وسيد التاريخ أيضاً، وهو البداية وهو النهاية» (بند ٥).

ذلك لأن السيد المسيح لا يتحدث إلى البشر باسم الله، مثال الأنبياء، وإنما هو الله نفسه، الذي يتحدث في كلمته الخالدة بعد أن تجسدت ، وهنا نلمس النقطة

الأساسية التي تفرق المسيحية عن الديانات الأخرى؛ التي لاح فيها منذ البداية بحث الإنسان عن الله. أما في المسيحية؛ فإن نقطة الانطلاق هي تجسد الكلمة وهنا لا يذهب الإنسان بحثاً عن الله، وإنما الله هو الذي أتي شخصيًّا للتحدث عن نفسه إلى الإنسان، كما يقولون، ليوضح له الطريق الذي سيسمح له بالوصول إليه.

وبهذه الصورة، فإن المسيح هو تحقيق لتطلع كافة ديانات العالم، ومن هنا فهو نهاية مطافها الوحيد والنهائي (بند ٦).

«وإن ديانة التجسد هي ديانة فداء العالم بفضل تضحية يسوع التي تتضمن الانتصار على الشر، وعلى الخطيئة، وعلى الموت نفسه» (بند ٧).

أما في القسم الثاني، الخاص بيوبيل عام ألفين ويتضمن ثمانية بنود أيضاً، فيحاول البابا الزج فيه بأكثر من نقطة لها مغزاها: فمن ناحية، يقوم بتعريف عبارة اليوبيل والتفرقة بين احتفال اليهود لها، وبين المعني الجديد الذي يضفيه عليها؛ وفي نفس الوقت يقوم بعملية تمهيد لاهوتية لمشروعه بإسقاط ديون العالم الثالث مقابل تنصيره، ومحاولة البرهنة ضمناً وبلباقة تناسب وكأنها تلقائية، على أن العهد الجديد يتضمن تشريعاً! وهنا يقول نيافته: «بخلاف تحرير العبيد في السنة السبتية فإن الشرع كان ينص على إسقاط كافة الديون وفقاً لمعايير محددة» (بند ١٢).

«وفي الإطار القانوني ارتسم بالتدريج مذهباً اجتماعيًّا، تطور فيما بعد بوضوح أكثر ابتداء من العهد الجديد» (بند ١٣).

ومن هنا يخرج البابا بأهمية هذه الألفية «لا بالنسبة للمسيحيين فحسب، وإنما بشكل غير مباشر للإنسانية بأسرها، نظراً للدور القيادي الذي مارسته المسيحية خلال هاتين الألفيتين.

ومما له مغزاه، أن التقويم يتم في كافة أنحاء العالم، اعتباراً من مجئ المسيح في

العالم: وهذا المجيء هو أيضاً مركز التقويم الأكثر استخداماً اليوم»(بند١٥).

ثم ينتهي هذا القسم برجاء توحيد كافة الكنائس من أجل الإعداد لهذا اليوبيل وتحقيق بنوده الاحتفالية، معتبراً سيادة التقويم الميلادي علامة إلهية على وجوب سيادة المسيحية ، وفرضها على العالم متناسيًّا أن الاستعمار هو الذي فرضه قهراً وتغريباً!

ويدور القسم الثالث، الخاص بالإعداد لليوبيل الكبير ويقع في اثني عشر بنداً، بإضفاء شرعية إلهية على هذا الاحتفال، والتوسع في شرح وتبرير المجمع الفاتيكاني الثاني، مع إضفاء نفس الشرعية الإلهية عليه «لأنه متمركز حول سر المسيح ومنفتح على العالم» (بند ١٨).

وهنا يوضح البابا: أن كل أحداث القرن العشرين «وكل ما وقع طواله بوضوح، أكثر من أي وقت مضي أن العالم بحاجة إلى التطهر، وأنه بحاجة إلى الاهتداء إلى المسيحية» (بند ١٨).

أي إنه يرتبط بين الاحتفال بهذا اليوبيل وبين قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني بشكل لا انفصام فيه، أو كأن هذا اليوبيل يأتي تتويجاً لقرارات ذلك المجمع «الذي تمخض عن تكوين العديد من المجامع الكنسية العامة، والقارية، والمحلية، والقومية، والأبرشية، وكلها تدور حول الموضوع الأساسي للتبشير، بل والتبشير الجديد الذي تم إرساء قواعده في الخطاب الرسولي للبابا بولس السادس عام (١٩٧٥م) والمعنون «تبشير الإنجيل» الذي أصدره عقب الجمعية الثالثة العامة للمجمع الكنسي للأساقفة» (بند ٢١) وهو المجمع الخاص بتنصير العالم.

ثم يتناول البابا يوحنا بولس الثاني، جهود البابوية في روما باقتضاب، وكيف أنهم عملوا جميعاً وعلى التوالي للإعداد للاحتفال بهذا اليوبيل بصور مختلفة

متناسقة، وكيف أن البابا بولس الثاني عشر (١٩٣٩ - ١٩٥٨م) قد «أعطي توجيهات شديدة الوضوح حتى بالنسبة لإقامة النظام العالمي الجديد بعد إسقاط الأنسقة السياسية السابقة» (بند٢٢).

وفي البند (٢٧) يقول البابا: «من الصعب ألا نلحظ أن «العام المريمي» قد سبق عن قرب أحداث عام (١٩٨٩م) وهذه الأحداث لا يمكنها إلا أن تدهشنا باتساع مداها، وخاصة بسرعة سياقها، إذ إن أعوام الثمانينات قد انساقت، وهي مثقلة بخطر متزايد، عقب الحرب الباردة وسنة (١٩٨٩م) قد أتت بحل سلمي، اكتفي إن أمكن القول، بشكل منظور «عضوي» وعلى ضوء هذا الحل نشعر بأننا مدفوعون إلى الاعتراف بمعني نبوئي للخطاب الرسولي المعنون «الشئون الحديثة»: فما كتبه البابا ليون الثالث عشر عن الشيوعية قد تم تحقيقه، مثلما أوضحت ذلك في الخطاب الرسولي المعنون «السنة المائة» ومن الواضح أنه يمكننا القول فيما يتعلق بهذه الأحداث: إن يد الله الخفية كانت تعمل باهتمام أمومي: فهل يمكن لأم أن تنسي ابنها الصغير؟ (عن٤٩/ ١٥)».

الأمر الذي يوضح إلى أي مدي تتدخل الكنيسة الفاتيكانية في الشئون السياسية في بلدها فحسب وإنما في العالم أجمع.

وهذا «العام المريمي» الذي يشير إليه البابا كان بمثابة الغطاء الديني الذي قام به لإحياء الكنيسة الأرثوذكسية في الاتحاد السوفييتي، باختلاق ظهور العذراء ليبدو مخطط ضرب اليسار، وكأنه تم في شكل «تطور عضوي» تسانده ما يكتبونه من «نبوءات» في خطبهم الرسولية!! لذلك ينهي هذه الفقرة بالإشارة إلى يد الله الخفية و«اهتمامها الأمومي» وهي عبارة تشير ضمناً إلى: المرتبة التي قامت الكنيسة برفع السيدة مريم إليها في الخمسينيات ومساواتها «بالله الثلاثي» بما أنها أم إحدى

شخصياته الثلاث!!

ثم ينتقل البابا إلى ما بعد عام (١٩٨٩م)، أي بعد الأحداث التي ساهم فيها شخصياً لإسقاط الشيوعية، قائلاً: «غير أن المخاطر الجديدة التي لاحت بعد عام (١٩٨٩م) والتهديدات الجديدة الناجمة عنها، قد أوضحت خطر صحوة القوميات، مثلما هو واضح في أحداث البلقان، والمناطق القريبة، الأمر الذي يلزم الدول الأوروبية بمراجعة ضميرها والاعتراف بالغلط والأخطاء التاريخية في الحالات الاقتصادية والسياسية تجاه الأمم، التي قامت الإمبريالية في القرن الماضي وفي القرن الحالي: بنهب حقوقها بدأب» (بند ٢٧).

والغلط الذي يعنيه البابا هنا هو ترك بعض البلدان الأوروبية تقع في براثن اليسار السياسي والاقتصاد الاشتراكي.

أما فيما يتعلق بالإعداد الفوري لهذا اليوبيل، وهو موضوع القسم الرابع من هذا الخطاب الرسولي، ويقع في سبع وعشرين بنداً، فإن أول ما يتفوه به البابا هنا، هو ضرورة مراعاة إمكانية تنفيذ هذا المخطط الاحتفالي في كافة الكنائس المحلية، وبخاصة «تلك التي تعيش في ظروف شديدة الاختلاف» (بند ٢٩) أي في بلدان غير مسيحية.

لذلك يقوم بتقسيم الفترة الزمانية الباقية من القرن العشرين إلى مرحلتين، على أن تكون المرحلة الأولي: بمثابة إعداد الأتباع وتهيئتهم نفسيًّا بصورة عامة، ثم يتم التركيز بعد ذلك على المرحلة الثانية: وهي آخر ثلاث سنوات في القرن العشرين، «تخصص كلها للاحتفال بسر المسيح المنقذ أي بسر تكوينه الثلاثي» (بند ٣٠).

ويري البابا أن تتضمن المرحلة الأولي: الاعتراف بالأخطاء، والاهتداء، أي عملية المصالحة بين مختلف الكنائس واعتناقها لكاثوليكية روما.

وهنا يوضح البابا أنه «من المفيد أن تعتبر الكنيسة هذه الفترة من بداية الألفية الثالثة، وهي مدركة تماماً لكل ما عاشته طوال العشرة قرون الماضية، إذ أنه لا يمكنها أن تجتاز عتبة الألفية الجديدة، دون أن تحث أبناءها إلى التطهر، وذلك من خلال الندم على الأخطاء، والخيانات، والتناقضات، والتباطؤات، فالاعتراف بأخطاء الأمس تمثل: فعل أمانة وشجاعة، يساعدنا على تقوية إيماننا، ويجعلنا نتبصر إغراءات ومصاعب اليوم، ويساعدنا على مواجهتها» (بند ٣٣).

ويعني البابا بأهم هذه الأخطاء «تلك التي أدت إلى المساس بالوحدة التي أرادها الله لشعبه» (بند ٣٤).

والتمزقات التي تعرضت لها صفوف الإكليروس «التي تمثل فضيحة في نظر العالم» (بند ٣٤).

ومنها «الموافقة – التي تمت بخاصة في بعض القرون – لاستخدام أساليب التعصب بل والعنف في خدمة الحقيقة» (بند ٣٥).

ولكي ينصف الحكم على التاريخ يحدد البابا: «إنه يجب أن نأخذ في الاعتبار، الظروف الثقافية السائدة آنذاك، فقداعتقد الكثيرون بكل صدق، تحت تأثيرها، أن الولاء الصادق للحقيقة هو إخراس رأي الآخر أو على الأقل تهميشه» (بند ٣٥).

ثم ينتقل البابا إلى أخطاء الحاضر ومنها: عدم المبالاة الدينية، وضياع مفهوم تعالي الحياة البشرية وتصعيدها، والتخبط في المجال الأخلاقي حتى فيما يتعلق بالقيم الأساسية واحترام الحياة واحترام الأسرة، لذلك يري أنه «يتعين على الأتباع مراجعة مدي تأثرهم بالعلمانية والدنيوية والنسبية الأخلاقية» (بند٣٦).

وبخاصة: «أولئك الذين ينساقون إلى نوع من الديمقراطية ونوع من الاجتماعية التي لا تحترم الرؤية الكاثوليكية للكنيسة، ولا أصالة روح مجمع الفاتيكان الثاني»

(بند٣٦).

وينتهي هذا الجزء بضرورة إقامة مجامع كنسية أسقفية قارية، من قبيل المجمعين اللذين أقيما في روما بشأن كل من أوروبا وإفريقيا، على أن يخصص واحد للأمريكتين، حول عملية التبشير الجديدة، وآخر حول آسيا التي تطرح فيها بصورة أكثر إلحاحاً عملية لقاء المسيحية مع الثقافات والديانات المحلية الشديدة القدم. الأمر الذي يمثل تحدياً كبيراً بالنسبة لعملية التبشير لأن الأنسقة الدينية، مثال: البوذية، والهندية، ذات طابع مشابه للمسيحية، إذ أنها تعتمد أيضاً على فكرة «منقذ» (بند ٣٨).

وهنا يؤكد البابا: إنه لمن الأمور الشديدة الإلحاح أن يتم انعقاد مجمع كنسي بمناسبة اليوبيل الكبير، لتوضيح وتعميق المذهب الخاص بالمسيح؛ الذي هو الوسيط الوحيد بين الله والبشر والمخلص الوحيد للعالم، مع تمييزه تماماً عن مؤسسي الديانات الكبرى الأخرى، والتي نجد فيها – رغم ذلك – بعض عناصر من الحقيقة، والتي تنظر إليها الكنيسة باحترام صادق، إذ تري فيها انعكاساً للحقيقة التي تنير كافة البشر (بند ٣٨)، أي الحقيقة المسيحية.

كما يطالب البابا بانعقاد مجمع كنسي أسقفي آخر خاص بالمنطقة الأقيانوسية «حيث يجب عدم إهمال موضوع لقاء المسيحية مع تلك الأشكال الشديدة القدم من التدين والمتميزة باتجاه وحدوي، الأمر الذي له مغزاه الشديد» (بند ٣٨) ويقصد بها الديانة البوذية أساساً: القائمة أيضاً على فكرة الفداء.

أما المرحلة الثانية لهذا المخطط، والتي تأتي بعد ما أطلق عليه تهيئة المناخ العام، فيري البابا: أن تمتد على ثلاث سنوات، من (١٩٩٧ إلى ١٩٩٩م) «على أن تكون البنية الموضوعية لهذه السنوات الثلاث متمركزة حول المسيح، ابن الله وقد تجسد بشراً، وهو احتفال لا يمكن أن يكون لاهوتياً، أي متعلقاً بالثالوث» (بند ٣٩) على

الطريقة الكاثوليكية.

فالعام الأول (١٩٩٧م) سيخصص للتأمل حول السيد المسيح، ويري البابا: أنه لابد من التأكيد هنا على إبراز الطابع الشديد للمسيحية لليوبيل، الذي سيحتفل بسر الخلاص لكافة البشر: «يسوع، المسيح، المنقذ الوحيد للعالم، بالأمس، واليوم، وإلى الأبد» (بند ٤٠).

مع العمل على «إعادة اكتشاف المسيح منقذاً ومبشراً» (بند ٤٠).

مع إحياء مضمون الأسرار السبعة للكنيسة، وبخاصة التعميد، الذي يمثل وفقاً لكتاب التعليم الديني الجديد (الذي أصدره البابا في ديسمبر ١٩٩٢م): «أساس التقارب بين كافة المسيحيين، وكذلك بين كل الذين لم يتقاربوا بعد كلية من الكنيسة الكاثوليكية» (بند ٤١) أي اليهود والمسلمين وإتباع الديانات العالمية الأخرى.

وينهي البابا (البند ٤٤) من القسم الرابع لمخططه قائلاً: «ومن قبيل الاهتمام بالواقعية، يجب عدم إغفال ضمير الأتباع فيما يتعلق بالأخطاء التي تمس شخص المسيح، مع توضيح المعارضات الواضحة ضده وضد الكنيسة بدقة» ولا يسع المجال هنا لتناول كل هذه المعارضات التي تمتد على مدي ألف عام.

والعام الثاني لهذا الاحتفال (١٩٩٨م) يكرسه البابا للروح القدس «بما أن سر التجسد قد تم بفضل الروح القدس المساوي للأب والابن» (بند ٤٤)

وهو عكس ما تؤمن به الكنائس الأرثوذكسية؛ ولم يفت البابا أن يوضح، أهمية الروح القدس في نظره، فهو الفارقليط الذي سيرسله الأب باسمي يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم (يوحنا ٢٦: ١٤) (بند٤٤).

لذلك يري البابا أنه يتعين على المسيحيين «أن يستعدوا لهذا اليوبيل بإحياء

رجائهم في المجيء النهائي لمملكة الرب... وذلك بإبراز قيم الرجاء الواضحة، في نهاية هذا القرن... والتي تتضح في التقدم الذي أحرزه العلم... والتزود بإحساس أكبر بالمسئولية حيال البيئة والجهود المبذولة لإقامة السلام والعدل في كل مكان تم اغتصابها المعقدة بين الشمال والجنوب في العالم...والعمل على وحدة كافة المسيحيين، والأهمية المضفاة على الحوار مع الديانات ومع الثقافة المعاصرة». (بند٤٦).

أما العام الثالث والأخير (١٩٩٩م) فسيخصص لتمجيد الأب الثلاثي التكوين، والعمل على إبراز قيمة المحبة والرحمة، خاصة وأن الطريق إلى العدالة والسلام في هذا العالم «تحفة العديد من الصراعات وعدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية المتعددة الأشكال» (بند ٥١).

وبعد أن قام بالتمهيد للمرة الثانية لعدم المساواة الاقتصادية الناجمة عن الإمبريالية، ونهبها لموارد العالم الثالث، أو لأهل الجنوب أينما كانوا.

يري البابا أن تكون مناسبة اليوبيل هذه بمثابة «لحظة سانحة ليتم فيها التفكير إلى جانب أشياء أخرى - لم يفصح عنها نيافته - في تحقيق هام، إن لم يكن في إلغاء بالكامل للديون الدولية التي تثقل على العديد من الأمم بذلك سيمكن لليوبيل تقديم فرصة التأمل حول تحديات أخرى للعصر، من قبيل: صعوبات الحوار مع الثقافات المختلفة والمشكلات المرتبطة باحترام حقوق المرأة ونشر مفهوم الأسرة والزواج» (بند٥١).

ويوضح البابا في البند (٥٢) لهذا المخطط، المنشور السياسي أهم حقلي عمل يجب توليتها عناية خاصة وهما «المواجهة مع العلمانية، والحوار مع الديانات الكبرى» وفيما يتعلق بالنطقة الأولي يجمعها في عبارة «أزمة الحضارة» كما هي

واضحة في الغرب المتقدم تقنياً، وإن كان أكثر افتقاراً نفسياً لنسيانه الله أو لتهميشه إياه.

أما فيما يتعلق بالحوار بين الأديان، فيري أن تتم مواصلة ذلك الحوار «وفقاً للتعليمات الشديدة الوضوح التي أملاها المجمع الفاتيكاني الثاني في بيان «في زماننا هذا» حول علاقات الكنيسة مع الديانات المسيحية» (بند ٥٣).

متمنياً إمكانية ترتيب لقاءات مع اليهود والمسلمين «في أماكن لها مغزاها بالنسبة للديانات الكبرى التوحيدية» (بند ٥٣).

لذلك يري «دراسة إمكانية عمل لقاءات تاريخية في بيت لحم، والقدس، وجبل موسي في سيناء، وهي أماكن ذات قيمة رمزية عالية، بغية تكثيف الحوار مع اليهود ومع أتباع الإسلام وأيضاً ترتيب لقاءات مع ممثلي الديانات الكبرى في العالم في مدن أخرى. مع الحرص دوماً على عدم إثارة عمليات سوء فهم خطيرة عند مجازفة محاولات التوحيد السهلة والمخادعة» (بند ٥٣).

وفيما يتعلق بالاحتفال الكبير فيري نيافته «أن يتم ذلك في آن واحد في كل من الأراضي المقدسة، وفي روما، وفي كافة الكنائس المحلية للعالم أجمع» (بند٥٥).

على أن تكون غاية الاحتفال هي : « تمجيد الثالوث» (بند٥٥).

وأن يقام في روما بهذه المناسبة «مؤتمر عام لسر القربان» (بند٥٥)...أي أن يكون عام ألفين؛ هو العام الدولي للقربان أو عام الخلاص للعالم أجمع كما أطلق عليه.

وينهي البابا خطابه، بالإشارة الخاطفة حول إنجازات الكنيسة فيما يتعلق بعمليات التنصير في العالم، موضحاً أنه على الرغم من انحسار المسيحية في الغرب إلا أنها تزدهر في كل من إفريقيا وآسيا، بفضل نشاط مبشريها، مؤكداً: «إن الكنيسة

ستواصل مهمتها التبشيرية فيا لمستقبل أيضاً، فالطابع التبشيري يمثل بالفعل جزءاً من طبيعتها» (بند ٥٧).

ومن بين التعليقات الشحيحة التي صدرت حول هذا الخطاب في الصحف الفرنسية، ما كتبه «هنري تانك» في جريدة لوموند (١٥/ ١١/ ١٩٩٤م) مشيراً إلى أن «إعدادات البابا لا تفتقر إلى الجرأة أو إلى التنسيق.... إذ يبدأ خطابه بتأمل طويل حول مغزى قيمة الزمان ليؤكد على سيادة المسيحية على كافة الديانات، ثم يتناول سر التجسيد- أي تجسد الله عز وجل في السيد المسيح-، وهو السر الذي يمثل ولد المسيح بالنسبة للمسيحيين. ويوضح البابا في هذا الجزء، كيف أن التراث الوارد بالعهد القديم بكله، يرمي إلى قضية انتظار «مسيح» وأن هذا المسيح في نظره هو «عيسى» الذي أتى منذ ألفي عام لإتمام هذه الرسالة، بغض الطرف عن دقة التواريخ، إذ إن التراث المسيحي يحدد مولده بخمسة أعوام أو أربعة، قبل التقويم الميلادي، وهناك من يعود به إلى العام التاسع أو السابع قبل نفس التقويم.

ويواصل هنري تانك، عرضه للخطاب الرسولي قائلاً: «ويقرأ المرء بحرج شديد أحياناً تلك الصفحات التي يقول فيها البابا: إن دخول الله في التاريخ البشري بمثابة تطلع، نجده في كل الديانات، إذ أن يسوع بالنسبة للمسيحيين هو الله وهو إنسان في آن واحد... وأن المسيح هو تحقيق تطلع كافة ديانات العالم، ومن هنا فهو نهاية مطافها الوحيد والنهائي»!

ولاشك في أن الحرج الذي يشعر به كاتب المقال، ناجم عن إلغاء نيافة البابا للديانات الأخرى بجرة قلم، التوحيدية منها وغير التوحيدية، كما أنه حرج ناجم عن كل ما يعرفه الكاتب من معلومات مؤكدة تشير إلى كل ما تم في المسيحية من تلاعب وتبديل، وتكفي عبارته القائلة: «وإن هذا «المسيح» في نظره هو «عيسى»

فالثابت تاريخيا أن إشارات العهد القديم تلك لم تكن تعني عيسى ابن مريم؛ وإنما تعني سيدنا محمداً ﷺ ويواصل الكاتب معلقاً على العبارة السابقة قائلاً: «إنه لا يشير إلى التراث التبشيري الذي هو خاص باليهودية، ولا للتراث الإسلامي الذي لا يري في يسوع سوي نبي من الأنبياء».

ثم يوجز عرض البابا لقضية «التجسد» هذه والتي يقول عنها: إنها تجعل من الإنسان «كائناً روحياً وخالداً أساساً، والتي تتميز بها الديانة المسيحية وحدها» قائلاً: «إن هذا الطابع الاحتكاري المضفي على التجسد المسيحي، لم يمنع البابا من رؤية منظور توحيدي لضم الكنائس، بأوسع معاني الكلمة، وهو منظور يشمل أيضاً على العقائد اليهودية، والإسلامية والشرقية، التي ينوي البابا يوحنا بولس الثاني، أن يضمها للاحتفالات التي يعلن عنها بمناسبة بداية الألفية الثالثة للمسيحية بل إنها المحور الأساسي لهذا الخطاب الأخير».

ثم يتعرض الكاتب هنري تانك إلى الانقسامات التي اتسمت بها الألفية الحالية، والتي أوضح البابا أنها تشتمل على عدة قضايا منها التمزقات المؤلمة التي عرفتها جماعة الإكليروس. وهي انقسامات تتناقض صراحة مع إرادة المسيح، وتمثل فضيحة في نظر العالم، إلا أن هذه الأخطاء المتعلقة بالماضي مازالت ترمي بثقلها للأسف لذلك من الضروري أن نقر بالذنوب ونعترف بها جهاراً، مستجدين غفران المسيح بقوة... لأن الكنيسة لا يمكنها أن تجتاز عتبة الألفية الجديدة، دون أن تحث أبناءها على التطهير من خلال الندم على الأخطاء والخلافات والتنافرات والتباطؤات، غير أن الكاتب يوضح قائلاً: «إن البابا لا يشير في هذا الجزء من الخطاب إلى الجرائم التي وقعت باسم محاكم التفتيش الكاثوليكية أو عن طريق التنصير الإجباري» ولا إلى «الحروب الدينية المسيحية» ولا إلى «مذابح الهنود الحمر

على أيدي المبشرين (الكاثوليك) ولا إلى «مذابح اليهود التي لم يشر إليها بكلمة أيضاً» الأمر الذي يلطخ الكنيسة وتعصبها بما يصعب اغتفاره على مر التاريخ في نظر هنري تانك... وهي جرائم نضيف إليها مذابح المسلمين، التي لم يشر إليها لا البابا، ولا الذين تناولوا التعليق على خطابه، لكي لا نقول شيئاً عن مذابح الإسلام الدائرة في كل مكان ولا عن ما عاناه المسلمون من محاولات، لاقتلاعهم بالقتل، أو بالتنصير، منذ الحروب الصليبية المختلفة حتى يومنا هذا. إلا أن البابا على ما يبدو لا يهتم سوي بما دار من قبل الآخرين من مجازر، متناسياً ما قام به التعصب الكاثوليكي منذ بداية مشواره.

ومن اللافت للنظر – من حيث القدرة على بتر الحقائق والمجاهرة بعكسها – أن يدعم البابا كل هذه الجرائم في عبارة مقتضبة مغلفة تقول: «لا يمكننا ألا نأخذ في الاعتبار الظروف الثقافية التي سادت آنذاك»...مجرد ظروف ثقافية!.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الأخطاء والجرائم التي يتحدث عنها البابا تعني: ما قامت به المذاهب والطوائف المسيحية الأخرى في حق الكاثوليكية التي يترأسها، لذلك يطالبهم بالمجاهرة بأخطائهم، وبجرائمهم في حق الكنيسة الأم، حتى يمكن جمع شملها... وهو ما دفعه إلى توضيح: «إن أفضل إعداد لاحتفالات انقضاء ألفي عام لا يمكن أن يتم التعبير عنها، إلا بتجديد الوعد بالالتزام بتطبيق تعاليم مجمع الفاتيكان الثاني على حياة كل فرد وعلى كل كنيسة».

وقد شرع البابا بالفعل في عملية إدماج الكنائس – بغض الطرف عن خلافاتها العقيدية الجذرية التي لم تحل – وذلك باتخاذ إجراءات إعادة صياغة قوائم الشهداء وسائر القديسين لمختلف الطوائف المسيحية الأساسية في قائمة واحدة، من أجل حث خطي تنفيذ عملية الكنيسة العالمية الموحدة، على أن تتضمن القائمة شهداء

الكاثوليك، والأرثوذكس ، والأنجليكان ، والبروستانت؛ لأن «توحيد القديسين والشهداء – في نظر البابا – قد يكون أكثر إقناعاً في التقريب بين الكنائس».

وفي نهاية هذا العرض الخاطف للخطة الخمسية للبابا يوحنا بولس الثاني، وهي خطة ملزمة لكافة السياسيين المسيحيين ولكافة الكنائس، بحكم عقيدة الإيمان وبحكم القانون الكنسي وشرائعه، وقبل الرد على بعض أهم النقاط الواردة به، لا يسعنا إلا أن نبدأ بالتساؤل حول ذلك المغزي الكبير وغير المعلن «لعام بأسره عن «القربان» والذي تسبقه عملية إسقاط هامة للديون الدولية التي تثقل على مصير العديد من الدول، إن لم يكن إسقاطاً كاملاً لها؟! تري هل سيتم إسقاط ديون العالم الثالث في الأعوام القليلة القادمة شريطة تنصيره، أو ثمناً له، والاحتفال بعد ذلك بابتلاع القربان تدشينا لذلك التنصير المدفوع الأجر؟!

وإذا ما حاولنا استخلاص أهم النقاط الواردة في هذا الخطاب الرسولي، سنجد أنها تتعلق بالموضوعات التالية: الإنجيل. الكاثوليكية يسوع توحيد الكنائس واقتلاع الديانات الأخرى. الانقسامات وضرورة الاعتراف بالأخطاء من أجل إقرار الحقيقة مجمع الفاتيكان الثاني.

وعبارة «الحقيقة» من أهم العبارات التي يستخدمها البابا يوحنا بولس الثاني في أحاديثه وخطبه... تلك الحقيقة التي وصل ولعه بها، وإيمانه بأهميتها إلى درجة جعلته يفرد لها خطابًا رسوليًا بأسره، صدر في شهر أكتوبر عام (١٩٩٣م) بعنوان «روعة الحقيقة».

والحقيقة رائعة... رائعة ولا شك في روعتها رغم كل ما تسببه من آلام ومعاناة أحياناً... وهي لا تفرض نفسها إلا بقوة ما تحمله من حقائق – كما أوضح البابا في مكان ما بخطابه هذا – إلا أن «الحقيقة» القائمة على الزيف والتحريف وطمس

الحقائق التاريخية المعاشة تختلف عن الحقيقة الحقة.

وبما أن البابا لا يتناول، بل ولا ينظر إلا إلى نوع واحد من «الحقيقة» فقد رأينا أن نعرض لبعض الحقائق التي تعمد «إخراسها» أو «تهميشها» كما يقول عن الآخرين.

ولكي نضرب مثالاً لما نعنيه، نورد تلك العبارة التي قالها البابا عن الأخطاء السالفة للكنائس الأخرى: «لا يمكننا إلا أن نأخذ في الاعتبار الظروف الثقافية التي سادت آنذاك» والقارئ العادي لهذه العبارة لا يري فيها سوي المنطق السليم المحايد، غير أنه إذا ما قرأ ما أورده هنري تانك في عرضه للخطاب، وكل ما سرده من جرائم قامت بها الأيادي العابثة في الكاثوليكية على مر العصور، لتغير موقفه.

وإذا ما حاولنا اتباع نفس المنهج في عرض الجانب الآخر من الحقائق لأهم النقاط الواردة بها الخطاب الرسولي، أو بهذه الخطة الخمسية للبابا، لوجدنا صورة فظيعة نذكرها فيما يلي، إلا أننا نبدأ بفقرة مقتضبة حول الثالوث الذي يقام عليه الاحتفال برمته لنوضح:

إن الثالوث لم يرد ذكره إطلاقاً في الكتاب المقدس بعَهْديه، وإن عبارة عن رمز ثم نسجه على مر الأيام، وإن المسيحيين لم يعرفوا عبارة التثليث قبل نهاية القرن الثاني الميلادي. وإن أقدم استخدام لها وارد عند تيوفيلس الإنطاكي في كتابه المعنون: «إلى أوتوليكوس» وقد أدي هذا التحريف الثلاثي لله سبحانه وتعالي إلى العديد من الانقسامات حتى بعد تثبيته رسمياً، أو إجبارياً في مجامع القرن الميلادي الرابع وهو محاولة للمزج بين تعاليم المسيحية كما أتي بها السيد المسيح، وبين الديانة الهالينية، التي هي امتداد للديانة المصرية القديمة. وذلك بغية اكتساب أكبر قدر من الأتباع. وهي نفس العملية التي يحاول البابا القيام بها وتغافله الخلافات الحقيقية بغية تنصير العالم بأي ثمن وبأية وسيلة!.

الإنجيل: من المعترف به يقينا أن الأناجيل المتداولة، حالياً، قد تمت كتابتها بعد وفاة السيد المسيح بفترات، مازال الاختلاف دائراً حول طولها؛ إلا أن الاختلافات العقيدية الشديدة الوضوح بينها، والإشارة في بعضها إلى واقعة استيلاء الرومان على مدينة «القدس» آنذاك، لدليل قاطع على أنها قد صيغت بعد عام سبعين ميلادية، دون أن نذكر شيئاً عن كل ما اعتراها من تغيير وتبديل ما زال يتم من طبعة لأخرى. إلا أن ما نود التأكيد عليه هو: أنها قطعاً ليست «الإنجيل الذي عرضه يسوع في المعبد اليهودي» وبالتالي فلا يمكنها أن تكون «رسالة تحرير لكافة شعوب العالم» كما يقول نيافة البابا!

الكاثوليكية: تشهد الوقائع التاريخية المعاشة بأن ما قام به التيار العابث المتعصب في الكاثوليكية هو الذي أدي إلى الخلافات العقيدية الجذرية بين الكنائس، وإلي انقسامها إلى مذاهب متباينة متناحرة. وقد قام نفس هذا التيار العابث بفرض عبارة «هرطقة» على كافة هذه المذاهب المسيحية المنشقة عليه، بل وعلى الديانات الأخرى وبخاصة الإسلام الذي أتي كاشفًا، ومصوبًا لكل ما تم من تحريف أساسي في المسيحية، وجرفها بعيداً عن مسارها التوحيدي المنزل.

والتاريخ المعروف، المعاش يقول: إن رسالة التوحيد نزلت على موسى عليه السلام تشريعاً دنيويًا وأخرويًا، وإنه حينما انحرف اليهود عن مسارهم، أتي السيد المسيح عليه السلام، مصوباً لهذا الانحراف فحسب، فهو القائل: «ما جئت لأنقض الناموس وإنما جئت من أجل خراف إسرائيل الضالة».

لذلك أتت المسيحية خالية من أي تشريع ؛ لأنها استمرار لنفس الناموس التوحيدي السابق، ولم تتضمن سوي توجيهات إنسانية لتلك «الخراف الضالة».

وحينما أصرت هذه «الخراف» على انحرافها وضلالها وتمادت فيه وفي تحريف

رسالة التوحيد وشرائعها، أتي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام مصوبًّا لما ألم بالرسالة، وأنزل الله سبحانه وتعالي القرآن؛ تشريعاً، دنيويًّا وأخرويًّا؛ لكل زمان ومكان ذلك لأنه يتضمن أكثر من خمسمائة حكم من الأحكام المطلقة.

والحكم المطلق هو الذي يمكن القياس عليه مجرداً، في أي زمان وفي أي مكان فكيف يطالعنا البابا زاعماً «سيادة المسيحية على كافة الديانات» وكيف يجاهر بسيادة الكاثوليكية التي يترأسها ويسعي لتنصير العالم وفقاً لها؟!

يسوع: تقوم المسيحية الحالية على اعتبار أن الله عز وجل هو السيد المسيح، وهو نفس ما يواصل البابا على تأكيده، بل يصل به التعنت إلى درجة اعتبار «أن السيد المسيح هو تحقيق لتطلع كافة ديانات العالم وهو نهاية مطافها الوحيد والنهائي» كما يقول في خطابه الأخير موضوع هذا البحث.

ولا يسع المجال هنا، لعرض كافة الوثائق الدالة على أن السيد المسيح عليه السلام كان نبياً من أنبياء الله المرسلين وبخاصة مخطوطات قمران، أو البحْر الميت المكتشفة عام (١٩٤٨م) ولن نستشهد بآيات القرآن الكريم، التي تؤكد ذلك، وإنما سنكتفي ببعض كلمات السيد المسيح نفسه كما هي واردة في الأناجيل الرسمية المتداولة حالياً، حيث نراه يفرق بوضوح لا لبس فيه بينه وبين الله سبحانه وتعالي:

«...فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد» (مرقس ١٢: ٢٩).

«..... لماذا يدعوني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله» (متى ١٦: ١٩).

«......اذهبي إلى إخوتي، وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (يوحنا ٢٠: ١٧).

«....قلت: أمضي إلى الأب، لأن أبي أعظم منى» (يوحنا ١٤: ٢٨).

«....لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (متى ٤: ١٠).

«...ولا تدعوا لكم أباً على الأرض، لأن أباكم واحد الذي في السماوات)، (متى ٢٣: ٩).

«....أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يوحنا ٨: ٤٠).

«...والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للأب الذي أرسلني» (يوحنا١٤: ٢٤).

كما أن هناك آيات للحواريين تدل بها لا يدع مجالاً للشك بأن السيد المسيح عليه السلام كان نبيًّا من الأنبياء، ومنها:

«...هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» (متى ١١: ٢١).

«قد قام فينا نبي عظيم» (لوقا ٧: ١٦).

«....إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم» يوحنا ٦: ١٤).

«يسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعوب» (لوقا ٢٤: ١٩)

وهنا لا يسعنا إلا أن نتساءل أيهما نصدق: السيد المسيح الذي تحدث بوضوح لا لبس فيه، أم نيافة البابا الذي يواصل عملية فرض ما تم نسجه على مر الأيام، لاستبعاد النبوة عن سيدنا محمد عليه السلام ومواصلة محاولة اقتلاع الإسلام التي بدأت منذ بداية انتشاره؟!

المنظور التوحيدي: تعد عملية توحيد الكنائس، تحت لواء كاثوليكية روما، من الملامح التي يتمسك بها محركو هذا التيار، منذ استيلائهم على السلطة في القرون الأولي للمسيحية، غير أنه أصبح من القرارات الأساسية للكنيسة، منذ المجمع

المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢- ١٩٦٥م) ذلك المجمع الذي قرر رفع عبارة «هرطقة» عن الكنائس الأخرى واعتبارها كنائس لإخوة منشقين« كما قام بإطلاق عبارة «الإخوة السابقين إلى الإيمان» على اليهود بعد تبرئتهم من دم السيد المسيح، كما يقولون، وبعد أن ظلت الكنائس تردد ذلك في كل قداس من أيام الأحد على مدي ألفي عام تقريباً. وتمت المصالحة الشكلية السياسية، إذ إن المصالحة العقيدية - والمفروض أنها الأساس - متوقفة على اعتراف اليهود بالسيد المسيح إلهاً. الأمر الذي يرفضه اليهود جهاراً إذ إنه يعني تنصير كافة يهود العالم بكلمة واحدة!!

فكيف يتغاضي نيافة البابا يوحنا بولس الثاني عن كل هذه الحقائق المعاشة، ويصر على «إخراس» أو «تهميش» كل هذه الخلافات العقيدية الجذرية بين المذاهب المسيحية بعضها بعضاً وبين المسيحية واليهودية، إلى جانب إصراره على إلغاء وجود الإسلام والديانات العالمية الأخرى لتوحيد شعوب العالم تحت لواء الكاثوليكية التي يترأسها؟!

الانقسامات: إن الانقسامات التي أشار إليها البابا على أنها «تمثل فضيحة في نظر العالم» لا تمثل مجرد خلافات يمكن دمجها تحت عبارة شاملة واحدة، وإنما هي تصدعات عميقة ألمت بذلك البنيان القائم على التحريف؛ وهي تصدعات ناتجة اختصاراً لنفس الشكل الحالي للعقيدة والثالوث الذي لم يعد مقنعاً للأتباع الأمر الذي دفع الكنيسة الهولندية - وهي الكاثوليكية أيضاً - إلى إصدار كتاب للتعليم الديني عام (١٩٦٦م) غير ذلك الذي كان سائداً منذ القرن السادس عشر، لم تورد به ذكر عقيدة الإيمان ولا عبارة الثالوث فقام البابا يوحنا بولس الثاني بإصدار كتاب جديد للتعليم الديني، في أواخر شهر ديسمبر عام (١٩٩٢م) يؤكد فيه تمسك الفاتيكان بموقفه وإصراره على إبقاء العقيدة كما تم نسجها بدءاً بتأليه السيد المسيح

في مجمع نيقيه الأول عام (٣٢٥) ميلادية وكل ما ترتب عليه من إضافات وتبديل.

ولا يسع المجال هنا لتناول مختلف موضوعات الانقسامات والتي دفعت بالآلاف من رجال الإكليروس إلى الابتعاد عن الكنيسة وتحكماتها القمعية، وقد أثر العديد منهم مواصلة صلواتهم بعيداً عن قبضتها، حتى أصبح اليوم في الغرب ما يطلق عليه «الكنائس المنزلية».

وكل هذا الموقف برمته لا يمثل فضيحة في نظر العالم، وإنما هو تعصب أكمه أصم لا يري ولا يسمع... أما الفضيحة الحقيقية، بكل ما تحمله من فجاج في الخروج على تعاليم الله سبحانه وتعالي هي مواصلة الإصرار بدأب، لا لفرض هذا التعصب على المسيحيين فحسب، وإنما على العالم بأسره!!

الاعتراف بالأخطاء: لا شك في أن الاعتراف بالحق فضيلة...وإن يطالب البابا الكنائس بإقرار ذنوبها والاعتراف بها، ويحث أبناءها على «التطهر من خلال الندم على الأخطاء والخيانات والتنافرات والتباطؤات» تعد من الفضائل التي تحسب له؛ غير أن ما يعنيه نيافته، هو أن تقوم الكنائس الأخرى بإقرار ذنوبها التي اقترفتها في حق الكنيسة الكاثوليكية، والأخطاء التي اقترفوها بالانشقاق عليها، والخيانات التي قاموا بها بالابتعاد عنها، أو النفور منها، وكشف خباياها، والتباطؤ الشديد في الرجوع إليها، إلى حصن الفاتيكان الأوحد والوحيد.

وهنا لا يسعنا إلا أن نطرح سؤالاً: أليس من الأفضل والأكرم للجميع، أن تبدأ الكنيسة الأم بضرب المثل، القدوة على «الأمانة والشجاعة» التي تطالب بها الكنائس الأخرى، وتعترف بكل ما قامت به الأيادي العابثة المتعصبة على مر التاريخ؟! أليس من الأفضل والأكرم، لنيافة البابا الذي يتغني بالحقيقة وبروعتها، أن يبدأ هو بتطبيق معاييرها، والاعتراف بكل ما أدي إلى حيود المسيحية الحقة عن مصادرها المنزل، وعن

رسالتها التوحيدية التي لا تعبد إلا الله وحده لا شريك له، كما قال عيسى ابن مريم وكما نص القرآن؟! أليست الحقيقة أروع وأصدق من التمسك بقرارات مجمع الفاتيكان الثاني الهجومية المتعصبة على التحريف والتزييف؟

مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢ – ١٩٦٥م): اتسم هذا المجمع بأنه أول مجمع هجومي في تاريخ المجامع، إذ إن المجامع المسكونية السابقة كانت تقام لتثبيت تحريف جديد أو للدفاع عنه، وقد صدرت عن هذا المجمع الفاتيكاني الثاني، قرارات لا سابق لها في التاريخ الكنسي بأسره، ومنها: توحيد كافة الكنائس تحت لواء كاثوليكية روما؛ واعتبار المسيحيين شعب الله المختار – بدلاً من اليهود – بناء على العهد الجديد الذي أقامه بولس الرسول؛ وأن المسيح فادى العالم بأسره، وليس فردياً لاتباع المسيحية وحدهم، كما كانوا يقولون من قبل، وفرض قسم محاربة الحداثة على كافة رجال الإكليروس، أي عدم السماح لهم بمساس النصوص الإنجيلية والإبقاء على كل ما تم بها من تغيير وتحريف؛ وتبرأة اليهود من دم المسيح (كما يقولون) وهي تبرأة سياسية بحتة لتوحيد الجبهة ضد الإسلام واستتباب الوضع في فلسطين المحتلة لتأكيد غرض الكيان الصهيوني، وذلك رغم كل ما هو وارد ضد اليهود في العهد الجديد من الإنجيل، حتى إن بعض الآيات أصبح من المحال قراءتها في أي قداس لتناقضها مع ما اقترفوه سياسياً بهذا الاعتراف.

ومن قرارات المجمع أيضاً: توصيل الإنجيل إلى كافة البشر، استناداً إلى القرار السابق، والخاص بتعميم عملية الفداء التي لا أثر لها في الإنجيل والاستعانة بالمدنيين والعلمانيين في عمليات التبشير من خلال المنظمات غير الحكومية، إلى جانب مئات المنظمات التابعة للكنيسة مباشرة لتوصيل الإنجيل إلى العالم، وهو المقصود بعبارة «انفتاح الكنيسة على العالم» وإعادة تبشير مسيحي الكتلة الشرقية

وملحدي الغرب، بالإضافة إلى اقتلاع الديانات الأخرى وبخاصة الإسلام، الذي مازالت الكنيسة تصر على طمس الوثائق التي تثبت لديهم أنه أتي مصوباً ومكملاً للديانة التوحيدية التي تم تحريفها. الأمر الذي جعل البابا يستشهد بأية الفارقليط التي سنتناولها عقب هذه النقطة؛ كما نص المجمع على: أن تتم عمليات التبشير هذه واقتلاع الديانات الأخرى عن طريق الحوار بغية تجنب أية مصادمات، وهي أول مرة تستخدم فيها عبارة «الحوار» في المجال الكنسي؛ والاستعانة بكافة الكنائس المحلية لإتمام عملية تنصير العالم.

وهنا ندرك ما معني مطالبة البابا في خطابه الرسولي هذا «بتجديد الوعد بالتزام كل فرد وكل كنيسة بقوانين المجمع الفاتيكاني الثاني». كما ندرك ما قد تم فرضه على الكنائس المحلية الأمر الذي يعني: أن كافة المسلمين، أينما كانوا، وسواء أكانوا يمثلون أغلبية البلد الذي يعيشون فيه، أم هم أقلية فيه، فهم بلا شك خاضعون الآن لعملية تنصير «بصبر ودأب» على حد قول البابا في العديد من خطبه، وإن كانت تتم اعتماداً على التسلل البطئ وعدم المواجهة الصريحة.

ولا يسعنا هنا إلا أن نسأل نيافة البابا عن الصدق والأمانة في الحوار المزعوم والذي يعني «تنصير العالم» كما قالها بصريح العبارة في الخطاب الذي أشار إليه!.

الفارقليط: يستخدم البابا عبارة «الفارقليط» الواردة في إنجيل يوحنا أكثر من مرة بمعناها المحرف إلى «الروح القدس» فالكلمة أصلاً كانت Perikleitos وتعني «أحمد» وهي الواردة في إنجيل برنابا أيضاً والذي تم استبعاده، وقد تم تحريف الكلمة إلى Paraklytos لتعني «المعزي» أو «المواسي» لاستبعاد النبوة عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ونورد بهذا الصدد سوي عبارة الأسقف «بنيامين كلداني» الذي أسلم من جراء هذا التحريف قائلاً: «أتحدي بجسارة كافة الباحثين

الضالعين في اللغة اليونانية القديمة، أن يعارضوني عندما أعلن أن مترجمي النص السرياني واللاتيني، قاموا بأخطاء فادحة في ترجمتهم (محمد في الإنجيل، ص١٤٦) وهي صيغة مهذبة لكي لا يقول «قد تم تحريفها».

وقد كانت تكتب (فارقليط) بالعربية ثم تم تغييرها إلى معز أو مواس.

وإذا ما حاولنا اختصار كل ما تقدم من عرض لهذا الخطاب الرسولي، الأخير للبابا، والصادر يوم (١٤/ ١١/ ١٩٩٤م) إلى محاوره الأساسية لخرجنا بالنقاط الثلاث التالية:

١- غاية الاحتفال: تمجيد الثالوث وفرضه على العالم.

٢- مغزاه: إسقاط ديون العالم الثالث ثمنا لتنصيره.

٣- أهم حقلي عمل أمام الكنيسة في الفترة القادمة:

أ- المواجهة مع العلمانية.

ب- الحوار مع الديانات، وبخاصة الإسلام (والحوار في مفهوم البابا يعني التنصير)

وبعد هذا الوضوح الذي لا مواربة فيه، في هذه الخطة الخمسية للبابا بغية تنصير العالم، والقيام بجولة «لها مغزاها، كما يقول في اقتفاء أثر مؤسس المسيحية كما يراها «إبراهيم وموسي وعيسي» تبدأ من مصر وسيناء إلى القدس، في فلسطين المحتلة؛ وإصراره الغريب على مشاركة «اليهود وأتباع الإسلام» وقد عز على نيافته كتابة «المسلمين» مثلما كتب «اليهود» وكأنه لا يعتبر للمسلمين وجوداً. ألهذا الحد يصعب عليه أن يقول عنا: «الإخوة الذين عادوا بالتوحيد إلى مصادره»؟ ولا يسعنا إلا أن نقول لنيافة البابا: إننا كمسلمين نؤمن بعيسى ابن مريم عليه السلام نبيًّا من أنبياء

الله المرسلين: كما هو وارد بالقرآن وكما قال السيد المسيح عن نفسه.

وإننا لا نعاني من عقدة الخطيئة التي تفرض الكنيسة توارثها تبريراً لوجودها، فالقرآن يقول لنا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥] وبالتالي فلسنا بحاجة إلى من «يفدينا» أو يخلصنا من هذه الخطيئة كما يحرم علينا القرآن قبول فكرة التثليث، وما أكثر الآيات التي يقول الله فيها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]. ولسنا بحاجة إلى وسيط بيننا وبين الله عز وجل، فقد أمرنا الله سبحانه وتعالي أن نعبده وحده وأن نخلص له الدين، قال تعالي: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي ختام هذا العرض الموجز لمخطط مرير، رخيص، مهين رغم جرأته وتنسيقه؛ مخطط يرمي إلى فرض تنصير العالم في احتفال عالمي مهيب، عبارة عن قداس قرباني تمجيداً للثالوث.

فالمقصود من هذا التواجد هو «كسر الحاجز» الذي بين الديانات، كما يقول البابا، والذي يري أن ذلك قد تم بالفعل في الصلاة «الجماعية» التي دعي إليها من «أجل الإسلام العالمي» وأقيمت في بلدة أسيز بإيطاليا في (٢٧/ ١٠/ ١٩٨) وحضرها مندوبون من كافة المذاهب المسيحية، ومن كافة الديانات العالمية الأخرى، كما تم كسر نفس الحاجز في الصلاة «الجماعية» العالمية الثانية التي دعي إليها وأقيمت عام (١٩٩٣م) من أجل السلام في البوسنة!

وهنا لا يسعنا إلا أن نقول لنيافة البابا: إن السلام في البوسنة ليس بحاجة إلى «صلاة» وإنما بحاجة إلى قرار حاسم لا تخاذل فيه لوقف المذبحة «العرقية، الدينية»

الدائرة ضد الإسلام والمسلمين، كما لا يسعنا إلا أن نتوجه لكافة المسئولين المسلمين، أينما كانوا، أن يكفوا عن التواطؤ في هذه المسرحية الدائرة منذ قرابة ثلاث سنوات، نظن أنها كانت كافية لكشف «حسن النوايا» الغرب المسيحي المتعصب.

موقف الفاتيكان من الإسلام

١- يستشهد البابا بجزء من البند الثالث من البيان الختامي للمجمع، والمسمي «في زماننا ها» (٢٨/ ١٠/ ١٩٦٥م) وهو البند المتعلق «بالدين الإسلامي» وهذا البند مكون من فقرتين تقعان في تسعة عشر سطراً. وتتناول الفقرة الأولي: تحديد معني الإسلام، وتطالب الفقرة الثانية: بنسيان العداوات والسعي إلى الفهم المتبادل.

وقد استعان البابا بالجملة الأولي لهذا البند غير أنه لم يكملها، وتقول بقية الجملة: «والذي تحدث إلى البشر»...وحذف البابا لهذا الجزء من الجملة، قد لا يدل على شيء في نظر القارئ، غير لو ربطنا هذا الموقف بالظروف المحيطة بصياغة هذا البند أيام المجمع، وكان نيافته من الأعضاء المشاركين الأساسيين، إذ كان بدرجة أسقف وفي منتصف الأربعينيات من عمره تقريباً، لأدركنا الجانب الآخر من موقفه، ومعني ما قام بحذفه.

ونبدأ بما يتضمنه كتاب «فاتيكان اثنين» الصادر عام (١٩٦٦م) عقب انتهاء المجمع ببضعة أشهر، والذي يتضمن الجلسات التمهيدية، ومحاضرها، وكيفية صياغة البيانات، والتصويت عليها أي: إنه من الكتب – إن لم يكن الكتاب الرسمي الخاص ببعض كواليس ذلك المجمع.

والجزء الخاص بالدين الإسلامي بقلم الأب «كاسبار» ويقع في ست وثلاثين صحيفة (من ٢٠١ إلى ٢٢٦) ومما يدعو إلى السخرية، أن نطالع في بداية هذا

البحث: «أن المجمع لم يتعرض لمشكلة الإسلام ولا لمشكلة الديانات غير المسيحية بصفة عامة، إلا خلال دورته الثانية (١٩٦٢م) وبشكل عرضي وغير متوقع، أي إنه لم يكن في الحسبان بل لقد هاله صمت ممثلي الكنائس الشرقية، وعدم قيامهم بالإشارة إلى الإسلام في اجتماعاتهم وكأنهم لا يعيشون في تواجد متواصل مع الإسلام والمسلمين»!

وبدأ الأب كاسبار بتوضيح الحذر الشديد في تناول قضية الإسلام، وكيف أن الأساقفة المسؤولين عن التبشير، لا يتحدثون عنه إلا فيما ندر، لأنهم يعتبرون «أن الإسلام خطأ مطلق لابد من رفضه، لأنه يمثل خطراً بالنسبة للكنيسة، ولابد من محاربته» (ص٢٠٢) ولقد أثيرت قضية الإسلام لأن البطريارك «ماكسيموس» الرابع أوضح أنه لا يمكن أن يتحدث المجمع عن اليهود، دون أن يتناول الديانات الأخرى وخاصة الإسلام.

ويوضح الأب كاسبار كيف جاءت صياغة الفقرة الأولي من البند الخاص بالإسلام: «وأبناء إسماعيل ليسوا غرباء أيضاً على الرسالة التي نزلت على الآباء، لأنهم يعترفون بإبراهيم كأب لهم ويؤمنون أيضاً برب إبراهيم» (ص٢٠٣) ... وكان النص يتضمن هامشاً يوضح أن «أبناء إسماعيل» هم المسلمون.

وعلى الرغم من قصر النص الذي أشاروا به إلى الإسلام، إلا أن الأب كاسبار، يوضح كيف أنه قوبل باعتراض جامح من أغلبية الحاضرين عند التصويت. وذلك اعتراضاً على أن تعبير: «ليسوا غرباء على الرسالة التي نزلت على الآباء، لأنهم يعترفون بإبراهيم كأب لهم ويؤمنون أيضاً برب إبراهيم» (ص٢٠٣)... وكان النص يتضمن هامشاً يوضح أن «أبناء إسماعيل» هم المسلمون.

وعلى الرغم من قصر النص الذي أشاروا به إلى الإسلام، إلا أن الأب كاسبار،

يوضح كيف أنه قوبل باعتراض جامح من أغلبية الحاضرين عند التصويت. وذلك اعتراضاً على أن تعبير: «ليسوا غرباء على الرسالة التي نزلت على الآباء» قد يفهم منها حل للمسائل الصعبة التي دار حولها الجدل طويلاً من قبل، أي: أن سلالة العرب من إسماعيل، وخاصة ربط الإسلام بالرسالة الإنجيلية، ولكي لا يبدو وكأن الله قد خاطبهم أيضاً» (ص٢٠٥).

وتم تعديل النص لاستبعاد الإشارة إلى أن العرب من سلالة إسماعيل، الابن البكر لإبراهيم، وبالتالي استبعاد قرابتهم السلفية لإبراهيم وللمسيحيين أصلاً، أو أنهم أبناء عمومة، واعترض البعض ثانية وأعيدت صياغة النص للمرة الثالثة بكل التحايلات الممكنة للحفاظ على ما فرضه معقل التعصب.

ويقول كاسبار عن التعديل الأخير: إنه يضع سيدنا إبراهيم «في موضع النموذج الذي يحتذي به المسلمون في إيمانهم لخضوعه لرغبة الله، ولا يضعه في أصل سلالتهم، ولا في موضع جدهم الأول، على عكس الصياغة الأولي، التي كانت تبدو تأكيداً لانحدار العرب من ابنه البكر المفدي «إسماعيل» وتأكيداً لشخصيته كما وصفها القرآن» (ص٢٠٢).

ويعلق الأب «ميشيل لولنج» على الصياغة الأخيرة قائلاً: «وهذه الأسطر الخاصة بالإسلام قد تبدو جد قليلة، بين النصوص المتعددة التي أقرها المجمع الفاتيكاني الثاني. لكن إذا ما قارناها بما كان عليه موقف المسيحية تجاه عقيدة المسلمين، ومجتمعاتهم طوال عدة قرون، لأدركنا أهمية هذه الوثيقة الرسمية ومدي الآفاق التي تفتحها بالنسبة للمستقبل»، «الكنيسة الكاثوليكية والإسلام» (١٩٩٣م، ص٢٨) وهو استشهاد لا ينتقد «بأدب» قصر نص البيان، وإنما يشير أيضاً إلى ما كان عليه موقف المسيحية من الإسلام والمسلمين طوال عدة قرون.

ولم نورد ما تقدم إلا لتوضيح أن معقل الفاتيكان، وكواليسه يعلم تماماً معني الإسلام وموقعه بالنسبة للمسيحية واليهودية، وموقفه منهما، وكيف أنه التنزيل المكمل للرسالة التوحيدية، وقد أتي مصوباً لما اقترف من تحريف ولا يدل حذف البابا يوحنا بولس الثاني لنهاية الجملة الأولي في استشهاده، إلا على مدي تعصبه، وإصراره على استبعاد حتى أن الله قد خاطب المسلمين أيضاً... وأنه قد خاطبهم بالطبع بالوحي إلى سيدنا محمد ﷺ، والذي يواصل البابا محاولة محو اسمه، أو تحريفه، كما سنري عما قليل.

٢- اختلاق البابا للمواقف

تكشف هذه الفقرة عن كيفية اختلاق البابا للمواقف، بغية الزج بعبارات تفي بغرضه.

فما العلاقة بين جماعة تشاهد، أو تتأمل رسومات جدارية، وعبارة «لا يوجد هنا أي شيء يصل إلى جمال ديننا التوحيدي المسلم»؟!

أولاً: إن صياغة نيافته للعبارة خطأ فما من مسلم يقول: «ديننا التوحيدي المسلم» وإنما نقول:« الإسلام» لأن الإسلام لفظ مطلق شامل، قائم على التوحيد المطلق. ولم يزج البابا بهذه العبارة في رده إلا ليبرز: «شعوره المسبق بما سيكون عليه ذلك الحوار بين المسيحية والإسلام» في الوقت الذي يقول فيه – قبل هذه العبارة ببضعة أسطر. إن ذلك الحدث وقع له «أيام شبابه»، أي عندما كان في العشرينيات من عمره، ولم تكن فكرة المجمع في الآفاق بعد، بل لم يكن نيافته قد دخل السلك الكنسي بعد!! ففي أيام المجمع كان في منتصف الأربعينيات، لأنه حالياً عند تأليف الكتاب، في الخامسة والسبعين من عمره.

ومن الواضح أنه لم يكتب هذه العبارة إلا لمحاولة الزج بتأكيده على فكرة

تعصب المسلمين وتعنتهم، وإن كان في واقع الأمر، قد قام بعملية إسقاط لتعصبه الصلد ضد الإسلام والمسلمين.

عدم فهم القرآن

تتضمن هذه الفقرة النقاط الأساسية التالية:

١- «سباق الاختزال» للوحي الإلهي المسيحي في القرآن.

٢- صدمة القارئ لمدي «عدم فهم القرآن لما قاله الله عن نفسه». وهذا الذي قاله الله عن نفسه ينقسم إلى شقين:

أ- ما قاله في العهد القديم عن طريق الأنبياء.

ب- وما قاله «بصورة نهائية عن طريق ابنه» (كما يقولون).

٣- إن الإسلام قد ترك جانبا هذا الثراء الخاص بالكشف الذاتي لله، والذي يمثل تراث الإنجيل بعهديه.

وهي نقاط تعني: أولاً: التشكيك في مصداقية القرآن، لعدم تضمنه «الحقائق» التي نسجتها الأيادي العابثة على مر الزمان، وصدمة القارئ لمدي عدم فهم القرآن للرسالة التي أتت أولاً: عن طريق الأنبياء في العهد القديم، ثم بصورة نهائية عن طريق ابنه (كما يقولون)، أي ليست بعدة أية رسالات أخرى؛ إذ أنها تتوقف عند السيد المسيح.

ولا يتسع المجال هنا لنعرض على نيافة البابا، كل ما يثبت مصداقية القرآن آية بآية، فما من حرف إلا وهو عين الصدق المنزل. ولن نستشهد سوي بآية واحدة، يقول فيها الله سبحانه وتعالي: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر].

ولسنا بحاجة إلى إضافة: لولا يقين الكنيسة بمصداقية القرآن الكريم، وصدق

تنزيله على النبي الأمي عليه الصلاة والسلام - لما ظلت تستميت في محاولاتها الدؤوب لاقتلاعه على مدي أربعة عشر قرناً، بكل ما لديها من ترسانة مؤججة!!

وحقنا لكل هذا الجهد المنبت، ولكل ما يتضمنه من شر، ندعو البابا هنا إلى تأمل الآية ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ والحافظون هذه تعني صيغة اسم فاعل من فعل مستقبل مطلق وذلك هو ما تؤمن به أمة الإسلام؛ لذلك هي لا تقوم بالرد على هجوم التعصب بمثل ما يفعل، وإنما تدافع عن كيانها بما بقي لديها من إمكانيات، وهي: الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبكل حرف قاله.

ولا نود أن نضيف: ضرورة إطلاع البابا ما بخزائن وأقبية ودهاليز الأرشيف السري للفاتيكان الذي يرأسه، وليطالع ما يحتوي عليه من نصوص، تثبت الأباطيل التي يتزعمها ويقود الترويج لها، وهي نفس الدهاليز ونفس الأرشيف، الذي اكتشف فيها المجمع الشهير خطأ موقفهم بالنسبة لليهود، فسارعوا بتبرئتهم من دم المسيح، كما ظلوا يرددون على مدى ألفي عام.

وتكفي الإشارة إلى الحرص الشحيح، الذي تمت به صيغة بيان المجمع الخاص «بالدين الإسلامي» والذي أوضحنا شذرات منه منذ قليل وهو ما يكشف من ناحية: يقين معرفة الكنيسة بحقيقة الإسلام والقرآن، ويكشف من ناحية أخرى: دأبها الرخيص على طمس معالمه.

إن المرء ليصدم بالفعل، وياهول الصدمة !! لا من عدم مصداقية القرآن، وإنما من كل ذلك الإصرار اللحوح على طمس معالم الحق ونوره، وفرض التلاعب والتحريف وهو ما يمثل المأساة الحقيقية للكنيسة تلك المأساة القائمة على فرض وغرس التحريف قهراً وقمعاً وقتلاً فكل التاريخ الدامي لكنيسة التعصب، على مدى ألفي عام يشهد بذلك وليس المجال هنا للإشارة إلى ما قامت به من مجازر

لسحق كل من عارض- أو عارضوا تأليه السيد المسيح، أو مساواته هو والروح القدس بالإله عز وجل- الأمر الذي يدفع الأتباع إلى التباعد صمتاً- آثرين التسلل بعيداً بدلا من الوقوع تحت براثنها؛ وهو ما تطلق عليه مراجع الغرب: النزيف الصامت للكنيسة.

أما استخدام البابا لعبارة «بصورة نهائية عن طريق ابنه» فهي تتضمن من ناحية: الإصرار على كل ما فرضه التيار المتعصب في الكنيسة، من تحريف على حياة عيسى ابن مريم وتعاليمه، منذ أيام بولس؛ ومن ناحية أخرى: غلق باب النبوة دون سيدنا محمد ﷺ وجعل السيد المسيح خاتم الأنبياء، و«الوسيط الوحيد بين الله والبشر» والذي «لا خلاص لأحد إلا من خلاله»!

نعم إن القرآن يخلو من كل ذلك التراث القائم على التلاعب بالنصوص في الإنجيل بعهديه، وأمرنا باحترام التنزيل السابق، والإيمان بكل من أرسلهم من رسل وأنبياء.

وليس المطلوب من أحد أن يغير دينه ، وإنما المطلوب هو أن نعبد الله، ونخلص له الدين وألا نشرك به أحداً.

قال تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة:٤٧] وليس بما تم فيه من تحريف وإضافات وتعديلات، مازالت تتم الأمر الذي لم يعد من الممكن إخفاؤه بعد كل ما كتبه الأمناء من رجال الكنيسة، على الأقل لكي لا نذكر سوى الأب «لوازي» والأب «رودلف بولتمان» أو الأب «درويرمان».

افتقار البابا للآداب العامة

٤- يتناول البابا هنا، وبأسلوب يفتقر إلى أبجدية الآداب العامة، وبإصرار غريب، فيشير إلى الفرق بين الله القرآني، وكأنه قاصر على القرآن فحسب، أو أنه من

ابتداعه، والذي يظل بعيداً عنا، فهو مجرد لفظ لا قيمة ولا مضمون له، رغم كل ما يطلق عليه من أسماء حسنى!! وليغفر ولا عجب فإنه لا لوم على فاقد البصر والبصيرة.

وقد يكون للبابا عذره في عدم فهم القرآن باللغات الأجنبية، التي ترجمت معانيه بتحريف قائم على توجيهات الكنيسة، غير أنه نظراً للمكانة التي يتبوأها نيافته، والألقاب التسعة التي يحمل أمانة رئاستها وقيادتها، ومسؤولياته حيال الملايين، التي يقودها إلى التعتيم والضلال، تحتم عليه- ولو من باب العلم بالشيء- أن يلجأ إلى أحد أساقفته، الذين يجيدون العربية، ليقرأ له القرآن في لغته العربية المنزلة!

إن الإسلام دين شديد الوضوح والبساطة، لا حاجة به للقمع والقهر لفرض تعاليمه على الأذهان إنه دين قائم على الإيمان بالله وحده، خالق الكون، سيده ومدبر شئون ملكوته، والإنسان مجرد مخلوق في هذا الكون، الذي تم تسخير ما في سمواته وأرضه من أجله؛ أي إن سيادة الكون لله وحده لا شريك له، والإنسان مجرد سيد في هذا الكون، وليس سيداً له؛ وكافة آيات التوحيد تشير إلى التوحيد المطلق ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

وبذلك، فالإسلام -قطعاً- ليس دين فداء؛ لأنه لا يقر بدعة الفداء هذه، وبالتالي فهو لا يعطي أية مساحة للصلب ولا للبعث -بالمفهوم المسيحي-؛ لأنها أسطورة منسوجة من أجل التحكم في الأتباع؛ ولذلك أيضا يقوم الإسلام على الحاكمية المطلقة لله سبحانه وتعالى، ويلغي طبقة رجال الكهنوت، ولا يقر وجودها، وهو ما حاولت الثورة الفرنسية أن تقوم به في أواخر القرن الثامن عشر الأمر الذي مازالت الكنيسة تحاول اقتلاع آثاره من ضمن ما تحاول من أعمال.

فالقول بأن الله -عز وجل- مجرد لفظة جلاله لا تعني شيئاً، والقطع بأنه ليس

معنى، وإنما هو غريب بعيد عنا، لدليل -في نظرنا- على قمة الكفر بمطلق وجود الله، وبمطلق سيادته للكون، ولن نكف عن تكرار أنه ليس المطلوب من أحد أن يغير دينه، وإنما المطلوب هو العودة بالمسيحية إلى أصولها المنزلة لتستقيم الأمور.

وهنا لابد من الإشارة إلى ألوهية المسيح، التي أقحمها يوحنا في إنجيله، أو تم إقحامها فيه، غير واردة في الأناجيل المعتمدة الأخرى، ولا نعتقد أن هذا الموضوع الذي تقوم عليه المسيحية الحالية، من البساطة حتى لا تشير إليه الأناجيل الأخرى.

وليس المجال هنا لعرض بقية الاختلافات، ومنها ما يتعلق باللحظات الأخيرة ليسوع: فكل إنجيل يتناولها بطريقة تخالف الأخرى، إن لم تكن تناقضها، وفترة بقائه على الصليب -كما يقال- أو فترة ما بعد الوفاة؛ وخاصة ذلك المشهد المسرحي الذي ينفرد به إنجيل متى، وهو مشهد لا يمكن لمخلوق أن يغفله لهوله فالأرض التي تنشق، والقبور التي تتفتح، والأجساد التي تخرج، وتتجول بأكفانها في المدينة (متى ٢٧: ٥١،٥٣) ليست بالمشهد الذي يمكن لأحد أن يسقطه من إنجيله!

بل حتى الصرخة التي يقال إن يسوع أطلقها اختلفوا في نصها، واختلف المؤرخون في تفسيرها، وكذلك مكان ضربة الحربة في صدره، ومدة بقائه مدفوناً، بل حتى النص، الذي تم وضعه على لسانه، والذي يحدد هذه المدة بثلاثة أيام (متى ١٢:٤٠) في حين أنه لم يبق سوى ليلة واحدة بحساب الأحداث والأيام، وحتى الكفن اختلفوا فيه: فمن قائل: ملاءة، ومن قائل شرائط أو لفائف.... إلخ، ولم نشر إلى هذه الشذرات إلا لتوضيح أنها برمتها مجرد إضافات وتعديلات، تمت وفقاً لمقتضيات الساعة.

ولا يتسع المجال هنا لتناول كافة المراجع القديمة والحديثة، التي تشير بالوثائق إلى هذا العبث، ولا نذكر سوى «جيرالد ميساديه» الذي أوضح كتابه بالأدلة

والبراهين أن: السيد المسيح لم يمت مصلوباً ولم يتم تكفينه. كما يؤكد الباحث: «إن المنبع الأصلي الذي يشار إليه بحرف (Q) اختصاراً لكلمة (Quelle) وتعني المنبع، أي: النص الذي أخذت عنه الأناجيل الأربعة لا يتضمن شيئاً عن آلام يسوع «الرجل الذي أصبح الله» (ج٢ صفحة٢٥٦).... أي إنها أضيفت فيما بعد.

نعم إن القرآن الكريم لم يذكر يسوع إلا كنبي من الأنبياء، وهو ما قاله السيد المسيح عن نفسه في أكثر من آية، ومنها: «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (متى ٤:١). «.... أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يوحنا: ٨:٤). «..... والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للأب الذي أرسلني» (يوحنا ١٤:٢٤). وذلك بخلاف الآيات الصادرة عن الحواريين، وتدل على أنه نبي من الأنبياء، وليس بإله!.

ولا دليل على تورط البابا وفقدانه الموضوعية وانخراطه في غياهب التعصب، من الإصرار على استخدام لفظة «ما أوميه» للدلالة على سيدنا محمد ﷺ وهو ما دأب الغرب المسيحي على استخدامه لكي لا يستقر اسمه الكريم ﷺ في الأذهان فمن قائل ما فوميه، وبافويه، وماتوموس، وماكوميتس، وماكومتو، لينتهي بهم الأمر إلى لفظه «ماأوميه» التي نسجها التعصب الفرنسي، ويستخدمها البابا في أكثر من موضوع في كتابه الأخير موضوع هذا البحث، وكأنه يواصل «مباركة» ما يقومون به من تحريف بدلاً من تصويبه ومن الداعي إلى السخرية أن نراهم يجيدون كتابة اسم محمد، كما ينطق تماماً إذا ما كان يتعلق بشخص آخر سوى خاتم المرسلين.

أما فيما يتعلق بالسيدة مريم، فمن الإجحاف المضلل أن نقرأ في إجابة البابا: «ومريم أيضاً، الأم العذراء قد ورد ذكرها»! ويكفي المسلمين فخراً، أن القرآن كان أول من كرم السيدة مريم العذراء، بأن نفي عنها فريات اليهود، التي مازالوا

يقرونها، ولم يتوبوا عنها؛ نعم يكفينا فخراً أن الله سبحانه وتعالى قال عنها: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم]، كما قال تعالى عنها: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] أي أن الله - سبحانه وتعالى- قد دافع عنها من اتهامات اليهود لها بالزنا والحمل سفاحاً، وأشار إلى إيمانها وتصديقها لقول الله وكتبه، وإلى إيمانها وتعبدها؛ كما أوضح الله عز وجل أنه قد اصطفاها أي: اختارها من الصفوة مرتين: اختارها لشرفها وعباداتها، واختار لها لجلالها بأن جعلها خير وأفضل نساء العالمين ذلك هو القرآن وما قاله، والذي قام نيافة البابا بطمسه في عبارة «ذكرها أيضاً»!!

ويكفي المسلمين فخراً، مرة أخرى، بأن القرآن الكريم قد كرم السيدة مريم، أشرف نساء العالمين، قبل الكنيسة نفسها، والتي لم تهتم بتكريمها إلا لأغراضها السياسية، أو لدرء نتوءات يفرضها التحريف والتلاعب؛ فالمسيح -إلها- لا يليق أن تظل أمه مرتبطة بالخطيئة الأولى؛ فيتم تأليهها واختلاق حمل أمها بها حملاً إلهياً.

وهنا لا يسعنا إلا أن نسأل البابا «ممثل يسوع المسيح على الأرض، والمتحدث باسمه» أليس من الواجب أيضاً استبعاد مولد نيافته عن وصمة الخطيئة الأولى، وإشراكه رسمياً في قاموس الألوهية؟! حتى وإن كان ذلك سيتطلب إضفاء نفس السمات على الكرادلة المعاونين له، والذي أضفى عليهم مشاركته في السلطة الإلهية المسندة إليه!.

ولم نكتب ذلك مزاحاً، وإنما لتوضيح أن كل تحريف يتطلب سلسلة أخرى من التحريف... وهكذا... إلى ما لا نهاية.

أما إشارة البابا إلى أن «علم اللاهوت» في الإسلام يختلف تماماً عن اللاهوت

المسيحي، فلا نود تكرار القول: إنه حتى في هذا المجال قد خانته المعلومات العامة!.. فلا يوجد علم لاهوت في الإسلام، لأن الإسلام لا يقر وجود طبقة الكهنة، المبتعدة للاهوت، والمتحكمة في الأتباع من خلال غياهبه؛ وإنما يوجد علم «أصول الدين» الذي يطلق عليه أيضاً علم الكلام، أو العقيدة، أو التوحيد، أو الفقه الأكبر.... وهو ليس بلاهوت على الإطلاق، أي: إنه ليس حكراً على طبقة بعينها فحسب، وإنما يمكن لكل مسلم أن يقدم على دراسة هذا العلم، والتعمق فيه إلى ما شاء الله.

ونفس الشيء بالنسبة لما يطلق عليه البابا «علم الإناسة» الذي يختلف تماماً في القرآن عن «علم الإناسة» في اللاهوت المسيحي إن عظمة القرآن تكمن في أنه يتناول سير الأشخاص الذين يتحدث عنهم، سواء أكانوا من الأنبياء والرسل، أم من الملوك والعامة، يتناولهم من الجانب المطلق المجرد الرامز إلى ما يميزهم -بالنسبة لحدث ما- والذي لا يمكن اختصاره إلى أقل من ذلك وإلا فقد معناه، بينما العلم في الأناجيل قائم أو مرتبط بالتعديل، والتبديل، ومقتضيات الظروف السياسية أو الصراعية ومتطلباتها وهو ما لا يعرفه القرآن، ولله الحمد.

المسيحية بين التبديل والتغيير

٥- وهنا أيضاً، يؤسفنا أن نبدأ بالإشارة إلى المستوى الضحل لمعلومات البابا العامة، وإلى الاستهتار الساخر الذي يتحدث به عن المسلمين، وعن إخلاصهم للصلاة: إن عبارتي «دون أي اكتراث لا بالزمان ولا بالمكان» إن من يطلق على الإله «الله» يسقط على ركبتيه، ويستغرق في الصلاة عدة مرات في اليوم لتكشف الكثير - لا جهلاً بأبسط مبادئ الإسلام فحسب، وإنما بأبسط مبادئ الذوق في التحدث عن الآخرين!

إن عدد الصلوات الخمس وتوقيتها من أبجدية المعلومات العامة عن الإسلام، فأن يجهل البابا أنها تؤدي في زمان محدد ووفقاً لعدد محدد، فذلك جهل لا يضير إلا صاحبه .

والمسلم لا «يسقط» على ركبتيه، وإنما يركع، ويسجد له وحده، مثلما كانت الصلاة قديماً ركوعاً وسجوداً لله وحده الذي لا شريك لهن وذلك حتى أيام السيد المسيح عليه السلام.

فقد كان أيضاً يصلي ساجداً لله وحده، وهو ما نطالعه في العهد الجديد، إلى أن قامت الكنيسة «بتعديل» ذلك أيضاً.

أما أن يشعر البابا بالحسرة على «هؤلاء المسيحيون الذين يهجرون كاتدرائيتهم الرائعة، وقليلا جداً ما يصلون أو قد لا يصلون بتاتاً»..... فلا يسعنا إلا أن نؤكد لنيافته أن ذلك هو حصاد ما زرعه التعصب، والتحريف الكنسي على مر العصور فالإيمان لا يتواجد في القلب بناء على روعة الكاتدرائيات، وبذخ ما تحتوي عليه من نفائس ومجوهرات، ولا بما يفرض قهراً بعيداً عن المنطق دون مناقشة، وإنما يوجد الإيمان في قلب الإنسان اقتناعاً بما يعرض عليه.... والإسلام يتميز بالبساطة والوضوح، وذلك هو سر بقائه وانتشاره... فأبسط ما يمكن أن يعرف به الإسلام، حديث الرسول ﷺ «قل: لا إله إلا الله ، ثم استقم» أي: التوحيد المطلق بالله، والاستقامة في كل شيء.

أما المسيحية الحالية فهي قائمة على التبديل والتغيير ورتق كل ما ينجم من تهتكات، لا يقبلها العقل، مما أدى إلى عقيدة متناقضة المنطق والتركيب؛ وإلا لما اضطرت الكنيسة الهولندية إلى إصدار كتاب تعليم ديني جديد، عام(١٩٩٦) يخلو من ذكر تركيبة التثليث، وما إلى ذلك؛ لعدم استطاعة رجال الكهنوت هناك مواجهة الأتباع، أو الرد على أسئلتهم المحرجة الأمر الذي أدى البابا يوحنا بولس

الثاني إلى إصدار كتاب التعليم الديني الجديد الذي سبقت الإشارة إليه...

محاولة تنصير الإسلام

٧- لقد تمخض المجتمع الفاتيكاني الثاني عن عدة قرارات، لا سابق لها في التاريخ ولا يسع المجال لتناولها بالتفصيل ، وإنما سنعرض للنقاط الرئيسية التي تمس هذه الفقرة من رد البابا على السؤال الخاص بالإسلام، ويكفي أن نشير بداية إلى الصفة التي أصبح يشار بها إلى ذلك المجمع على الصعيد العالمي، وهي: أنه أول مجمع هجومي في التاريخ على كافة المستويات؛ ذلك أن من أهم قراراته:

- العمل على إسقاط الشيوعية وإحياء الكنيسة الأورثوذكسية بدلا عنها.

- اختلاق العام المريمي وظهورها عدة مرات لتهيئة الجو.

- تبرأة اليهود من دم المسيح كما يقولون، واعتبار المسيحيين هم شعب الله، حالياً!

- توصيل الإنجيل لكافة البشر، أي : العمل على تنصير العالم.

- إقرار الحوار مع الديانات غير المسيحية وبخاصة الإسلام لتنصيرهم.

- التأكيد على معصومية البابا من الخطأ وإضفاء سلطاته الكهنوتية على مجموعة من الكرادلة الذين يلونه كمعاونين له ولا نفهم كيف يكون البابا هو «المنتخب إلهياً» لتمثيل المسيح، والتحدث باسمه، ثم يقوم بتوزيع هذه السلطات الكهنوتية الإلهية المتفردة على طاقم من المساعدين؟!!

كما قام المجمع بإقرار: أن عملية الفداء قد تمت من أجل خلاص كافة البشر لتبرير عملية تنصير العالم؛ وهو ما يدفعنا إلى التساؤل حول هذا التناقض؛ لكي لا نستخدم عبارة أخرى؛ فكيف يخططون لتنصير العالم، ويقومون باتخاذ الإجراءات

اللازمة لذلك، ومنه فرض استخدام الكنائس المحلية في عملية التنصير هذه، ومضاعفة إرساليات التبشير، وإنشاء «السينودس» ويعني: «المجلس الدائم لأساقفة الكنيسة العالمية» والذي تتلخص مهمته في إعلام وإرشاد مقر العمليات العالمي، الخاضع لرئاسة البابا إلى جانب عقد المجامع الأسقفية الخاصة بالتبشير والإرساليات في مختلف أنحاء العالم كيف يتم ترتيب وممارسة كل ذلك ثم يتحدثون عن «احترام» الديانات الأخرى وإجراء «الحوار» معها!.... غير أننا لو عرفنا معنى «الحوار» في المجال الكنسي البابوي لبطل العجب.

فالحوار يعني كما ورد في الخطاب الرسولي للبابا المعنون بـ: «رسالة الفادي» التي يؤكد طوالها، كيف أن عملية فداء المسيح قد تمت من أجل كافة البشر: «إن الحوار يمثل جزءاً من رسالة الكنيسة التبشيرية» ويرى نيافته أن الإسلام: «من الديانات التي تحتوي على شوائب وأخطاء» مؤكداً «أن الخلاص يأتي من المسيح، وأن الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل» كما ينص هذا الخطاب على تضافر الغرس الثقافي، والتبشير ومواكبتها من خلال الحوار.

فالحوار، في المفهوم الكنسي مجرد ذريعة لكسب الوقت بغية التسلل، وإتمام عملية الغرس التبشيري، والثقافي بلا مقاومة تذكر؛ أو كما يقول البابا في ذلك الخطاب نفسه:

«إن الكنيسة تستعمل الحوار، لكي تحسن حمل الناس على الارتداد والتوبة عن طريق تجديد ضميرهم، وحياتهم تجديداً عميقاً، في ضوء سر الفداء والخلاص، إن الحوار الصحيح يرمي –إذن بادئ ذي بدء– إلى تجديد كل الناس بالارتداد الباطني والتوبة مع احترام كل الضمائر».

ولا يفوت البابا أن يوضح كيف «أن الكرسي الرسولي يسعى إلى التدخل لدى

حكام الشعوب والمسؤولين عن مختلف المحافل الدولية، أو الانضمام إليهم بمحاورتهم أو إخضاعهم على الحوار لمصلحة المصالحة وسط صراعات عديدة».

ويختتم البابا هذا العرض لمفهوم الحوار عنده بتوضيح أنه «لا يمكن أن ينطلق أبداً من موقف لا مبالاة تجاه الحقيقة، لكنه بالأحرى يقوم بعرض هذه الحقيقة بهدوء، ونفس طيبة تحترم أفهام الآخرين وضمائرهم... وحقيقة الإنجيل- هذه ترمي إلى الارتداد الخاطئ والاتحاد بالسيد المسيح!.

وبما أن الإسلام يمثل «خطأ مطلقاً لابد من رفضه؛ لأنه يمثل خطراً بالنسبة للكنيسة، ولابد من محاربته« (فاتيكان اثنين صفحة ٢٠٢) فذلك يعني أن كل المسلمين خطاء، عليهم الارتداد عن خطأهم المطلق، والاتحاد بالسيد المسيح!.

الحوار في مفهوم البابا

يوضح ما تقدم معنى الحوار في مفهوم البابا، ولا نجد هذا الشرح في «رسالة الفادي»، فحسب تلك الرسالة التي يؤكد فيها «التزام الكنيسة بالحوار يظل صلبا، ولا رجعة فيه» (البند ٥٤)، وإنما تجد تنويعات مختلفة ، وبدرجات تتفاوت، من مجرد التفسير العابر إلى تكريس رسالة بأسرها عن الحوار، كتلك التي تسمى «الحوار والتبشير» (١٩٩١م). فما يدور حاليا عملية غرس استيطاني تطبيعي ديني، غرس قائم على إيقاع متتابع، تحت مسمى السلام، بغية كسر الحواجز النفسية، التي تقف حائلا في أي عملية تطبيع.

والغرس التبشيري من العبارات الجديدة التي تم إدخالها في المجال الكنسي حديثا، وتعني: «غرس البشارة في الأرض الثقافية لمنطقة ما».

يوضح البابا يوحنا بولس الثاني معنى ذلك الغرس الثقافي في خطابه المعنون: «الرسل السلافيون» قائلا: «إن الغرس الثقافي يعني: تجسيد الإنجيل في الثقافات

المحلية، وفي نفس الوقت إدخال هذه الثقافات في حياة الكنيسة» أما في خطابه المعنون «الحوار والتبشير» فيقول عن هذا الغرس إنه يعني: «تجسيد التبشير في الثقافة، والتراث الروحي للذين تتوجه إليهم الكنيسة، حتى لا تكون الرسالة المبلغة إليهم مفهومة فحسب، وإنما بحيث تبدو، وكأنها إجابة على تطلعاتهم الدفينة، أي أنها حقا النبأ السعيد الذي ينتظرونه».

وهو ما يقصده نيافته عند توضيح، كيف أن لقاءات الصلاة الجماعية، التي يدعو إليها ممثلين من كافة الديانات التوحيدية، وغير التوحيدية؛ تتم «من منطلق هذا المنظور» أي: من منظور الحوار للإقناع «بحقيقة الإنجيل التي ترمي إلى ارتداد الخاطئ والاتحاد بالسيد المسيح.

وفيما يلي مثال لهذا التلاعب بالألفاظ والمعاني المتلفعة بعبارات السلام: ففي لقاء بلدة «أسيز» المنعقد في (٢٧/ ١٠/ ١٩٨٦م) قال نيافته: «إن حقيقة حضورنا إلى هنا لا يتضمن أية نية ترمي إلى البحث عن إجماع ديني بيننا، أو أن يؤدي إلى المفاوضات، حول معتقداتنا، كما لا يعني أيضا: أن الديانات يمكنها أن تتصالح على مستوى ارتباط مشترك في مشروع أرضي، يتعداها كلها ولا يعني أيضا: تنازلا للنسبية في مجال المعتقدات الدينية، لأن كل إنسان، يجب عليه أن يتبع بأمانة ضميره المستقيم، بهدف البحث عن الحقيقة والانصياع إليها» رسالة الكنيسة» مجلة فصلية (١٩٩٢، العدد ٩٦، ٩٧ صفحة ٢٧).

وفي نفس الصفحة، من نفس المجلة، وبعد عدة أسطر تطالع ما يلي:

قام البابا يوحنا بولس الثاني بالتعليق على لقاء أسيز» في خطابه يوم (٢٢/ ١٢/ ١٩٦٨م) الموجه إلى كرادلة، وأعضاء الإدارة البابوية.. وهذا الخطاب جدير بالدراسة والتأمل؛ لأنه يتناول تأملا لاهوتيا كبير الأهمية يبرز نقاطا جديدة،

ومنها قوله:

- «بعد عشرين عاما من مجمع الفاتيكان الثاني، تأكد الحوار وتم تشجيعه».
- «إن الانفتاح وصل إلى درجة اقتراح تعاون حقيقي».
- لقد انتقلنا من لاهوت للديانات غير المسيحية إلى لاهوت لديانات العالم، أي: إن الديانات الأخرى لم يعد تقييمها قائما بناء على علاقتها بالكنيسة الكاثوليكية، وإنما بناء على علاقتها بالخلاص العالمي، الذي اقترحه الله عن طريق المسيح من خلال الروح القدس.
- ونتيجة طبيعية لذلك، فإننا نؤكد على «تمركز» كل المستقبل الإنساني حول موضوع وحدة الخليقة والفداء (راجع: «في زماننا هذا» الفقرة الأولى).

وتختتم المجلة ذلك الجزء بآخر فقرة قالها البابا، في اجتماعه مع الكرادلة وأعضاء الإدارة البابوية، عن لقاء «أسيز» هذا، والذي نطالع فيه:

«إن الهدف الإلهي الوحيد والنهائي، يتمركز في يسوع المسيح، الإله والإنسان الذي يتعين على كافة البشر أن يجدوا فيه اكتمال الحياة الدينية، والذي تصالح فيه كل شيء، ونفس الطريقة فلا يوجد مخلوق لا رجل ولا امرأة، لا يحمل في ذاته علامة أصله الإلهي، ولا يوجد مخلوق يمكنه أن يظل خارجا، أو حتى على هامش عمل يسوع المسيح، الذي مات من أجل الجميع، إذن فهو منقذ العالم».

ونفس الأسلوب المزدوج نراه في أسفاره الرسولية المتعددة حتى حينما يكون «أغلب السكان من المسلمين» - على حد قوله - فذلك لا «يمنع من أن يكون استقبال البابا حارا ولا من أن يتم الإنصات إليه باهتمام» ومجرد استخدامه لفظة «البابا» بدلا من أن يقول: «استقبالي»، وهو الأسلوب الذي يستخدمه طوال

الكتاب الذي نحن بصدده، إلا أنه يرمي إلى تأكيد صفته الكنسية وتوضيح أن المسلمين متعطشون إلى أقواله الكهنوتية.

ونود أن نلفت نظر البابا إلى معلومة بسيطة عن الإسلام، وهي أن الإسلام يحتم على صاحب المكان إكرام الضيف ثلاثة أيام، وأن هذا الكرم له آدابه من حسن ضيافة وإنصات ورعاية، ولا علاقة له بضمير الضيف المستتر، ولا بأغراضه الخبيثة!

البابا يتلاعب بالألفاظ

٨- يستشهد البابا في هذه الفقرة برحلته إلى المغرب عام (١٩٨٥م)، التي كانت «حدثا على المستوى الرعوي حقيقة» أي على المستوى الكنسي التبشيري.

ويستشهد البابا بمدى «افتتاح الشباب لخطاب البابا حول الإيمان بالإله الوحيد»، وتفضح هذه العبارة تلاعب نيافته بالألفاظ، وبعقول الحاضرين من الشباب، والذين قد يجهل أغلبهم ما وراء محدثهم من خلفيات ممتدة على مدى ألفي عام. والبابا يعلم تماما أن الإسلام دين يقوم على التوحيد، ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له؛ فأن يتوجه إلى هذا الشباب المسلم بحديث عن «الإله الوحيد فذلك لا يعني في نظر هؤلاء الشباب سوى الله سبحانه وتعالى الذي لا شريك له.

وإذا ما تصفحنا بعضا مما ورد بهذا الخطاب، الذي ألقاه يوم (١٩/ ٨/ ١٩٨٥م) لأدركنا فحواه، إذ يقول نيافته:

«إن الحوار بين المسيحيين والمسلمين أصبح ضرورة اليوم، أكثر من أي وقت مضى. إن الكنيسة تنظر باحترام إلى مسيرتكم الدينية، وتعترف بنوعيتها، وبثراء تراثكم الروحي نحن أيضا – معشر المسيحيين – فخورون بتراثنا الديني، وأعتقد

أننا مسيحيون ومسلمون يجب علينا أن نعترف بسعادة: بالقيم الدينية المشتركة بيننا وأن نشكر الله عليها فكلانا يؤمن بالله، الإله الوحيد، العادل الرحيم، نؤمن بأهمية الصلاة، والصوم، والزكاة، والعقاب والغفران، نؤمن بأن الله سيكون حاكما رحيما بنا في نهاية الزمان، ونأمل أنه بعد البعث سيكون راضيا عنا، ونحن راضون عنه، إن الأمانة تقتضي، أيضا، أن نعترف ونحترم خلافاتنا، إنها خلافات هامة، يمكننا تقبلها بتواضع واحترام، وفي تسامح متبادل، إننا مسيحيون ومسلمون عادة ما أسأنا فهم بعضنا بعضا، وأحيانا في الماضي قد تعارضنا، بل وأهلكنا بعضنا في صراعات وحروب أعتقد أن الله يدعونا اليوم إلى تغيير عاداتنا القديمة علينا أن نحترم بعضنا، وأيضا أن نشجع بعضنا، في أعمال الخير، على طريق الله».

إن التعليق الوافي على هذا الجزء الصغير من الخطاب الطويل، الذي ألقاه البابا على شباب المغرب قد يحتاج إلى مجلد بأسره، لما فيه من تلاعب بالألفاظ وطمس للحقائق.

ولن نشير هنا سوى إلى بعض العبارات، ومنها ذلك «الاحترام» الذي تنظر إليه الكنيسة إلى الإسلام، لكنها لا تعرف أن عليها الاعتراف به قبل أن تنطق بأي عبارة أخرى.

وذلك يجب أن يكون المطلب الأساسي لأي حوار، بالمفهوم الأمين للكلمة، فمثلها بحثت ونقبت في أرشيفها السري - كما نطالع في البيان الرسمي بذلك - واكتشفت خطأها في حق اليهود، عليها أن تبحث في نفس الأرشيف السري؛ لتكشف خطأها في حق الإسلام والمسلمين، ذلك «الخطأ» الذي مازال البابا يتزعمه بكل أسف.

أما خلافاتنا التي علينا أن «نتقبلها بتواضع واحترام، في تسامح متبادل». فذلك

أمر مرفوض بالقطع، لأنه يعني الخروج على الإسلام لأن خلافانا الجذري، قائم على نفس تحريف العقيدة وتأليه السيد المسيح وتجسد الله فيه إلى آخره. وقبول هذه التركيبة الثالوثية، بغض النظر عن أي احترام، ولا أي تواضع، يعني الخروج عن تعاليم الله سبحانه وتعالى الذي نص على ألا نشرك به أحدا، ولا يسع المجال هنا للاستشهاد بعشرات الآيات التي تدين الشرك بالله، ويكفي أن نذكر قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

أما عن إساءة فهم بعضنا بعضا «أحيانا» في الماضي، فلا يمكن أن نفي هذه العبارة حقها من الشرح والتعليق. فهذه الكلمة ، تخفى وتطمس: مجازر، ودماء سالت طوال أربعة عشر قرنا، على كافة أنحاء العالم حينما امتدت أيادي التعصب ومخالبه.

ومقولة «إننا قد تعارضنا وأهلكنا بعضنا في صراعات وحروب» لا أساس لها من الصحة، لمجرد وضع موقف كل من المسيحية والإسلام في كفتين متساويتين. وكيف سنقيم المعادلة، إذ كانت الأولى شرسة الهجوم، والثانية ضحلة الدفاع حتى عن نفسها؟!

وهنا لا يسعنا إلا نقول: ليستجب نيافة البابا – كما يقول – إلى دعوة الله، ويغير «عادتهم القديمة» المتواصلة حتى يومنا هذا، وأن يكف تيار التعصب عن قيادة محاولة اقتلاع الإسلام لتنصير العالم، فالعقيدة القائمة على التحريف والتبديل والأكاذيب لا يمكن لها أن تستقيم أو تسود، إلا بالعودة بها إلى أصولها المنزلة. والعودة بها إلى حقيقة الله سبحانه وتعالى، وليس إلى «الحقيقة» اللاهوتية، وعندئذ – فحسب يمكن للمسلمين أن ينظروا بعين التقدير والاحترام إلى قوم دأبوا على

تحريف العقيدة التوحيدية، ودأبوا على فرض تحريفها قهرا، ثم تـابوا وأفـاقوا وآمنـوا بما أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيهم عيسى بن مريم.

صمود الإسلام

٩- تتناول هـذه الفقـرة التاسـعة والأخيرة مـن رد البابـا – الجانـب السياسي – بشكل أوضح، حتى وإن كان من داخل إطار الدين، وهي فقرة يمكن تلخيصها في عبارة: «صمود الإسلام»، وإن كانت تتضمن أربعة محاور، وهي:

أ- التيارات الأصولية التي تفرض «الدين الحقيقي» على كل المواطنين.

ب- الظروف المأساوية للأقليات المسيحية.

ج- الأصولية تجعل الحوار صعبا.

د- الكنيسة ثابتة في استعدادها للحوار والتعاون.

ولن نعتب على البابا، إذ إن كافة إجاباته، تزخر بمثل هذه المآخذ، فمـن الواضـح أن تلك هـي سـمة خطابه بصفة عامة، لكننا سنبدأ بالإشارة إلى أصـل الأصـولية ونشأتها الكنسية حتى تتضمن الأمور.

وكلمـة الأصـولية، مرتبطة ارتباطـا عضـويا بكلمـة الحداثـة، أو بـما يطلـق عليـه «معركة الحداثة»، وتعني هذه المعركة اختصـارا: المطالبـة بدراسـة وتنقيـة النصـوص الإنجيلية مما أجرى فيها من تحريف وإضـافات؛ والمطالبـة بإنجيـل يسـوع، الـذي أخفته الكنيسة، ومطالبتها بعدم التدخل لإعاقة الحركة العلمية وتطورها.

وكـان فريـق علـماء الحداثـة يتكـون أساسـا مـن كنيسـيين، وانضـم إلـيهم بعـض المدنيين، أي أنها حركة قامت على أيدي أشـخاص عـالمين ببـواطن الأمـور، وليسـوا دخلاء عليها.

هذه الأحداث قامت في الفترة المعروفة باسم «صحوة العقل الفلسفي، والدفاع عن السلطة الأخلاقية للإنسان الحر» كنقيض للإنسان الخاضع للكنيسة وسلطانها، الذي أدى إلى طمس معالم التوجه إلى الله؛ ليصبح التوجه إلى السيد المسيح، أو ما يطلق عليه: الازدواجية القطبية في المسيحية.

وثار التيار المتعصب بشراسة وصلت إلى الاغتيالات، دفاعا عن مصالحه التي أرساها غرسا على مدى ألفي عام، وقام برفع درع «الأصولية» أي: التمسك «بالأصول»، وبكل ما تم بها من تحريف، بل واعتبارها منزلة!

وتوالت الخطب الرسولية التي تدين الحداثة وتدافع عن الأصولية، وأهمها الخطاب المعنون «سيلابوس» (١٩٨٤) ويحتوي على فهرس «بالأخطاء» التي أشار إليها العلماء التي يجب على الكنيسة أن تحاربها.

الخطاب المعنون «أشياء محزنة» (١٩٠٧م) الذي يعد بمثابة تكملة للخطاب السابق وإن كان على بعد أربعين عاما تقريبا، ومن باباوين مختلفين، لكنها استمرارية لمخطط واحد. بينما كانت تساندها تقارير لجنة محكمة التفتيش وتعليماتها، ومنها: سحب الكوادر الشابة الكنسية من حلقات البحث الديني في المعاهد والمدارس الدينية.

منعهم من الاشتراك في المجلات، التي تروج «لبدعة الحداثة». ومنع ترسيم كل الذين تشبعوا بهذه الأخطاء الحديثة، ولا يوافقون على إنكارها.

ولم نذكر ما تقدم إلا لنوضح: أن الأصولية في المجال الكنسي، تعني الإصرار على التمسك بكل ما تم من تحريف في النصوص الإنجيلية، وأن «الحداثة» في نفس المجال الكنسي، تعني كشف هذا التحريف. أما في المجال الإسلامي، حيث القرآن الكريم منزل، ولم تمسه ولن تقترب منه الأيادي العابثة مهما حاولت، فإن معنى

الحداثة هنا يأخذ مفهوم تحريف معاني القرآن والسنة والتلاعب بنصوصهما. وهو ما يستميت الغرب المسيحي حاليا في عمله – أما الأصولية، في المجال الإسلامي، فتعني المحافظة على الأصول سليمة، كما هي، والدفاع عنها ضد أي تحريف.

أما رد البابا في هذه الفقرة الأخيرة، والبنود الأربعة التي يتضمنها، فإن أول ما نشير إليه في المحور (أ) هو تعميمه غير الأمين في أن الأصوليين – حينما يصلون إلى الحكم – يقومون بفرض «الدين الحقيقي» على كل المواطنين، والمغالطة هنا لا تكمن في انتقاده لعبارة «الدين الحقيقي» التي وضعها بين «شولتين» سخرية، أو لعدم صدقها في نظره، ولن نعيرها التفاتا، إذ أوضحنا ما فيه الكفاية لما يقوده هو شخصيًّا من تعصب، وإنما تكمن المغالطة في قوله عبارة: «على كل المواطنين» والتعميم هنا يعني به الإخوة المسيحيين، وتلك هي الطامة الكبرى، لا في مستوى معرفته بالإسلام فحسب، وإنما في اتخاذه ذلك تبريرا للتدخلات السياسية – الدينية زعما للدفاع عنهم، والإسراع بعملية التبشير والغريب.

وهنا نقول للبابا: إن الإسلام، لشديد الوضوح، إذ ينص على أنه : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. كما يقول بنفس الوضوح : ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩]. أي أنه لا يمكن لمسلم يعلم أصول دينه ويتمسك بها – بل ويتهم من أجل ذلك بأنه من الأصوليين – أن يخالف آيات بمثل هذا الوضوح، خاصة إذا ما أضيف إليها آية أخرى تقول بنفس الوضوح : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أما مقولة نيافته عن ظروف هذه الأقليات «المأساوية» فهي مقولة تفتقر إلى نفس الصدق والمصداقية. فما من أقلية مسيحية في العالم أجمع تتعرض لمأساة سوى مأساة تدخلات معقل الفاتيكان ، وإصراره على استخدام الكنائس في عمليات التبشير

والتنصير والحوار .....الخ.

الأمر الذي يضع هذه الأقليات في حيرة مأساوية حقيقية حينما تتساءل ضمائرهم عن مصير ولائهم: أيكون للوطن الأم الذي نشأوا فيه ويأويهم، أم يخونونه إذعانا للأوامر المتعصبة، ومتطلباتها، رغم كل ما بينهم هم من خلافات؟

فاستخدام الكنائس المحلية من قرارات المجمع الشهير، ومن قرارات «السينودس» الذي تمخض عنه كما رأينا، ومن قرارات مؤتمر «كولوراد»، للتنصير الذي انعقد عام (١٩٧٨م) ....الخ.

ومن الطبيعي أن تؤدي الأصولية، بمفهومها الإسلامي السليم – وهو الدفاع عن الإسلام والمحافظة عليه من أي تحريف – إلى جعل الحوار – بمفهومه الكنسي، التبشيري – شديد الصعوبة إن لم يكن محالا. وهو المطلوب لا من الأصوليين فحسب، وإنما من كل مسلم مؤمن بدينه غيور عليه، وخاصة من كل المسلمين، الذين يشاركون في مثل هذه المؤتمرات والمنتديات والصلوات.

ويختتم البابا رده المثقل والاتهامات بعبارة تتلفع بالبراءة والتسامح، موضحا أنه رغم كل هذه «المصاعب» التي ذكرها طوال أربع صفحات عن الإسلام والمسلمين، فإن الكنيسة ثابتة في استعدادها للحوار وللتعاون. ولا نملك إلا أن نقول لنيافته: إن هذا الحوار وهذا التعاون الذي يعني أحدهما: «إلزام الخاطئ الارتداد والدخول في خلاص يسوع المسيح». بينما يعني الآخر: «مساعدة الخاطئ على اجتياز عملية الارتداد مع احترام «أفهامه» والعمل على تجديد ضميره بالارتداد»، فهو أمر مرفوض بكافة المقاييس والأشكال والوسائل.

إنه أمر مرفوض حتى بإسقاط ديون العالم الثالث التي يلوح بها نيافته ثمنا للتنصير أو إغراء به، في خطابه الرسولي الأخير الصادر في: (١٤/ ١١/ ١٩٩٤م)،

بعنوان «عشية الألفية الثالثة». وهو الخطاب الذي يعد بمثابة خطة خمسية للسنوات الباقية من القرن العشرين، ليكون الاحتفال عبارة عن تمجيد للثالوث، ينتهي بمؤتمر عالمي للقربان، وسبقه عملية إسقاط ديون العالم الثالث، ودعوة للحج والصلاة الجماعية: في أماكن لها مغزاها بالنسبة للديانات التوحيدية»، وقد يكون نيافته يشير إلى «غزو» مكة وتبشيرها..!

وفي نهاية هذا العرض الموجز لرد البابا على السؤال القائل «ما الفرق بين الله عند المسلمين وإله المسيحيين؟»، الوارد في كتابه المعنون «ادخلوا في الرجاء»؛ وما تبعه من تعقيب أوردناه مختصرا بقدر الإمكان، لا نملك إلا أن نقول للبابا «المعصوم من الخطأ» رسميا بقرار من المجمع الشهير، أن يراجع ما ورد بإجابته من فريات، وأخطاء ضد الإسلام والمسلمين،

ماذا لو تخلى نيافته عن كل هذه «العادات القديمة» قدم أربعة عشر قرنا، واعترف بأخطائها، ليقود خرافه الضالة إلى إنجيل يسوع الحقيقي، وإلى رسالته التوحيدية التي بشر بها فعلا وتاهت معالمها تحت أنقاض التحريف: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧].

الفصل الرابع

مساجد ومآذن صامدة

؟!

— مساجد ومآذن صامدة —

أثارت نتيجة الاستفتاء على حظر بناء المآذن في سويسرا ردود أفعال واسعة النطاق، واعتبرها الكثيرون « صدمة » وضربة موجعة للحرية التي تتمتع بها سويسرا ، وهي الدولة الأوروبية التي حرصت على حيادها السياسي والقانوني حتى أصبحت واجهة تقليدية لجذب الأموال خاصة من البلاد العربية الإسلامية.

وكان الاستفتاء الذي دعا إليه « حزب الشعب » (يمين متشدد) والاتحاد الديمقراطي الفيدرالي (حزب مسيحي صغير) في إطار ما يصفانه بـ « مكافحة الأسلمة الزاحفة » ، وأجرى يوم ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٩ ، وقد أظهر أن ٥٧,٤٪ ممن شملهم الاستفتاء يوافقون على حظر بناء المآذن في سويسرا بعد قيام هؤلاء المتطرفين بتنظيم حملة دعائية ضخمة نجحت في تحويل وجهة النقاش في ذهن المواطن السويسري من مجرد الحديث عن رمزية المآذن إلى الخطر الإسلامي من خلال استحضار الصورة النمطية التي انتشرت بعد أحداث ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية ، والاعتماد على لوحة إعلانية تصور امرأة منقبة بالسواد تقف بجانب العلم السويسري وبجوارها مآذن تنتصب كصواريخ على هذا العالم.

وقال رئيس اللجنة التي تقدمت بالاستفتاء « فالتر فوميان » لقد أردنا إظهار أن المآذن رمز للقوة في الإسلام ، وما سيأتي بعدها من مؤذن ثم الشريعة الإسلامية ، إذا أضفنا المرأة المنتقبة ولا نرى هنا أي استفزاز .

واعترف بأن الهدف من الاستفتاء ليس المئذنة في حد ذاتها ، بل هي رمز لقوة تبعاتها ، وهذه هي الخلفية الحقيقية فكان لزاماً توضيح الأمر للرأي العام ولماذا

نطالب بإضافة بند إلى الدستور يحظر بناء المآذن .

والأحزاب اليمينية في أوروبا انتهزت نتيجة الاستفتاء وأعلنت رغبتها في تنظيم استفتاءات مماثلة في دول أوربية أخرى، في خطوة تعبر عن حالة القلق والجدل إزاء الوجود الإسلامي هناك ، مما يطرح تساؤلاً مهماً : هل بدأ إسكات الصوت الإسلامي سويسرياً؟

ففي هولندا أعلن حزب الحرية اليميني بزعامة النائب الهولندي صاحب « فتنة المسيء للإسلام « جيرالد فيلدرز » إعجابه بنتيجة الاستفتاء .. قائلاً : للمرة لأولى أعرب المواطنون في أوروبا عن معارضتهم للأسلمة.

كما دعا « ماريو فيزيو » النائب في البرلمان الأوروبي من حزب رابطة الشمال الإيطالي إلى أجراء استفتاء مماثل في إيطاليا قائلاً : إن راية سويسرا الشجاعة التي تريد أن تبقي مسيحية ، حلقت فوق محاولات أسلمة أوروبا.

أما في فرنسا فقد أظهر استطلاع للرأي أجرته صحيفة « الفيجارو » اليمينية أن ٤٦ ٪ ضد بناء المآذن ، بينما ارتفع استطلاع آخر بالنسبة إلى ٥٥٪ ورغم أن الحكومة الفرنسية استبعدت أية نية لإجراء استفتاء حول بناء المآذن هناك ، إلا أن نتيجة هذين الاستطلاعين تبقى مؤشراً مهما يدق ناقوس الخطر.

وقد حرصت الحكومة السويسرية منذ بداية فكرة الاستفتاء على أن تنأى بنفسها عن إثارة مشاعر العداء تجاه المسلمين ورفضت التدخل لمنع الاستفتاء متذرعة بأن الأمر مطروح للحرية الديمقراطية .. واكتفت بدعوة المواطنين إلى عدم التصويت لصالحه. وفي أقوى إدانة للحكومة ، انتقدت وزيرة الخارجية السويسرية الحملة التي قادها اليمين المتشدد ، ووصفتها بـ « القذرة» وقالت : إن أصحابها استعملوا أساليب التخويف والكذب . وصوروا للشعب السويسري وكأنه سيواجه مئات

المآذن الإسلامية . كما أكدت الوزيرة عدم تعرض بلادها لأي تهديدات إرهابية بعد الاستفتاء ، مشيرة إلى أنها تسعى إلى تهدئة الوضع مع الدول الإسلامية وأن بلادها قد اتخذت كل الاحتياطات في هذا الاتجاه.

وقد أثبت المسلمون في سويسرا بدورهم ووعيهم وقدرتهم على التعاطي بمسئولية مع تلك الصدمة ، فقد كشف د.هشام أبو ميزو رئيس اتحاد المنظمات الإسلامية . حقيقة ما يسعى إليه الاستفتاء قائلاً : نحن ندافع عن هويتنا الإسلامية التي تمثل المآذن جزءاً منها فمبادرة حظر المآذن في حقيقة الأمر تستهدف في مرحلة تالية حظر المساجد وتقليص الوجود الإسلامي في سويسرا.

وحسب قوله : فالذين تقدموا به لن يتوقفوا عند هذه الخطوة وإنما سيسعون بعد ذلك لطرق قضايا مهمة بالوجود الإسلامي في سويسرا .

كما أكد أن مسلمي سويسرا سيتعاطون مع نتيجة الاستفتاء من خلال القنوات القانونية والوسائل السلمية.

وقارن أبو ميزو ما يتمتع به اليمين المتطرف من كونه حزباً معترفاً به يحصل على كافة أشكال الدعم، وبين وضع المسلمين هناك متسائلاً : أين هي الجهة التي يمكن أن تدعما في تلك المرحلة لمواجهة هذه الحملة الشرسة.

مضيفاً .. إننا نقف أمام تلك التحديات بكل ما وهبنا الله من قوة ، ولكن إمكانياتنا ضعيفة للغاية . فالعين بصيرة واليد قصيرة .. ولكن أملنا أن يكون الإسلام هو المنتصر.

وإذا كان البعض يتخوف من أن وضع المسلمين في سويسرا يبدو أكثر حرجاً من غيرهم في أوروبا بسبب أن الإسلام ليس معترفاً به هناك فإن تلك المخاوف تتضاءل إذا علمنا أن الدستور السويسري يكفل بوجه عام حرية التدين ويفرض احترام

الرموز الدينية . وهذا الأمر كان ضمن الحيثيات التي استندت إليها وزيرة العدل السويسرية «إيفيلين فيدمر شلومت » في حثها المواطنين على عدم التصويت لصالح الاستفتاء، موضحة أن حظر المآذن ليس طريقة سياسية مناسبة لمواجهة مخاوف البعض إزاء المسلمين.

وأضافت : إن حظر بناء المآذن يتناقض بشكل أساسي مع القيم الأساسية لنظام المجتمع السويسري ويتعارض مع أسس قواعد الدستور الذي يضمن الحرية الدينية في البلاد.

كما أكدت أن إبراج الكنائس لها أهمية دينية رغم أنها لم تذكر في الإنجيل ومن ثم سيكون حظر المآذن وحدها تحامل على المسلمين.

وفي السياق ذاته أكد « توماس ويف » رئيس المجلس السويسري للأديان أن التعدد الديني والثقافي هو أحد أوجه الهوية السويسرية التي صاغت عبر تاريخ طويل قواعد وأسس التعايش السلمي والمضمونة بالقانون والدستور .. وشدد على أن الذين يدعون إلى حظر المآذن إنما يقومون بتوظيف الدين لأهداف سياسية من خلال خلق أجواء من عدم الثقة بين طبقات المجتمع

كان لافتاً للنظر أن أحد الانتقادات لنتيجة الاستفتاء ، كانت من حلفاء سويسرا الغربيين أنفسهم.

فقد استنكرت المفوضية السامية لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة « نافي بالي » النتيجة معبرة أنها تمييزية ، وتخاطر بوضع البلاد على مسار تصادمي مع التزاماتها الدولية بشأن حقوق الإنسان.

وأضافت : كنت أتردد عندما انتقد تصويتاً ديمقراطياً ، لكنني لم أتردد هذه المرة على الإطلاق في إدانة المتاجرة بالتخويف من الأجانب التي ظهرت في الحملات

السياسية في عدد من الدول بينها سويسرا ، ويساعد في ظهور نتائج مثل هذه.

من جهته قال رئيس الوزراء التركي رجب أردوغان : هذه حقوق أصيلة لا يمكن طرحها في استفتاءات – فالحقوق والحريات الأساسية لا يمكن إحالتها للتصويت ، ولا يمكن طرح حرية العقيدة أو حقوق أو حريات أية طائفة للاستفتاء.

ومن ناحية أخرى أيد الفاتيكان موقف الأساقفة السويسريين الذين اعتبروا حظر بناء المآذن ضربة قاسية لحرية المعتقد.

وقال رئيس المجلس البابوي للمهاجرين المونسنيور « مارا سفيليو » : إننا نتبنى الموقف نفسه للأساقفة السويسريين .

وبعد قليل من إعلان نتائج الاستفتاء أعلن الأمين العام للمؤتمر الأسقفي السويسري المونسنيور « فليكس غمور » أن أساقفة سويسرا مستاءون من النتيجة ، وأكد أن المجمع الفاتيكاني الثاني يقول بوضوح : إن من المسموح به لكل الديانات بناء أماكن عبادة والمآذن هي أماكن عبادة . والتصويت لصالح حظرها ضربة قاسية للحمة المجتمع السويسري.

كما أعربت الرئاسة السويسرية للاتحاد الأوروبي عن استغرابها لطرح الأمر أصلاً في استفتاء .

وقالت وزيرة الهجرة السويسرية « نيامكو سابومى » في تصريحات صحفية لدى سويسرا نظام استفتاء شعبي رائع لكن يساء استخدامه أحياناً كما في هذه الحالة بعينها .

وباختصار نستطيع أن نتساؤل أحد كتاب « الجارديان » البريطانية يقول ما ردة

الفعل لو أن السويسريين صوتوا لصالح تغيير الطريقة التي تبنى عليها « كنس اليهود» هو تسائل يضع القضية برمتها على المحك ، ويشير إلى التفرقة الواضحة في التعامل بين المسلمين وغيرهم ، مبيناً أن استخدام وسائل الديمقراطية قد لا يخلو من المتاجرة والخداع خاصة إذا تعلق الأمر بالمسلمين.

أما عن ردود فعل الاتحاد الأوروبي لعلماء المسلمين فقد أعرب عن أسفه نتيجة الاستفتاء ، معتبراً أنها تكشف عن التناقض الصارخ بين تغني الشعب السويسري وتباهيه بالديمقراطية وحرية الأديان وبين المضمون العنصري« والإسلاموفوبيا » لهذا الاستفتاء ، محذراً من أن حملات اليمين لعنصري المتعصب قد لا تتوقف عند هذا الحد ، فاليوم المآذن وغداً المساجد نفسها.

* وكان الشيخ يوسف القرضاوي وقع على بيان أوضح فيه أن المآذن إنما هي دليل على مكان العبادة، وليس لها أية دلالة سياسية أو غيرها ، بل هي رمز عمراني جميل يدل على التسامح للبلد وتنوعه الديني والثقافي .

مؤكداً أن الحكومة السويسرية – رغم معارضتها للاستفتاء – تتحمل المسئولية كاملة عن النتائج التي يمكن أن ترتب عليه ، وفي مقدمتها تنامي ظاهرة العداء والكراهية للإسلام والمسلمين في سويسرا.

* شيخ الأزهر د.محمد سيد طنطاوي ، وعند مقابلته السفير السويسري في القاهرة قال للسفير : إن هذا الاستفتاء له آثاره السيئة في نفوس المسلمين ، داعياً الحكومة السويسرية إلى إيقاف الحظر ومحذراً من.أنه ستؤدي إلى بلبلة وإساءة ظن من المسلمين بسويسرا.

* الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية اعتبر أن نتيجة الاستفتاء .. إهانة لمشاعر المسلمين داخل سويسرا وخارجها ، مؤكداً أن منع المآذن أظهر مشكلة

مفادها إننا نشتغل بالحوار منذ ٢٠ عاماً .. ثم يصدر قرار بمنع المآذن ليحطم كثيراً من قواعد الحوار . فنحن نبني ليعيش الجميع على الاحترام والحوار ، فتأتي الأحزاب اليمينية المتطرفة فتهدم بقرار واحد تلك القواعد.. داعياً في الوقت نفسه مسلمي سويسرا إلى استخدام الحوار والآليات القانونية والدستورية لمواجهة مبادرة حظر المآذن التي وصفها بـ الاستفزازية.

* د.أكمل إحسان أوغلو الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي أشار إلى خيبة أمله وقلقه إزاء حظر المآذن .. واصفاً نتيجة الاستفتاء بأنها تطور مؤسف من شأنه تشويه صورة سويسرا كدولة تحترم التنوع وحرية الأديان والمعتقد وحقوق الإنسان.

واعتبر الحظر نموذجاً يجسد مشاعر العداء المتنامي ضد الإسلام والمسلمين في أوروبا من قبل جماعات اليمين المتطرف العنصرية والمعادية للمهاجرين وللأجانب والتي تقف في وجهه المواقف الحكيمة والمنطقية والقيم العالمية.

* السيد شكيب مخلوف رئيس اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا في رصده للاضطهادات التي تعرض لها المسلمون في الغرب أعرب عن مخاوفه من أن يدخل مسلمو أوروبا مرحلة جديدة من الاضطادات تشبه ما حدث مع اليهود في الحقبة التاريخية مع اختلاف في الوسائل والآليات في إشارى إلى « الحرب العنصرية التي تقودها التيارات اليمينية ضد مسلمي أوروبا مرتدية ثوب الديمقراطية».

وأضاف : للأسف فقد سلك القائمون على الاستفتاء أسلوباً أقل ما يقال عنه : إنه عنصري ، فبعد ثلاثة أشهر من الحرب الإعلامية الشرسة على المآذن والإسلام والمسلمات وربط كل ذلك بالإرهاب ، كما تبين من خلال الصور المعروضة في الشوارع ، وإخراج المآذن في شكل صواريخ حيث قبع المواطن السويسري العادي

تحت هذه الحملة ، ماذا ستكون النتيجة؟

كما نستطيع أن نرصد بوضوح أن كثافة الضجة الإعلامية التي صاحبت الاستفتاء .. وإضافة « النقاب » إلى صور الحملة ، تدلان بوضوح على أن « المآذن » ما هي إلا ذريعة لفرض مزيد من الضغوط على المسلمين لإفقادهم هويتهم ودمجهم في الثقافة الأوروبية.

* البروفيسور طارق رمضان أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد يتسائل : ليس هناك إلا أربع مآذن في سويسرا ، فما هو الذي جعل مبادرة حظر المآذن تنطلق من هناك؟ مؤكداً أن سويسرا مثل معظم البلدان الأوروبية ، تواجه ردة فعل على المستوى الوطني على تزايد المظاهر الإسلامية في ربوعها ، وما المآذن إلا ذريعة لشن حملة على الإسلام.

كما أنه يضع هذا الاستفتاء في إطار أعم ، قائلاً : لكل بلد أوروبي رموزه أو مواضيعه الخاصة التي يستهدف من خلالها المسلمين .. ففي فرنسا .. البرقع أو الحجاب .. وفي ألمانيا المساجد .. وفي بريطانيا العنف .. وفي هولندا المثليون .. وهكذا دواليك.

وبالرغم مما تحمله نتيجة الاستفتاء ، والمؤشرات التي تبعتها – من دلالات تدعو للقلق بشأن التعايش السلمي للمسلمين في الغرب ، فإن البعض قرأ نتيجة الاستفتاء ، قراءة مغايرة باعتبار أنها تدل على أن ٤٣٪ ممن شملهم الاستفتاء رفضوا حظر المآذن.

* الشيخ إبراهيم عبد اللطيف الغايش إمام مسجد في « لاتينا » يعتبر أن هذا الاستفتاء أمر إيجابي له دلالته المهمة خاصة إذ علمنا أن التمايزات طفيفة جداً بين المجتمع السويسري وغيره من المجتمعات الأوروبية فيما يتصل بالإسلام ، إذ هي

تتعرض على مدى الساعة لحملات مكثفة للتخويف من المسلمين.

لكنه لفت في الوقت ذاته إلى ضرورة الاستفادة من تلك النسبة ، ومد جسور التعارف والتفاهم معها ، والعمل على إيجاد قنوات أفضل للتواصل مع هذه المجتمعات بشكل عام.

*الدستور السويسري .. الجدير بالذكر أن الدستور السويسري يتيح لأية مجموعة من المواطنين إطلاق مبادرات شعبية لإدخال تعديلات عليه .. و إلغاء قانون سبق للبرمان إقراره.. أو تقديم مقترحات جديدة من خلال جمع ١٠٠ ألف توقيع خلال ١٨ شهراً فيما يسمى بنظام « الديمقراطية المباشرة » ، وفي حال التصويت على المبادرة فلا يمكن إلغاؤه عن طريقة مبادرة أخرى.

ويعيش في سويسرا – التي تقع في منطقة جبال الألب – أكثر من ٤٠٠ ألف مسلم من تعداد السكان البالغ حوالي ٧,٧ مليون نسمة ، والإسلام من حيث عدد اتباعه هو الديانة الثانية هناك.

وبحسب « جان فرانسوا ماير » مؤرخ مهتم بالحركات الدينية – في كتاب « معارك حول الإسلام في الغرب ».

فعندما أثير الجدل حول المآذن في سويسرا عام ٢٠٠٥ ، لم يكن هناك سوى مئذنتين فقط ، الأولى في مدينة « زيورخ» منذ عام ١٩٦٣ ، بارتفاع ١٨ متراً ، والثانية في « جنيف » منذ عام ١٩٧٨ بارتفاع ٢٢ متراً.

ثم في عام ٢٠٠٥ أطلقت جمعية تركية مشروع « مئذنة رمزية » بارتفاع ٥ إلى ٦ أمتار في مدينة « فانجن » فواجه المشروع اعتراضات أدت إلى رفضه ، ثم ألغى الرفض بشرط عدم استخدام المئذنة لغرض الآذان ، ومن ذلك الحين والأحزاب اليمينية تعتبر « المئذنة »مؤشراً على أسلمة زاحفة .

من هنا نستطيع أن نخلص مما سبق، إلى أن هذا الاستفتاء وما صاحبه من جدل قبل وبعد إعلان النتيجة ، يمثل تحدياً كبيراً للحكومة السويسرية ، واختباراً لقدرتها على المحافظة على وحدة نسيج المجتمع بتمايزاته العرقية والدينية والسياسية.

وهنا السؤال : هل ستنجح الحكومة السويسرية في ترسيخ سياسة الانفتاح الديني والثقافي مثل نجاحها في الانفتاح الاقتصادي ؟.

وهل يستطيع مسلمو سويسرا إطلاق مبادرات شعبية مماثلة ، وحشد الأصوات والطاقات ، ولكن باتجاه ترسيخ الاندماج والتعايش السلمي؟

وهل ستكتفي الدول الإسلامية ببيانات الشجب والإدانة ، أو ستتخذ مبادرات استباقية للتواصل مع المسلمين هناك ، ودعم مواقفهم من ناحية ، وللضغط على الحكومات الأوروبية من ناحية أخرى؟

* ويؤكد الدكتور أحمد طه ريان أستاذ الفقه بجامعة الأزهر أن المآذن لم تكن شرطاً في بناء المساجد ، ولكن المهم أن يصل صوت المآذن ليعلن عن إقامة الصلاة ، ولكن صارت المآذن شعاراً للمساجد ، وتعني وجود مسلمين في هذا المكان ، محذراً من أنه ينبغي عدم الاستهانة بهذا الأمر بحال من الأحوال ، بل ينبغي الحرص على وجود هذه المآذن وعلى ولاة الأمر الذين يحكمون البلاد الإسلامية أن يكون لهم وقفة ودور مع هذه الدول التي تتهاون وتستهين بشعائر المسلمين حتى يتراجعوا عن هذا الموقف.

مشيراً إلى وجود وسائل كثيرة منها التهديد الدبلوماسي وتجميد العلاقات ووقف التعامل الاقتصادي خاصة أن هذه الدول لا تعرف إلا لغة المصالح ، وبلاد المسلمين تباع فيها المنتجات الغربية .. والساعة السويسرية من أشهر المنتجات في الأسواق العربية والإسلامية .

ويطالب الدكتور طه ريان الحكام المسلمين بصوت مسموع واحتجاج على ما قامت به هذه الدولة ، وما قد تقوم به دول غربية أخرى على الدرب نفسه ، فهذه خطوة ستتبعها خطوات أكثر خطورة ، ولابد من بحث أسباب ومبررات ما قامت به هذه الدولة التي تتشدق بالحريات وحقوق الأقليات ولكن لابد أن نبحث عن رد فعلنا نحن المسلمين على ما حدث ، وإن حظر المآذن هو محك الاختبار بالنسبة للمسلمين فإن تساهلوا فستتلوه خطوات أكثر خطورة ، وهي إزالة المساجد ليصلي كل مسلم في بيته .

* الدكتور أحمد عبد الرحمن – المفكر الإسلامي – وأستاذ علم الأخلاق أشار إلى أن مسألة العداء الغربي للإسلام ليست قضية اليوم أو أمس ، وإنما للقضية خلفية قديمة فمنذ الحروب الصليبية والعداء مشتعل من الغرب للمسلمين ويظهر هذا العداء في فكرهم وإعلامهم وصحافتهم وفي كنائسهم ، فكل شيء يغذي هذا الفكر العدائي للمسلمين ، وإن كانت المادية والإلحاد خففا من هذا العداء ، لكن ظلت العداوة متغلغلة بعمق في قلوب الأوروبيين تظهر من حين لآخر ، مرة في الرسوم الكاريكاتيرية التي تسخر من النبي ﷺ وتارة في منع الحجاب .. وتارة أخرى منع بناء المآذن.

ويوضح الدكتور أحمد عبد الرحمن بقوله : إن هناك تخوفاً من أسلمة سويسرا .. وذلك لضعف أيديولوجيتهم وثقافتهم ، فهي أيديولوجيا ضعيفة ، ولن تصمد كثيراً ، هذا مع دخول الكثير منهم في الإسلام ، خاصة من علمائهم ومفكريهم وهذا يعدونه غزواً إسلامياً للغرب حتى وإن كان المسلمون الموجودون ليس لهم دور في ذلك ، غير اعتقادهم أن دخول بعضهم في الإسلام غزو إسلامي يقضي عليهم وعلى ثقافتهم.

فمع فضل محاولات الغربيين لتحويل المسلمين إلى النصرانية والإلحاد يغيظهم تمسك المسلمين بعقيدتهم وإيمانهم وعبادتهم ، وهم على يقين أيضا من أن المآذن ليست من عقيدة المسلمين ولكنهم يحاربون هذه المآذن لكونها ثقافة إسلامية ، فلا يريدون لهذه الثقافة وهذه الرموز أن تنتشر في سماء أوروبا.

* الدكتور أحمد شوقي الفنجري – الأستاذ بجامعة الأزهر السابق – يقول : إن أسباب إرجاع حظر المآذن إلى العداء الغربي الإسلامي أو « فوبيا الإسلام » ، يشير إلى أن العداء الغربي للإسلام والخوف من انتشاره هو القاعدة التي يسير عليها الغرب.

ففي سويسرا يعيش ٤٠٠ ألف مسلم ، وهناك أربعة مساجد فقط هي التي بها مآذن أما باقي المساجد فلا مآذن بها ، ولكن لأنها شعار المسلمين فهم يحاربون هذا الشعار ، ويحاربون الإسلام حتى في أبسط مظاهره ، ومما يؤكد هذا العداء أن كل العقائد تمارس شعائرها بمنتهى الحرية ، ولم نسمع مثلا أنهم حظروا أجراس الكنائس .

ولكن من ناحية أخرى لا ينكر الدكتور الفنجري تأثير سلوكيات بعض المسلمين التي تتسم بالعنف والغلظة أن تكون سبباً آخر في ذلك ، فبعض المسلمين في الغرب قاموا بأسوأ دعاية للإسلام ، فكما قال الإمام محمد عبده : « الإسلام محبوب بمبادئه» ، أقل أيضًا: « الإسلام مبتلى بأهله » مؤكداً في الوقت ذاته أنه لن يجدي مع الغرب إلا الطريق السلمي لإظهار حقيقة الإسلام ، وان يغير المسلمون من سلوكهم ليكونوا قدوة ، وان يتأكدوا أن النصر للإسلام ، وقد قال المفكر « رنارد شو » : إني أرى في الإسلام دين أوروبا في أواخر القرن العشرين » وقال : « إذا كان هذا هو الإسلام أفلا نكون كلنا مسلمون » ، فالإسلام ينتشر لا بالمسلمين ولكن بقوته الذاتية.

* الدكتور محمد رأفت عثمان أستاذ الفقه بجامعة الأزهر ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية يقول : يجب أن نعترف بتقصير المسلمين فيما يتعلق بدورهم الإعلامي في سويسرا ، لبيان أن المآذن ليست إلا رمزاً لدور العبادة ، وقد وضح هذا التقصير بعدما تبين نجاح الحزب اليميني المسيحي صاحب الدعوة إلى حظر بناء المآذن وقيامه بدور إعلامي كبير حتى استطاع التأثير على الشعب السويسري للتصويت إلى ما يسعى إليه رغم أن سويسرا من أكثر الدول الغربية التي تتمتع بحرية إعلامية ولذا كان يجب على مسلمي سويسرا والجالية الإسلامية الاهتمام بهذه القضية .

الأمر الثاني : الذي يشير إليه الدكتور رأفت عثمان أن المسلمين يجنون الثمرة المرة لما زرعه المتطرفون من المتنسبين للإسلام من جرائم أدت لتخويف الغرب من الإسلام وأتباعه وبعد أن أصبح يقيناً لدى الغربيين أو على الأقل كثير منهم أن العملية التي ارتكبت في أحداث ١١ سبتمبر فعلها هؤلاء ، بل إن زعماء هؤلاء الجماعة المتطرفة يتباهون بهذا ، وقد أصبح من الأمور المستقرة الآن إن أي حادث إجرامي يحدث في بلاد الغرب فإن أول ما تشير إليه أصابع الاتهام هم المسلمون ولهذا فعلى الجاليات الإسلامية الواجب الكبير والعمل المستمر داخل البلاد التي يعيشون فيها لإبعاد الإسلام عن الإرهاب.

الأمر الثالث : أنه يغيب في كثير من الأحوال حكام المسلمين في المصلحة التي تهم المسلمين عامة ، وهذه القضية لم تأخذ حقها من اهتمام حكام المسلمين والواجب أن يفعل الحكام كما تفعل الصهيونية العالمية من تحديد الأهداف والتطبيق على أرض الواقع.

الأمر الرابع : أن المسلمين أخذوا هذه لقضية بحساسية شديدة وكان عدم وجود المآذن في المساجد سيجعل المسلمين يتركون الصلاة ، على الرغم من أن المآذن ليست

من جوهر المسجد وليست شرطاً لصحة الصلاة .. ولا ركناً من أركانه ولكن على مسلمي سويسرا أن يتغلغلوا في المجتمع الذي يعيشون فيه بالاشتراك في كل مناحي الحياة في الإعلام والصحافة والنوادي والنقابات وأماكن التجمعات ، فهي بيئة صالحة لإظهار حقيقة الإسلام وبعده عن الإرهاب حتى يعرفوا حقيقته.

* الدكتور عبد السميع أبو الخير عميد كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر يتفق مع الرأي السابق في أن الدور الأكبر في رد الفعل على هذه القضية يقع على المسلمين الذين يعيشون في سويسرا ولكن في الوقت ذاته ينبغي عدم تجاوز خط إلى خط آخر أو أن تكون ردة الفعل عفوية بحيث تضر بصورة المسلمين والإسلام ، فعلى المسلمين في سويسرا اللجوء إلى الطرق الديمقراطية في المحاكم السويسرية ، وأيضا المحكمة الأوروبية وهنالك منافذ كثيرة سوف تستمع لرأيهم وقد أدانت بعض هيئاتهم نتيجة هذا التصويت.

وبعد أن يستنفذ مسلمو سويسرا كل الوسائل السلمية يناشدون العالم الإسلامي ليستخدموا الأسلوب الهادئ في معالجة القضية وعليهم أن يدخلوا الغرب في نفس جحرهم وهو جحر الحديث عن الديمقراطية من خلال بيان سماحة المسلمين مع غير المسلمين في بلادهم وكيف أنهم يعملون ويتعاونون كشركاء وطن.

ففي مصر وعلى الرغم من وجود الأغلبية الساحقة من المسلمين ، إلا أن مصر تسمح ببناء الكنائس .. والكنائس في مصر تعلوها الأبراج ، بل وتحميها كجزء من حماية الشركاء في الوطن ، بلا تعصب ولا تطرف وهذه مسلمة إسلامية قد لا يعيها الغرب ولا يعرفها.

وبعد أن حاول المسلمون توضيح وبيان سماحة الإسلام على أرض الواقع ومن خلال معالجة الأمر بهدوء وعقلانية ، فإذا لم يصلوا لنتيجة فإن لهم ظهيراً في العالم

الإسلامي ، وعلى هذا الظهير أن يستخدم أسلحته بعقلانية ، وان يقدم للمسلمين بضاعتهم بطريقة صحيحة ، فوسطية الإسلام هي أهم ما في أيدي المسلمين ، ومن ثم يجب أن يحسنوا التعبير عنها ، فيجب على المسلمين أن يدافعوا عن قضاياهم بعقلانية وعلى الجاليات الإسلامية أن ترفع شعارًا نحن نحافظ على ثوابتنا دون تنازل ونعيش في مجتمعاتنا دون ذوبان.

ويعقب الدكتور عبد السميع أبو الخير بأن الدعوة إلى الإسلام بالقدوة والسلوك هي أخطر من قضية المآذن ، موضحاً كيف انتشر الإسلام في ربوع آسيا وإفريقيا من خلال سلوك المسلمين ومعاملاتهم مع غيرهم.

وحول ما قد يتشدق البعض بالقول إن المآذن ليست جزءاً من المسجد ، أنه يمكن القول بهذا ، ولكن داخل البلاد الإسلامية ، أما في دول غربية فإن المئذنة حق لا يمكن التفريط فيه ، لأنه يعبر عن الهوية ، ولكن يؤكدن ضرورة وجود رد فعل للمسلمين دون تهور في ردود الأفعال فكل مستوى من المرض له مستوى من العلاج.

وبين الحين والآخر يسفر الغرب عن وجهه القبيح ويجاهر بما يخفي للمسلمين من الاضطهاد والتعصب الأحمق الأعمى .

فتطالعنا وسائل الإعلام بما يفجع المسلمين ، وليس ديننا وهويتنا ورموزنا الإسلامية ، فبالأمس القريب اتهم ساركوزى الرئيس الفرنسي النقاب بأنه رمز للاستعباد.

وقتلت مروة الشربيني بيد المتطرف الألماني بسبب حجابها .. ومهاجرة نيجيرية تضرب حتى الموت ويضحك قاتلوها وهو يرتكبون جريمتهم .. وشاب مغربي يقتل لأنه رفض أن يعمل مرشداً للسلطة ضد المسلمين ، دون أن يسأل عن عقاب

قاتليهم أحد.

دور الأسرة في الدفاع عن الإسلام

وها هو الاتحاد الأوروبي يمنع ممارسة المسلمين لبعض الرياضات في الأندية الأوروبية بحجة أنها تعزز لديهم العنف، وغير ذلك الكثير لإهانة المسلمين وإذلالهم والقضاء على هويتهم الإسلامية.

فإما أن يذوبوا في المجتمعات الغربية وينبذوا دينهم وهويتهم، وإما أن يطردوا وتمنع المآذن في سويسرا.

وهذا هو الغرب .. الغرب الذي طالما تشدقنا بمدى تحضرهم وحريتهم، ولطالما حلمنا وتمنينا أن نتمتع بمثل حريتهم، الحرية في أن تعتنق ما تشاء، وتدين بما تشاء .. وترتدي ما تشاء – وتختار طريقة حياتك التي تلائمك دون أن يلومك أحد.

والسؤال هو: إذا كانت الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين .. فمنع المآذن حلقة في سلسلة انتهاك حرماتنا يوماً بعد يوم .. فهل سنقف مكتوفي الأيدي؟ وهل سنخذل إخواننا ونتركهم فريسة ما يحاك لهم يوماً بعد الآخر؟ وماذا يمكن أن نقدم لهم؟

وإذا كانت الأسرة هي الخلية الأولى المسئوولة عن الحفاظ على الهوية فما دور الأسرة المسلمة تجاه أزمة منع المآذن في سويسرا؟ وكيف تدير الأزمة لتؤتى ثمارها في توعية أفرادها واستنفارهم للقيام بواجبهم تجاه دينهم وإخوتهم في الغرب؟

هنا يأتي دور هذه الأسرة في كيفية الحفاظ على الهوية الإسلامية والدفاع عن الإسلام أمام هذه الهجمة الشرسة ضده، لذلك اتجهت هذه الأسرة لتوعية الأبناء فيما يحدث حولهم وكيفية الحفاظ على وحدة هذه الأسر بتماسكها في التوعية بالدور

الإسلامي في جمع وحدة هذه الأسر وهذا ما تؤكده السيدة هدى محمد – زوجة وأم لطفلين – تقول : إن اللبنة الأولى في أي مجتمع لترسيخ مفهوم أية قضية عند الأبناء تكون من خلال الوالدين ، واصفة دورهم بأنه عدة إيمانية لتمكين دين الله في الأرض ، مشيرة إلى ضرورة اتساع دائرة التأثير من خلال التحدث في أية تجمعات عائلية عن القضية وكيفية الدفاع عنها.

فلابد أن تكون الأسرة جبهة دفاع من خلال أفرادها للدفاع عن القضية وذلك من خلال التجمعات الأسرية الأسبوعية ، وأن تشمل أكبر فرد وهو الأب إلى أصغرهم من الأبناء والالتفاف جميعاً لمشاهدة الأخبار والتحدث عن الانتهاكات التي تحدث والاضطهاد الذي يتزايد يوماً بعد يوم.

* السيدة إيمان سيد تشير إلى أهمية دور الزوجة خاصة كعضو فعال في الأسرة ، وأن لا تكون مغيبة عن تلك القضية خاصة أن الكثير من النساء لاهيات في هموم وقضايا أخرى عديدة ولا يعلمن شيئاً عن قضايا المسلمين سواء في الداخل أو في الخارج، فالمرأة المسلمة على مر التاريخ كان لها الدور الأساسي كزوجة وأم في شحذ الهمم والحث على الدفاع عن الهوية والعقيدة ، وتسرد قصة لشاب كان في مقتبل العمر يمضي في الطرقات معتزاً بنفسه وإسلامه ودينه بشكل مبهر ، فذهبوا إلى أمه وسألوها عن السر فقالت لهم : حين بلغ من العمر خمساً علمته القرآن والشعر – وما كان عليه الآباء والأجداد من السلف الصالح ، وعلمته الفروسية الشجاعة والإقدام ، وقلت له : انتظر الطارق يناديك – الجهاد – فكان ما كان عليه من السلوك والتصرف.

* السيدة مها عويس ترى ضرورة التحدث مع الجيران وزملاء العمل وأصدقاء الأولاد عن القضية ونشر مفهومها الصحيح فيما بينهم .. فضلاً عن السعي وراء

إيجاد رأي عام لقضية محاربة الرموز الإسلامية كلها .

وأشارت إلى ضرورة إبداء الصورة أمام العالم بأكمله .. إن المسلمين لن يصمتوا ولن يتزعزعوا أبداً ، موضحة أن تلك الصورة لن تأتي إلا من خلال الأسرة ، والتي هي الخلية الأولى في بناء أي معتقدات لأي مجتمع ، خاصة أنها مهمة شاقة ولكن لا سبيل غيرها.

والمعروف لدينا نحن – المسلمين – أن المسجد ليس مجرد مبنى ، بل هو شعيرة إسلامية ودار عبادة ، ومظهر إسلامي ورمز ، فأين هي الحرية التي يفخر بها الغرب بأنهم حماة لها ؟ هل معنى الحرية عن الغرب هو حرية الكفر فقط ؟ هل هي حرية العري؟

* السيد عبد الله زكي يرى أن واجبنا أن نتمسك بديننا لنستحق رعاية الله عز وجل ونصره . ولتحرص الأم على حجابها وحجاب ابنتها ، والرجل على حجاب زوجته وابنته . حجاباً يرض الله به ، وأن تعود الأسرة المسلمة إلى مرجعيتها الإسلامية ، وأن تحرص على تفوق أفرادها وإبعادهم واجتهادهم لنضع أمتنا على رأس الأمم ففي هذا نصر لديننا ، وأن نعرف الناس من حولنا بقضايا المسلمين ونحثهم على التمسك بالدين ونحذرهم من أن يكونوا ببعدهم عن الدين سبباً في انتكاس المسلمين.

* السيدة سيدة إسماعيل تطالب كل أفراد الأسرة بأن يتفقوا على تحريك الغيرة في الدائرة المحيطة بهم لأنها تشعر أنه مازال أفراد كثيرون لم يستشعروا خطورة الموقف خاصة الشريحة التي على وعي باستعمال وسائل الإعلام (إرسال رسائل الموبايل والإيميل) وترشيد استغلال الوسائل الحديثة في توعية الناس وتفعيل القضية بالحرص على المداخلات أثناء البرامج ومراسلة القنوات الفضائية .

لابد أن يشعر أفراد الأسرة الكبيرة والصغيرة بأن منع المآذن انتهاك لحرماتنا، وننقل هذا الحس إلى الدوائر المحيطة بأكملها: الأسرة والعائلة والمجتمع والزملاء، مع استثماره إيمانياً بتكثيف الدعاء وصلاة الحاجة والصيام.

وتضيف - وأتمنى أن نستثمر تربويًّا في بناء شخصية أبنائنا في إطار الأخوة العالمية والترابط والانتماء، وفي توصيل مفهوم الإسلام، وعالمية الأخوة ونشر كل خبر عالمي عن التحرك من أجل مناصرة القضية.

* السيدة ميرفت محمد استشاري اجتماعي - ترى أن الحدث فرصة لشحذ الهمم وإحياء العزائم خاصة لدى الأطفال وسط انشغال الأسر - مما يترتب عليه الفتور لديهم، فهذه الأزمات فرصة لإحياء عزائم الأطفال وتعزيز الوازع الديني لديهم فنعودهم ألا يتباطؤوا في أداء الشعيرة وأن يواظبوا عليها، والمسارعة بالطاعات والتغيير إلى الأحسن وتقوية العلاقات التي يوجدون فيها، وتوجيههم للقراءة عن الغرب ليلموا بأنفسهم ما إذا كان ما يدعونه من قبل الحرية أم قهر الحريات.

* السيدة نادية زين: إن أزمة منع المآذن فرصة لربط أولادنا بالمسجد لأن كثيراً منهم لا يدخلون المسجد إلا لصلاة الجنازة، وذلك بإحياء سنة ترديد الآذان واصطحابهم للمسجد وإحياء الرباط الروحي بينهم وبين المسجد ليصبح بيتًا ثانياً لهم، فارتباط الولد بالمسجد والمئذنة يشكل هويته ويمكن أن يجمع صوراً للمساجد أو برسمها بالقص واللزق الملون ويعلقها في داخل البيت أو مدخله ونصحبه لزيارة المساجد الأثرية في الأجازات. ويقرأ عنها وتجري بينهم مسابقات عن أطول المآذن ويراسل أصدقائه في العالم لمدهم بمعلومات مضادة لما يسمعونه.

وإن القضية ليست فقط منع المآذن ولكن سلسلة الرفض للرموز الإسلامية ومحاولة طمس الهوية عن طريق طمس الرموز وتفريغ المساجد من روادها ثم منع

بنائها أساساً كما تعودنا.

* السيدة فاطمة محمد استشاري رياض أطفال ترى أن واجب الأسرة أن تستثمر الحدث تربويًّا بأن تعقد ورشة عمل مع الأبناء ، كل طفل يضع تصوره عن كيفية تعريف غير المسلمين في الخارج أن المئذنة رمز يعبر عن عقيدة الإنسان المسلم.

ويمكن أن نعمل بحثاً عن بداية بناء المساجد في الإسلام والهدف منها وتعرض صوراً لأشهرها وأن مآذن المساجد من الآثار الإسلامية التي يزورها الأجانب لو ألغيت سيمحى شكل المسجد ، ولابد من أن نواصل للأطفال أن الحرية ليس لها حدود طالما لا تؤذي الآخرين ، والمئذنة لا تؤذي أحدًا كما يجب أن نعلم أبناءنا الطرق الحضارية التي تعبر بها عن حقوقنا ونصل للغرب ، وكيف ينادون بالحرية ، ثم يتوقفون عند الإسلام والمسلمين . وتعويدهم التواصل مع منظمات حقوق الإنسان في الغرب والتي تنتشر مواقعها على الانترنت فيمكن مراسلتها وإقناعها بوجهة نظرنا ، كذلك دعوة الناس في الغرب لزيارة المساجد التراثية ليروا جمالها .. والترويج للتاريخ الإسلامي وبراعة المسلمين في العمارة.

ونبين أهمية إحياء روح مقاطعة بضائع الدول التي تتخذ مثل هذه المواقف والدول الموالية لهم لما أصاب هذه الروح من فتور والتشديد عليها بدءاً من سن ثلاث سنوات.

* الدكتورة منى صبحي أستاذ استشاري تربوي تشير إلى أن الأسرة عندما تشرح هذه الظاهرة ، ظاهرة الخوف من الإسلام ومحاولة طمس ما يشير إلى وجوده في أوروبا من مآذن وحجاب وغيره ، فإنه يجب بث روح الاعتزاز بالانتماء لهذا الدين لأنه دين رباني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه للناس كافة وأن الخوف منه سببه الجهل قبل أي شيء وبالتالي واجبنا التعريف بالإسلام بكل

الوسائل المتاحة من إعلام وإنترنت .. وأن نراجع أنفسنا لنكون على وعي وفهم ومعرفة بهذا الدين وأن يكون ضابطاً لسلوكنا بحيث تحقق الصورة المطلوبة لتطبيق الإسلام ، لأن الدعوة للإسلام لابد أن تكون بالقول وبالفعل ، فالغرب يحتاج إلى التعامل مع نماذج من الأفراد والدعاة الذين يفهمون روح الإسلام ويحرصون على إيصاله للناس بحكمة ورفق ، ونستطيع أن نحكي نماذج لهؤلاء الأفراد الذين فتح الله على أيديهم بلداناً كثيرة (فتحت إندونسيا على يد ٧ من التجار) ويجب أن ننبه إلى دخول أولادنا إلى الإنترنت واعمل على تفعيل المقاطعة والروابط التي تخاطب الغرب وتتحاور معه من أجل توضيح صورة الإسلام.

* الدكتور حاتم آدم استشاري نفسي يوضح أن تحديد الهوية الذاتية للإنسان بمعنى من «أنا» يشكل ركائز داخل ضمير الإنسان وأعمدة أساسية في شخصيته (الجنس – الدين – الوطن) لأنها هي التي تحدد طريقة تفكيره ومساحة أفكاره وإبداعاته تجاه قضية المآذن .. لابد أن أتساءل ما الدور الذي يمكن أن أقوم به للدفاع ، ورب ضارة نافعة ، فالحدث فرصة لترسيخ الركائز الدينية في شخصية أطفالنا فيتعلمون أن دور العبادة لا تمس ولا تمتهن في أي دين من الأديان . والحدث فرصة لفتح حوار مع الأولاد غير المذاكرة التي أصبحت قضيتنا الأساسية . فالتعليم قيمة لكنه ليس القيمة الوحيدة في الحياة ، لأن الإنسان سلوك وتصرفات ، والحوار مهم جداً لإنضاج شخصية الطفل وإكسابه مفاهيم الحق والحرية والعبادة والتعبير عن الذات . فلابد أن أوسع مدارك الطفل بالكلام في شتى مجالات الحياة ثم نطرح تساؤلات ..

ماذا تفعل لو كنت مكان المواطن السويسري أو مكان الحكومة السويسرية ؟ كيف تعبر عن غضبك ؟ كيف تعبر عن رغبتك التي تراها موضوعية ؟ وتر الآخر مخطئاً في منعك من التعبير عنها؟ ونعلمه الاستماع لوجهة نظر الآخر ، فواجب

الأسرة تقوية الاتجاه الديني لدى أفرادها ، خاصة الطفل والمراهق ، وتوجهه للحوار والتخاطب مع الآخرين.

* الداعية نادية شاهين تؤكد أهمية تربية الأولاد منذ نعومة أظافرهم على احترام المسجد ، بما له من دور متكامل كما كان أيام النبي ﷺ للعبادة والتعلم والتعارف وممارسة أنشطة إسلامية مختلفة ، لتقوية ارتباط الأولاد به وإشعارهم بأن المسجد رسالة وليس مجرد رموز فقط أو مكان للصلاة.

والحدث فرصة أيضاً لتعليم أولادنا إن نصرة الدين ليست بارتفاع المآذن فقط ، بل بحسن الخلق والحرص على كافة الأحكام والآداب الإسلامية .

* الداعية كريمة عبد الغني تضيف أنه لابد أن تشعر الأسرة المسلمة بأهمية شعائر الله وتعظيمها وأنها قضية تقوى وليست مسألة عابرة وأنها من شعائر الله ، فالهندوس عندما طلب منهم قص الشعر ورفع غطاء الرأس رفضوا واعتبروها قضية حياة أو موت لأن إطالة الشعر ووضع غطاء الرأس شعيرة هندوسية وإن كانت تمثل بأي مظهر ديني تطرفاً ، فإذا كان أهل الباطل يحرصون على شعائرهم فما بالنا ونحن على الدين الحق . وتؤكد د. كريمة على مسؤولية الأسرة المسلمة تجاه القضية وتكثيف جهودها لخدمتها خاصة الشباب عن طريق المشاركة الإيجابية وإرسال رسائل للسفارة السويسرية والدخول على المواقع ومخاطبة الشعوب في الغرب ، إلى جانب الدعم المادي للجاليات المسلمة حتى تُفعل الإعلام في الغرب لمناصرة قضيتهم ، وعلى المسلمين أن يستغلوا مثل هذه المواقف لإبراز الوجه القبيح للعنصرية الغربية وكذب ادعائهم بأنهم يناصرون الحريات بل هي مجرد شعارات يتجملون بها ولا تعبر عن حقيقة مفاهيمهم.

* الدكتورة عزة أحمد عبد الرحمن أستاذ مساعد التفسير وعلوم القرآن بكلية

الدراسات الإسلامية للبنات بجامعة الأزهر أوضحت أن واجب الأسرة أن تعرف الأولاد من خلال مثل هذه الأزمات من هو عدوهم عن طريق جمع الأولاد لمناقشة الأزمة ومتابعة الأخبار حولها ومحاولة معرفة البضائع التي تأتينا من هذه الدول التي تظهر العداء لنا لمقاطعتها .. كما يمكن إعداد نشء يعتز بدينه ويتمسك بتعاليمه ويهب حمية له وقتما تتطلب المواقف. يبدأ منذ النشأة الأولى للطفل ، فعلى الأسرة أن تجعل الغاية الأولى لها الحفاظ على القرآن واللغة وإن كان مطلوباً أيضاً التفوق في سائر العلوم وتعلم اللغات الأجنبية فهناك من يحرصون على التعليم الأجنبي ومحادثة أولادهم باللغات الأجنبية في البيت مما يضعف انتماءهم وهويتهم الإسلامية ، كما يجب أن نربي أولادنا على أن يكون لهم هدف وعلى بث الثقة في نفوسهم وتهيئتهم لأن يكونوا كالصحابة في جهادهم وحمايتهم للإسلام ، عن طريق قصص الغزوات والبطولات والتربية بالمواقف ، فنوجههم لمشاهدة البرامج والأفلام والتمثيليات الهادفة لتربية الطفل والرجل والبنت الملتزمة بالإسلام ومصاحبتهم في مشاهدة وسائل الإعلام وبيان مدى اتفاق واختلاف ما يرونه مع الشرع لتربية روح التميز بالشريعة مهما كانت ظروف المجتمع الذي يتواجدون فيه ، والحرص على ربطهم بالشريعة في كل صغيرة وكبيرة في جوانب حياتهم حتى تصبح مرجعيتهم في الحياة.

في البداية يجب أن ننظر على هذا الاستفتاء بملاحظتين:

الأولى: هي أن نتيجة الاستفتاء جاءت مخالفة تمامًا لاستطلاعات الرأي التي كانت تشير حتى صبيحة يوم الاستفتاء إلى رفض الحظر بنسبة ٥٣٪ مقابل موافقة ٣٧٪ على الحظر وامتناع ١٠٪ عن تحديد مواقفهم واستطلاعات الرأي في الغرب لها وزنها، وقل إن لم يندر أن تكون النتيجة مخالفة لهذه الاستطلاعات.

الثانية: فهي النسبة العالية التي حصل عليها قرارا الحظر وهي ٥٧,٤٪ والمعروف في الغرب أن الحسم في الاستفتاءات أو حتى انتخاب رئيس الدولة يكون بنسبة قليلة فوق الـ ٥٠٪ وقد لا تزيد هذه النسبة في معظم الحالات عن ٠١٪ فلا بد أن شيئًا ما قد تغلب في لانهاية وجعل أصوات الشعب السويسري تعطي موافقتها على الحظر بهذه النسبة العالية ربما غير المسبوقة .. وهذا الشيء ليس خافيًا، بل هو فعل الفوبيا المرض الخطير الذي استشرى بين الناس في أوروبا وأميركا.

مرض «الفوبيا» هو مرض نفسي يعني الخوف الشديد والمتواصل من موافق أو نشاطات أو أجسام معينة أو أشخاص، هذا الخوف الشديد والمتواصل يجعل الشخص المصاب به عادة يعيش في ضيق وضجر، إنه إرهاب القلب أو الخوف اللامنطقي ويكون فيها المريض مدركًا تمامًا بأن الخوف الذي يصيبه غير منطقه، ولقد بدأت نوبة الخوف من الإسلام تنتشر في أوروبا والولايات المتحدة انتشار النار في الهشيم ويربد البعض بداية هذا الخوف بالحروب الصليبية، وأصبح ذكر الإسلام والمسلمين مقترنًا إلى حد بعيد بمصطلحات من قبيل الإرهاب والعنف وما شاكلها، وهذا الجانب هو ما تم استثماره للوصول إلى هذه النتيجة في الاستفتاء ولقد نال هذا المصطلح درجة من القبول اللغوي والسياسي إلى حد قيام السكرتير العام للأمم المتحدة برئاسة مؤتمر بعنوان (مواجهة الفوبيا من الإسلام) في ديسمبر ٢٠٠٤ فضلاً عن إدانة قمة المجلس الأوروبي للفوبيا من الإسلام في مايو من السنة نفسها.

ونحن في غنى عن القول بأن عامة من صوتوا لصالح قرار الحظر لا يعلمون الإسلام شيئا إلا ما تبثه الدعاية الغربية.

وفتحت نتيجة الاستفتاء شهية اليمين في كل من أوروبا فسرعان ما أعربت قوى يمينية مناهضة للوجود الإسلامي في بلدان أوروبية أخرى كهولندا وإيطاليا والمانيا

عن اعتزامها التحرك لفرض حظر مماثل في هذه الدول وصولاً إلى الهدف الأكبر (أوروبا بلا مآذن)، وبالغ اليمين الهولندي بمطالبته بحظر القرآن الكريم.

أما الكراهية فحدث ولا حرج فهي التفسير الوحيد لكل ما يحدث .. كراهية تتنوع صورها وتتعدد، فمن تحقير شأن المسلمين إلى مهاجمة القيم الدينية الإسلامية مرورا بالاستخفاف بالرموز الإسلامية، وهنا نسأل: إذا كانت المآذن تسبب إزعاجًا للشعب السويسري فما سر هذه الحملة المصاحبة التي سبقت الاستفتاء؟.

والمساجد تم تلطيخ واجهاتها، وبعضها تمت مهاجمته بالزجاج والدعاية السلبية المكثفة حيث كانت تجوب سيارات بمكبرات صوت ترف الآذان في غير أوقات الصلاة، والصورة الرئيسية التي تصدرت لافتات الدعاية لمشروع القرار جعلت النقاب مدفعًا والمآذن قنابل وصواريخ تهدد البلاد.

والحزبان الرئيسيان يعلنان بأن هذه الوقفة للحفاظ على الهوية الثقافية والتاريخية للشعب السويسري، قائلين إن الإسلام لا يتماشى مع القيم الثقافية السويسرية، وإن المسلمين أناس يسعون إلى احتلال سويسرا لأسلمتها.

ولا ننسى «بابا الفاتيكان» الذي أدلى بحديثه المثير للجدل في ألمانيا بعد مضي يوم على الذكرى الخامسة لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حول العنف المتجذر في الإسلام ومن الصعب تصديق الحديث الذي جاء محض صدفة، وتنبع خطورة تصريحات البابا، كذلك من أنها جاءت في أعقاب أزمة الرسوم الدنماركية المسيئة للرسول ﷺ وهو ما يؤكد أن الغرب يعاني من كراهية للإسلام يصعب علاجها وأنه متورط بشن حملات صليبية جديدة، في حين لم يتحدث البابا أو أحد أتباعه يومًا ما عن جريمة خطف وتنصير أكثر من سبعة ملايين مسلم من إفريقيا واستعبادهم على يد الرجل الأبيض في أمريكا وغيرها من دول أوروبا وهو الذي يعتبر أن تنصير

المسلمين هو المهمة الأولى لكنيسته.

«باتريك دكليرك» الكاتب الفرنسي في مقاله في صحيفة «لوموند» الفرنسية واسعة الانتشار بتاريخ ١٣ أغسطس ٢٠٠٤ يعلن بوضوح وصراحة تبدو من عنوان مقالته «إني أكره الإسلام » ويقول دكليرك في مقالته العدوانية الفجة: (إن الإسلام دين يجلب الجنون والعته ؛لأنه يقيم حاجزًا مرضيًا بين الجنسين ويمارس القمع الرهيب على المرأة كما ينعته بأنه نسق فكري يقوم على الحرب المقدسة ومن ثم فإن الذبح وقطع الرؤوس ظاهرتان تنرجان في قلب الإسلام ذاته).

وهنا نوجه السؤال للكاتب الفرنسي دكليرك ما هو موقفه الآن، ويا ليته يكتب الآن تعليقًا يخبرنا فيه السر وراء مقتل «مروة الشربيني» فدمها لم يجب بعد.

وزير الخارجية الفرنسي «برنار كوشنير» يقول معلقًا على قرار حظر المآذن في سويسرا: إن البرقع يشكل مساسًا بحقوق المرأة التي يجب حمايتها، وإنه يقيد حريتها وأعتقد أنه يجب منعه»، وهو في ذلك يساهم في الحملة التي يقودها رئيس دولته الذي قال: «إن البرقع أو النقاب الذي يغطي المرأة من رأسها إلى أخمص قدميها يشكل علامة استعباد، وإن ارتداءه غير مرحب به في فرنسا، وإن النساء المرتديات للنقاب هن سجينات خلف سياج ومعزولات عن أية حياة اجتماعية ومحرومات من الكرامة».

وقامت هولندا ببث فيلم كرتوني «إباحي» يحمل مسمى (فتنة) عن زوجات محمد ﷺ ،ويحتوى على مشاهد فاضحة ومشينة للإسلام والمسلمين لقد كشفت هذه الأحداث عن عمق المأساة التي يعيشها العالم الإسلامي، وتلك هي المنارات الهشة، فقد جاء رد العلماء الرسميين باهتًا ولم يتجاوز مقولة (إن هذا القرار أساء إلى مشار المسلمين).

فلا غرابة، فهم الذين أعلنوا من قبل تمسكهم بحوار الأديان بعد أن أعلن الجانب الأوروبي أن الهدف من هذا الحوار هو تنصير المسلمين، كما أن موقف القيادات السياسية بداو كأنه يتعمد عدم التعليق على هذا الأمر مخافة الصدمة على الناس، على الرغم من إنه لا يتم لقاء زعيم أوروبي أو أمريكي بآخر من دول العالم الإسلامي، إلا ويشكل الحديث عن حقوق الأقليات الجانب الأكبر منه وحتى الشعوب مالت إلى التغاضي وعدم تكدير النفس بذكر هذا الأمر.

المهم في هذه القضية ليست العنصرية المتنامية في المجتمعات الأوروبية ضد الإسلام والمسلمين فحسب، وإنما قيام الأحزاب اليمينية المتشددة بتغذيتها باستخدام أدبيات ضد الإسلام لإرهاب مجتمعاتها وتخويفها من أخطار وهمية وصورة ذهنية مطلقة كاذبة تمثل الإسلام بالإرهاب والقتل.

ويحدث هذا بدون أي مبرر واقعي ولا نجد عذرًا فيما حدث للحكومة السويسرية التي تتحمل المسئولية الكاملة، وكان دورها متمثلاً في الاستفادة - بذكاء- من تجربة الدنمارك، وفي توزيع الأدوار مع اليمين المتشدد لأنها سمحت بإجراء هذا الاستفتاء تحت دعاوى الديمقراطية الزائفة التي لا تعطي مجرد الحرية للأفراد في ممارسة معتقداتهم.

فالحكومة السويسرية لم تراع عدم التكافؤ بين المسلمين والأحزاب السياسية التي استخدمت ثقلها السياسي وجماهيرها في القيام بحرب إعلامية دعائية كاذبة ومشوهة للإسلام والمسلمين. وفي المقابل لم يكن استطاعة المنظمات الإسلامية شن معركة سياسية لأن ذلك هو عمل الأحزاب التي فشلت في هذا التصويت فكانت النتيجة مكافأة التطرف والتشدد على حساب التسامح الإسلامي.

إن سويسرا في هذا الاستفتاء - انضمت بشكل مباشر إلى المناوئين للإسلام

وخاصة مع إلحاحها أن ترتقي نتيجة الاستفتاء إلى مستوى التعديل الدستوري – وبالتالي الحد من الآذان الذي يطلقه المسلمون السويسريون الذين يمثلون الديانة الثانية من حيث عدد السكان البالغ سبعة ملايين ونصف المليون.

لذا يجب على العقلاء في أوروبا أن ينتبهو إلى أن الأمر ليس مجرد تضييق على المسلمين. بل هو يمثل الخطوة الأولى في العودة إلى الوراء، وهذا ما بدأ يخشاه ويتحسب له الكثير، أما إذا أردنا التوقف إلى أهم الأسباب التي أدت إلى تنامي العنصرية وانتشار ظاهرة الإسلامو فوبيا، والتي كان من أهم مظاهرها تصويت السويسريين لصالح قانون يمنع بموجبه استحداث مآذن جديدة فإن أهمها:

١- الجهل بالإسلام من قبل الكثير من شرائح المجتمعات الأوروبية.

٢- قلة الوعي لدى الكثير من أبناء الأقليات المسلمة في أوروبا وممارسة بعض السلوكيات التي لا تعب إلا عن جهل أصحابها ولا تعبر عن الإسلام بشيء.

٣- أعمال العنف التي ارتكبت باسم الإسلام.

٤- ضعف الدول الإسلامية، والتي لم تستطع أن تقدم نموذجًا إسلاميًا حضاريا في الحكم والإدارة، خاصة مع انتشار الاستعباد والتخلف والجهل في معظم الدول الإسلامية للأسف.

٥- استغلال القوى الرافضة للوجود الإسلامي لمساحة الجهل بالإسلام لدى الكثير من الأوروبيين.

٦- إن التهديد الحقيق للهوية الأوروبية ليس في منارة أو مئذنة، وليس في الحجاب، أو في المسجد، بل إن كل هذه الأمور ما هي إلا جزء من التعبير الحقيقي عن هوية أوروبا.

ثم إذا سلمنا جدلاً أن المآذن، وكذلك الحجاب يشكلان تهديدًا للهوية، فإنه يمكن أن يقال وبنفس المبررات إن المساجد ولو من غير مآذن، والأديرة، والثوب الفضفاض واللحية وعمامة الهندوس، وقبعة اليهود، إلى ما لا نهاية، مما يمكن أن نعتبره على أنه رمز ديني أو طائفي. كل هذه الأشياء من غير إضافة مبررات تشكل تهديدًا للهوية الأوروبية، مما سيؤدي إلى انتكاسة خطيرة، وردة كاملة إلى الوراء، وهذا ما لا أظن أن عاقلاً في أوروبا يقبله.

ماذا بعد حظر المآذن في سويسرا

- إنه على المسلمين جميعًا سواء في الغرب أو في الشرق أن يتخيروا الطرق الإيجابية للرد أو الذود عن الإسلام وما يتعرض له من تطاول وإساءات شرع الغرب في البدء فيها منذ سنين طويلة إلا أننا لم نعرف الطريقة المثلى في كيفية التعامل مع هذه الإساءات لأنني أعتقد أن تصويت السويسريين لصالح حظر بناء المآذن إنما هو راجع إلى عدة أسباب منها وأبرزها الانتقادات التي يوجهها بعض السويسريين للإسلام وكذلك المخاوف المتنامية من الهجرة وأنني لا أرى أن الذين صوتوا معهم ليسوا منطلقين من أفكار أيديولوجية أو تجار سيئة شخصية ، وإنما لأن لديهم صورة سيئة عن الإسلام والمسلمين خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر وما يرد في التقارير للهجمات وأعمال العنف ومظاهر التعبير عن كراهية الغرب وما إلى غير ذلك.

- بجانب مثل هذه العوامل الدولية بعض المشكلات الصغيرة الداخلية في سويسرا والتي عززت هذه المخاوف والشكوك فمثلاً قبيل إجراء الاستفتاء بأسابيع قليلة وقعت حالة موثقة لخطاب مناهض للغرب داخل مسجد في سويسرا مع أنهم يفرقون حتى في وسائل الإعلام بين المسلمين الراديكاليين والمسلمين المعتدلين، كما أن الصورة السلبية للتيارات الإسلامية الجهادية كان لها تأثير كبير على وجهات النظر للناس تجاه المسلمين كافة. وأكاد أشك في لحظة أن الحكومة قد نظرت للأمر من هذه الزاوية الذي كان له أبلغ الأثر على نجاح هذا الاستفتاء لصالح الحظر كما أنني لا أشك أيضًا في الدور اليهودي والذي لعب دورًا إيجابيًا في استثمار الحدث والزمان لأنهم يجيدون ذلك وبالأخص عندما يتعلق الأمر بالانتخابات.

— ماذا ينبغي على المسلمين فعله ؟ —

• جاءت نتيجة الاستفتاء الشعبي السويسري لتضاعف من مشاعر الغضب والسخط من جانب المسلمين في كل بقاع الأرض على الغرب والغربيين فمآذن المساجد لا تمثل استفزازًا لأحد في المجتمعات الأوروبية وهي مجرد علامات تعرف بها المساجد.

• والمسلمون عندما تتاح لهم الفرصة يبدعون في صناعتها لتصبح معمارية رائعة تسهم في الشكل الجمالي الذي تتنافس فيه المجتمعات الأوروبية.

• إن نتيجة الاستفتاء الذي غلب عليه صوت التعصب والانفعال على صوت العقل والحكمة والتسامح كانت خطأ فادحًا وسلوكًا غير مبرر، فالمسلمون في هذا البلد الأوروبي الصغير والذين يبلغ عددهم أربعمائة ألف مسلم ينعمون بالمجتمع الآمن الذي يعيشون فيه، فليس من بينهم أصولي أو متعصب أو إرهابي وهم يتعايشون في سلام مع السويسريين وهذا ما أكده المسؤولون السويسريون عن انطباعهم عن المسلمين في سويسرا.

• إن الأوهام التي في عقول السويسريين لن تحدث من حيث إن الإسلام سوف يزداد في الانتشار عندما تبني المساجد والمآذن ويرفع الآذان عليها مما يؤدي هذا إلى المد الإسلامي الذي سيدفع المسلمين مستقبلاً إلى المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية فهذه أوهام تسيطر على عقولهم وليس لها ما يبررها.

• إن كثيرًا من الأوروبيين يجهلون حقائق الإسلام ، بل إنهم يتأثرون بالدعايات الكاذبة والمضللة والمعلومات الخاطئة والاتهامات الظالمة التي يلفقها المتطرفون والمتعصبون ضد الإسلام لذلك لابد من بذل الجهد ومضاعفة العمل لمحو هذه

الصورة السيئة التي رسمها هؤلاء المتطرفون الغربيون لديننا وعلينا أن نوظف المعتدلين الغربيين وخاصة السياسيين والمثقفين ورجال الدين لإزالة الصور المشوهة العالقة بأذهان البسطاء الغربيين عن ديننا.

- إن الحكومات الإسلامية ومجالس البرلمانات في هذه الدول لم تقم بدورها وواجبها تجاه هذه الأزمة قبل وبعد الاستفتاء وقد آن الأوان لكي تتحرك الحكومات وتستيقظ من سبات نومها تجاه هذه المواقف الغربية المسيئة لديننا.

إن الموقف السويسري الذي قاده الحزب اليميني المتطرف شجع حزبًا في هولندا مشابهًا له في الأفكار للمطالبة بطرح القضية نفسها في هولندا ورغم أن هذه الأصوات المتعصبة لا تمثل كل أوروبا إلا أن صوتها عال جدًا ومسموع بفعل وسائل الإعلام الصهيونية المتغلغلة في أوروبا.

حيث انطلقت حملات إعلامية يهودية الصنع باسم الإسلامو فوبيا وهي حالة خوف مرضي من العنف الذي التصق بالمسلمين سواء الموجودين في أوروبا أو في البلاد الإسلامية وأبرزها أفغانستان وباكستان والعراق ولبنان وغزة.

إنه لابد من التحرك لمواجهة هذا الموقف وتدعياته من خلال أربعة محاور:

الأول: استمرار الرفض الشعبي الإسلامي لهذا القرار داخل أوروبا من خلال أساليب احتجاجية حضارية.

الثاني: رفض واحتجاج الدول الإسلامية كلها على القرار من خلال المنظمات والهيئات والمؤسسات الإسلامية الكبرى في العالم.

الثالث: اتخاذ إجراءات قانونية لدى المنظمات الدولية لوقف أو تعطيل هذا القرار.

الرابع: فتح حوار عقلاني مع التيار المعتدل في سويسرا من أن يكون لسفراء لدول العالم الإسلامي وقادة المنظمات دور واضح في تحقيق هذا الهدف.

اتهام المسلمين في تشويه الإسلام:

يعاني المسلمون منذ أمد بعيد من حالة من الانفصام الرباعي الأبعاد، حيث الدين العظيم في قيمه ومبادئه من ناحية ، والحضارة الإسلامية العريقة من ناحية ثانية ثم فترة طويلة من التخلف والجمود الثقافي والفكري والعلمي بل والاقتصادي والاجتماعي من ناحية ثالثة ثم مرحلة ممتدة من الاستبداد التي يتعارض مع كافة المبادئ الإنسانية ويتحدى منطق التطور والأكثر خطورة تدهور حال المسلمين في العالم مما جعل العالم أصبح يرى الإسلام تهديدًا للحضارة ومصدرًا للإرهاب.

* ففي استطلاع أجرته جريدة (الجارديان) البريطانية في النصف الثاني من أغسطس ٢٠٠٦ جاء فيه:

- أن ٥٣٪ من البريطانيين يرون أن الإسلام يشكل تهديدًا للغرب وقيمه القائمة على الحرية والديمقراطية.

- ١٦٪ يرون أن المسلمين مواطنون صالحون يحترمون القانون ويندددون بالإرهاب (كانت النسبة ٢٣٪ في العام ٢٠٠٥).

- ١٨٪ أن المسلمين البريطانيين لديهم استعدادًا للقيام بعمليات إرهابية (كانت النسبة ١٠٪ في العام ٢٠٠٥).

* إن السبب في ضلال هؤلاء وجهلهم بحقيقة الإسلام وما فيه من المحاسن والفضائل وما كان للمسلمين في عصورهم الذهبية من التقدم الزاهر والحضارة الراقية والعلوم النافعة.

ثمرة عداء الغرب للاسلام

هكذا يرون الإسلام...

- إن الأوروبيين أو الغرب بصفة عامة كثير منهم يجهل حقيقة الإسلام وما فيه من الفضائل والحضارة الراقية والأفكار المنتجة التي عجز المسلمون عن استثمارها والفوز بالعمل بها فنجد الغرب يرى الإسلام على أنه إعلان بالحرب على باقي الأديان الأخرى معتقدين أنه يكره الآخر ويحض على عدم قبوله ومن ثم فهو يهدد السلم الاجتماعي في بلادهم وأن الإسلام هو الدين الذي انتشرت بسببه الديكتاتورية في العالم العربي والإسلامي فهو دين يقمع الحريات ولا تحترم فيه الرغبات على عكس التقدم والحرية والديمقراطية التي ينعم بها الغرب بسبب العلمانية وفصل الدين عن الدولة.

- إنهم يرون أن الأرض التي بنى عليها مسجد أو رفعت عليها مئذنة للمسلمين فإنها لم تعد أرضهم ، بل أصبحت أرض الإسلام والمسلمين هم يرونه دينًا لا يقوم على الحوار مع الآخر ولا يقبل الاختلاف مع الآخر.

- وقد حاولت الجاليات الإسلامية في الغرب الزود والتصدي لهذا التطاول المستمر على الإسلام والمسلمين نبيًا وأمةً ، فأوروبا ومنذ العام ٢٠٠٤ تتطاول على الإسلام والمسلمين مستفزين بذلك المشاعر غير عابئين بردة فعل المسلمين في الشرق أو الغرب، وذلك من هوان المسلمين هانوا فيما بينهم فهانوا في عيون غيرهم وتعرضنا في هذا الفصل إلى بداية الإساءات منذ قرون بعيدة حتى وصلنا إلى ما يواجهه الإسلام والمسلمين من تطاول لا تقبله الأديان.

هذه ليست المرة الأولى:

- في ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٥ قامت صحيفة يولاندس بوستن الدنماركية بنشر ١٢ صورة كاريكاترية للرسول ﷺ وبعد أقل من أسبوعين في ١٠ يناير ٢٠٠٦ قامت الصحيفة النرويجية Magazinet والصحيفة الفرنسية Francesoir وصحف

أخرى في أوروبا بإعادة نشر الصور الكاريكاتيرية.

- وقوبل نشر هذه الصور الكاريكاتيرية بموجة عارمة على الصعيدين الشعبي في العالم الإسلامي والرسمي وثم على أثر ذلك إقالة كبير محرري الجريدة الفرنسية من قبل رئيس التحرير ومالك الجريدة رامي لكح الفرنسي من أصل مصري كاثوليكي.

- قامت الصحيفة الدنماركية بنشر مقالة في الصفحة الثالثة بعنوان «وجه محمد» ونشر في المقال ١٢ صورة في بعضها استهزاء وسخرية من رسول الله ﷺ وإحداهما تظهر عمامته على إنها قنبلة بفتيل وقد حاولت الجالية الإسلامية وقف نشر الصور لكن الصحيفة رفضت ذلك بحجة حرية الرأي والتعبير فقامت الجالية الإسلامية بتنظيم حملة وجولة في العالم الإسلامي للدفاع عن النبي ﷺ.

- وكانت الرسوم مصاحبة لمقال عن المراقبة الذاتية وحرية التعبير بقلم (كاره بلوتجين) وكان المقصود من المقال إبراز الادعاء القائل بأنه لا يوجد فنان مستعد لرسم كتاب للأطفال عن محمد ﷺ بدون إبقاء اسمه سريًا خوفًا من عمليات انتقامية يقوم بها متطرفون إسلاميون بسبب الاعتقاد بأنه رسم محمد ﷺ محرم في الإسلام، وكانت الصحيفة قد دعت أعضاء من اتحاد رسامي الكارتون الدنماركية لرسم الرسول ﷺ كما يرونه.

- ولكن التاريخ لهذه الإساءات من الرسوم ليست وليدة العام ٢٠٠٥ ولكن هناك العديد من الصور التي رسمت لرسول الله ﷺ في العديد من الكتب التاريخية منها كتاب (حياة محمد) الذي طبع عام ١٧١٩م في لندن وكان للمؤلف الفرنسي سيور دي ريار وكان في الصفحة الأولى من الكتاب.

وكذا كتاب (حياة محمد) الذي طبع في هولندا عام ١٦٩٩م للمؤلف

M.prideau وفيه يظهر شخص يحمل سيفًا بيده اليمنى ، ورجله اليسرى مستندة على الكرة الأرضية ، وفي يده اليسرى هلال ، وعلى ساعده الوصايا العشر.

- وهناك صور يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى في أسبانيا وفيها يظهر شخص على كتفه الأيسر حمامة بيضاء ومنقار الحمامة قريب من أذنه وهذا الشخص يتحدث إلى ثلاثة رجال وامرأتين وهذه الصورة مقتبسة من تصوير بعض المسيحيين المتشددين المتطرفين في الكنسية الإسبانية لشخص الرسول، حيث ذكر إلجيوس (Elogius)- الذي كان من الذين أبدوا مخاوفهم من تأثير المد الإسلامي على أسبانيا.

- إن الرسول ﷺ شخص بارع في خداع الناس وقد كان يضع حبوب القمح خلف أذنه لكي يحيط الطير على كتفه ويوجه منقاره إلى أذنه كي يتخيل الناس أن الطير ينقل رسالة سماوية إليه وغيرها عبر العصور والقرون.

- وفي عام ١٩٩١ في الفيلم الإيطالي الصامت Linferno ظهر ممثل لثوانٍ في هذا الفيلم قام بدور سيدنا محمد ﷺ وفي عام ١٩٨٨ صوره في كتاب بعنوان (النبي) للمؤلف Jackchick في الصفحة ١٣.

الموقف في الدنمارك بعد الرسوم:

- لقد كان الرأي السائد في الدنمارك نتيجة لهذه الرسوم أنه لا داعي للاعتذار لأن هذه الرسومات لم تخرق أي قانون وأكد ذلك الاستطلاع الذي أجرته الإذاعة الدنماركية على عينة عشوائية من الدنماركيين مكونة من ٥٧٩ شخصًا في ٢٨ يناير ٢٠٠٦ والتي أظهرت النتائج التالية:

- ٧٩٪ يعتقدون أنه لا يوجد داع لأن يعتذر رئيس وزراء الدنمارك للمسلمين.

- ٤٨٪ يعتقدون أن أي تدخل من الحكومة يعتبر انتهاكًا لحرية التعبير عن الرأي.
- ٤٤٪ يعتقدون أن رئيس وزراء الدنمارك يجب أن يكون أكثر فعالية في حل الأزمات.
- ٦٩٪ يعتقدون أنه لا داعي لأن تعتذر صحيفة يولاندس بوستن للمسلمين.
- ٥٨٪ يعتقدون أنه بالرغم من حق الصحيفة في نشر الصور إلا أنهم متفهمون للانتقاد الموجه من قبل المسلمين.

الخروج من حالة التأزم مع الآخر

- إن خروج المسلمين من حالة التأزم الحضاري القائمة التي تحيط بهم من كل جانب ليس في تعليق كل مشكلات المسلمين على شماعة الغير إلى غير ذلك.
- وفي خضم تحمسنا لنقد الآخر وفضح عيوبه وانحرافاته وظلمه وقهره للشعوب وتفسخه على المستوى الاجتماعي وانحلاله على المستوى الأخلاقي والديني ننسى أننا بذلك لا نسيء إلى الآخر بل نسيء إلى أنفسنا لأننا بذلك نتجاهل عيوبنا ونتغاضى عن نقد أنفسنا، فسهام النقد التي في جعبتنا قد تم توجيهها إلى الآخر ولم يعد لدينا سهم واحد في الجعبة يمكن أن نوجهه إلى أنفسنا.
- وبذلك تتراكم مشكلاتنا يومًا بعد يوم دون أن نبذل الجهد المناسب لإيجاد الحلول الملائمة لها فالغرب لنا بالمرصاد يجهض كل محاولاتنا ويمسك بيده كل خيوط اللعبة الماكرة وهذا النمط من التفكير يريح الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية وبالتالي فإذا تخلفنا إذا كان هناك تخلف سببه الآخر وجماهير الأمة من

كثرة تعودهم على سماع ذلك قانعون راضون يصفقون طويلاً لمن على هذا الوتر ويخاطب عواطفهم وانفعالاتهم.

- إن النقد الذاتي هو الخطوة الأولى نحو الوعي بعيوبنا وأدوائنا وما نتحمله من مسئولية لما يعانيه العالم الإسلامي من التخلف ... الوعي بأننا نتحدث كثيرًا ولا نفعل شيئًا إلا أقل القليل ... الوعي بأن هناك واقعًا متخلفًا في إعلامنا الإسلامي يجب أن يتغير، الوعي بأننا نحن المسلمين نسهم بشكل أو بآخر بقصد أو بغير قصد بحسن نية أو بسوء نية في تخلف مجتمعاتنا الإسلامية.

- إن الآخر ينقد نفسه باستمرار وكثير من نقدنا له صادر في الأساس عنه... إننا في عالمنا الإسلامي في أشد الحاجة إلى تعديل مواقفنا وتطوير أسلوب تفكيرنا وتغيير سلوكنا والتعرف على الحقائق بطريقة موضوعية بعيدة عن أي ميول عاطفية أو انفعالات وقتية وهذه كلها أمور تتطلب المزيد من النقد الذاتي.

- إن المرحلة التي يعيشها العالم الإسلامي المعاصر لم تعد تحتمل هذا العبث بمقدرات الأمة فهذه المرحلة تعد من أخطر المراحل الحاسمة في تاريخ أمتنا الإسلامية إن لم تكن أخطرها بعد الهجمة الشرسة من التطاول والتعدي على دين هذه الأمة وعلى نبي هذه الأمة ﷺ من نشر لرسوم كاريكاتيرية تصوره بأنه إرهابي وأنه زير نساء وحاشا عنه ذلك في وجود هذا التضامن الأوروبي والذي اتسم بالتحدي للمسلمين مدعين أن هذه هي الحرية في أسلوب مستفز لمشاعر المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي وكان آخر هذه الهجمة القانون السويسري الذي يحظر بناء المآذن في سويسرا بناء على الاستفتاء الشعبي على هذا القانون والذي دعمه أحزاب يمينية متطرفة، إلا أن ردة فعل الأمة الإسلامية الرسمية والتي تمثلت في حكوماتها إنما جاءت بين التعجب والاستنكار بينما سلكت الشعوب الإسلامية طريق الغضب

مع أن الغضب وحده لا يكفي كما أنه لا يجب أن ننسى أن الغضب عمل سلبي والمطلوب الآن هو العمل الإيجابي.

- إن الضعف يغري القوي بمزيد من القمع لإضعاف وإخضاع الضعيف ومن هنا فإن المسلم عليه واجب كفرد وكجماعة وكدولة ألا وهو العمل من أجل الحصول على العلوم الحديثة والتكنولوجيا المتقدمة لأن هذه هي أداة العصر الحديث ولغته ومحور ارتكاز سياساته أما مسلمو الشعارات البراقة والمبادئ الخداعة فعليهم أن يتواروا حياءً وخجلاً فليس ذلك هو الإسلام.

حزمة من الكلمات والأوصاف التي اتهم بها الإسلام والمسلمون، وكتاب الله (جل شأنه) ورسوله الكريم، عليه أفضل صلاة وسلام، ترويها وسائل الإعلام الإسرائيلية عن الإسلام والمسلمين، وعن رسول الله ﷺ. فتزعم هذه الوسائل الصهيونية أن انتشار الإسلام كان بقوة السيف، و أطلقت الكتب الإسرائيلية الدراسية على الفتوحات الإسلامية التي قادها الرسول ﷺ والصحابة، بأنها «الحملات الحربية الإسلامية»، و تحدثت هذه الكتب عن تلك الفتوحات بأنها «عمليات احتلال إسلامي .. كانت تمثل أكبر الحملات الحربية في تاريخ البشرية، فلم يشهد مثلها العالم منذ عهد الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد».

و ذهبت بعض المناهج الدراسية التي تم تحليلها لاعتبارها أن الدين الإسلامي «ليس من عند الله ولكنه مفروض على قبائل شبه الجزيرة العربية من قبل الرسول محمد وأن مجيء الإسلام قد سبب مشاكل كثيرة للمسلمين». و أن الرسول طلب من المؤمنين به الانطلاق بحملات احتلال في العالم من أجل نشر الإسلام في العالم بأسره.

أما معجزة الإسراء والمعراج، فتقدمها المناهج اليهودية على أنها «أسطورة خرافية ابتدعها الإسلام ورسوله ويؤمن بها المسلمون ؛ لأن الرسول قصها على أهله

وأصحابه». وتقدم بعض الكتب الدراسية وصفاً للرسول محمد ﷺ ينطوي على خصال سلبية، وتصفه بالغارق في أحلام اليقظة، والمحارب، والمبتدع للدين الإسلامي، وتعرض صورته بمظهر يبتعد عن حياة التقشف والتواضع والتسامح التي تعرف عنه وعن بقية الأنبياء.

أما القرآن الكريم، بحسب تلك الكتب، فهو من نسج خيال النبي محمد ﷺ، ويستمد جزءاً كبيراً من تعاليمه و قصصه مما ورد في الكتب الدينية اليهودية. وتستخدم بعض الكتب الدراسية في إسرائيل المفردات الدينية اليهودية للتعبير عن المكونات والمفردات الإسلامية؛ فالقرآن يقدم على أنه توراة محمد، ويقدم الحديث النبوي والسنة الشريفة على أنها التوراة الشفهية التي تكمل القرآن.

وخلطت تلك الكتب الدراسية بين مفهوم الجهاد في الإسلام ومفهوم الإرهاب، بل حاولت في بعض الأحيان تقديم الجهاد على أنه صورة من صور العنف والاحتلال. و تضمنت هذه المناهج نصوصا عن الفتوحات الإسلامية تعرضها على أنها تعبير عن روح العداء والعنف لدى العرب.

ارتبطت هذه المزاعم بالدين الإسلامي الحنيف، وبالمسلمين، وبرسول الله ﷺ، لكننا بحاجة إلى تصحيح هذه الصورة المغلوطة بالكثير من الفهم والإدراك لما تلعبه وسائل الإعلام الصهيونية في عقول الغرب، ونتيجة لتوصيل رسائلهم بلغاتهم المتعددة وفي عقر دارهم، من تأليب العالم على الإسلام.

من بين الصور الإعلامية الأخيرة التي نشرت في وسائل الإعلام الصهيونية حول الدين الإسلامي الحنيف أن الرئيس الأمريكي، باراك أوباما، سقط مؤخرًا أمام الدين الإسلامي المتشدد والأصولي»، ورفع الراية البيضاء للأصوليين في العالم، حيث ذكر الكاتب الإسرائيلي «موشيه فايجلين في صحيفة» معاريف الصهيونية في

الرابع عشر من شهر يونيو للعام ٢٠٠٩، أن أوباما يبذل جهودًا لصالح العرب والمسلمين فحسب، دونما الاهتمام بمصالح إسرائيل، فقد كرس جل وقته للعالم الإسلامي، وما خطابه بجامعة القاهرة في الرابع من يونيو ٢٠٠٩، إلا تكريسًا للضعف والهوان والإذلال أمام الإسلام «المتشدد والأصولي». ومن الطبيعي أن نحاول نقل الترجمة الحرفية لنص المقال الذي يعتبره صاحب هذه الكلمات أنه من الأهمية ذكره للقارئ لاختلافه مع غيره من المقالات التي تربط صراع الإسلام مع الغرب، وربطه بالمصالح الصهيونية وبقاء الكيان الصهيوني على الأرض الفلسطينية المحتلة.

فيقول، فايجلين: «سيدي الرئيس أوباما، جاء الوقت الذي أقول لك فيه وأصارحك بصدق، أن ما تبذله من جهد لإذلال وتركيع نتنياهو ودولة إسرائيل يفسر بلا شك أنه تقرب إلى العالم العربي، وأن كان هناك اهتمام عميق أكثر بكثير من تضحية ساخر بإسرائيل سايل المصالح الأمريكية في الدول العربية إخطارًا القاهرة وسياساتك الجديدة تجاه المنطقة تأتي لفترة طويلة بعد سقوط برجي التوءم بمنهاتن بالولايات المتحدة الأمريكية، إن قيادتك ترفع الراية البيضاء أمام الإسلام الأصولي المنضم لمحور الشر والمجند للهوج على إسرائيل، والنجاح الحقيقي على ما يبدو في الانتخابات الرئاسية الأمريكية الأخيرة ليس لك، ولكنها لأسامة بن لادن! فالعالم كله ينظر بدهشة للرئيس الأمريكي وهو ينحني بنفسه أمام الطغاة الكذابين، في الكتاب المقدس، والتناخ، يقول الرب لإبراهيم: وأبركك وألعنك»، وأمامك يا أوباما أن تختار وشعبك الأمريكي ما بين خيارين، إما أن تكون بجانب البركة أو تكون بجانب اللعنة، والقرار يعود إليك! من القدس حيث يوجد المعبد اليهودي المقدس، كل الشعب الإسرائيلي يدعو الأمة الأمريكية وجميع شعوب الحرية، ألا

تقف أمام خطة السلام الحقيقة المفصلة أو المفسرة في كتاب الكتب، أو الكتاب المقدس، ولا تقف أمام سبط إسرائيل وأرضه أرض السلام، ولكن تجند من أجل سبط صهيون لتنعم بالبركة. وما إسرائيل إلا أنها حصلت على حقوقها من بين أنياب ٢٢ دولة عربية. إنها مشيئة الرب. على الشعب الإسرائيلي من الآن التركيز في قضايا حقيقة وضرورية وليس بإقامة دولة إرهابية عربية جديدة ولكن بالتعاليم اليهودية وزيادة الهجرة وبناء الدولة واقتصاد حر ومفتوح.

وفي الوقت الذي يشدد فيه الكيان الصهيوني على الاهتمام بالتعاليم اليهودية، وزيادة الهجرة اليهودية إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة، وبناء الدولة على أسس صحيحة وقومية، واقتصاد حر ومفتوح، يزعم أن الإسلام والمسلمين سيشكلون ضلعًا أساسيًّا في الحرب العالمية القادمة، والتي يطلق عليها اسم «الحرب العالمية الثالثة»، ومن الأمثلة على هذه الافتراءات والمزاعم، ما كتبه الصحفي اليميني المتشدد «عوز الموج» بصحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية، قائلاً: «الإسلام في حرب عالمية قادمة، لأن الدين الإسلامي والمسلمين ضد العالم، وما حزب الله اللبناني إلا دليل دامغ على ذلك، فالحرب الإسرائيلية الثانية على لبنان التي اندلعت أوزارها صيف ٢٠٠٦، ما هي إلا بروفة حقيقية لحرب ستلوح في الأفق، الحرب العالمية الثالثة، بين العالم الإسلامي والعالم الحر».

وأضاف الكاتب الصهيوني الموج، وهو بروفيسور في علم الاجتماعي بجامعة حيفا، في تطاوله على الإسلام والمسلمين إبان الحرب الإسرائيلية الثانية على لبنان، أن شعار «الله أكبر» الذي يردده المسلمون على الدوام في صلواتهم، وفي بيوتهم وفي كافة أشكال الحياة اليومية، وفي كافة أشكال الحياة اليومية باستمرار، ودون انقطاع، يشبه شعار« زيج » هي «بل» باللغة العبرية، وتعني« يعيش هتلر» بالعربية،وهو

الشعار الألماني المعروف، الذي كان يحيا به الزعيم الألماني النازي« أدولف هتلر» وفي الحرب العالمية الثانية وهو ما يعني أن الإسلام في الصورة الذهنية للكاتب الصهيوني، هو النازية الجديدة، في العالم في الوقت الراهن، وهو الإسلام المتشدد، أو التعصب الديني، فحسب كما أن الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، يحاول محو العالم الحر، مثلما حاول من قبل هتلر، وبأن السيد حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله اللبناني، لم يقم بالحرب الأخيرة بسبب مصالح فلسطينية أو لبنانية، وإنما قام بها باسم الدين الإسلامي لتدمير الشعب اليهودي، ودولة إسرائيل!

تدمير الشعب اليهودي يدفعنا للحديث عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حيث يرى الكاتب الصهيوني «يزهار مزراحي»، في الموقع الإلكتروني الإسرائيلي «haayal»، إن هذه الأحداث بأعمالها الإرهابية، قد أحدثت شرخًا كبيرًا لدى الغرب بصفة عامة والأمريكيين بصفة خاصة، وظهر بعدها تحول كبير في الرغبة تجاه منطقة الشرق الأوسط وشعوبها، ومدى رؤيتهم للعالم الإسلامي، وأصبح شعار الغرب آنذاك هو الحرب على الإسلام، وأول من رفعته الولايات المتحدة الأمريكية ومن ورائها حلفاؤها، إلا أن الشعار نفسه تحول من قبل تنظيم القاعدة، والإسلاميين المتشددين إلى الحرب ضد أمريكا، «خاصة أنهم يرون الجنود الأمريكيين وقد دنسوا الأراضي الإسلامية المقدسة بالمملكة العربية السعودية، وهو ما جعلهم يرون فيها دولة العدو أو الشيطان الأكبر»، في الوقت الذي رأت فيه الإدارة الأمريكية منطقة الشرق الأوسط بيتا كبيرًا للإرهاب وأن الإسلام يريد هدم ودس المسيحيين واليهود ورأى تنظيم القاعدة بدوره أن الإرهاب هو الحل الوحيد لوقف زحف أمريكا على المنطقة العربية.

حقيقة مسجد (قرطبة).. غرفة واحدة في طابق تثير قضية كبرى!

قد لا ترتبط قضية بناء مسجد في نيويورك بالقرب من مكان مركز التجارة العالمي الذي دمره هجوم ١١ سبتمبر بقرار هندسي أو إداري فقط، وإلا لما أخذ كل هذا الحجم من التفاعل والأخذ والرد.. فالقضية تبدو في أمريكا وفي العالم الإسلامي أكبر بكثير من مجرد بناء مسجد.

ولعل المطالع لبعض الكتابات الغربية والأمريكية التي تطرقت لموضوع المسجد يلحظ تشعب الأفكار والأطروحات التي تناولتها، تطلبت تدخل الرئيس الأمريكي باراك أوباما شخصياً، والذي دخل على خط الجدل الفكري بإعلانه تأييد بناء المسجد.. فما حجم هذا المسجد؟ وأين يقع تحديداً؟ ومن يؤيده أو يقف ضده؟ وما هو مصيره المتوقع؟

الإسلام فوبيا

الإسلام فوبيا أو إرهاب الإسلام.. هذا ما تبدو عليه الصورة في أشد تجلياتها وضوحاً حيال قضية بناء مسجد قرطبة قرب مكان مركز التجارة العالمي الذي دمره هجوم ١١ سبتمبر – فالمسجد (الغرفة) الذي لا يكتسي بأي ملمح ديني فلا مئذنة ولا قباب ويقع في مبنى مؤلف من ٣١ طابقاً في المنطقة المعروفة بالمنطقة صفر، أثار موجة عارمة من الاحتجاجات أدى تلاطم أفعالها وردود أفعالها إلى انعكاسات واسعة على الساحة الأمريكية يغلب عليها طابع الانفعال المبالغ فيه الذي لا

يتناسب مع حجم الفعل، لقد كانت الفرصة مواتية لليمين المتصهين لإذكاء المشاعر التي يتقد أوارها بذكرى يحاول هذا اليمين ربطها بالمسلمين وربط الإسلام بالإرهاب مستغلاً آلة إعلامية ضخمة وفاعلة يقود دفتها ويحرك عجلاتها اليهود الأمريكيون إلا من قلة قليلة تضيع أصواتها المنصفة والمعتدلة في زعيق الضجيج المتعالي.

الدستور الأمريكي الذي يكفل الحريات الدينية للجميع يحاول ساسة يمينيون تئز صدورهم بالحقد على الإسلام والكيد لأهله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٢٥]. يحاولون أن يلووا عنقه في اتجاه يخرج الإسلام من دائرة التسامح بزعمهم أنه صنو للإرهاب وللعنف، لتخلو لهم الساحة فهم يعلمون علماً لا شك فيه. جاذبية الإسلام ومخاطبته الحميمة لأشواق الأرواح المتعطشة لتعاليمه في الغرب إذا ما عرفوه على حقيقته ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ [يوسف: ٢١].

غرفة في طابق!!

قد يتصور البعض أن مسجد (قرطبة) الذي سوف يقام في منطقة مانهاتن في نيويورك، بجانب المبنى الجديد الذي أقيم على أنقاض برجي التجارة العالميين، هو عبارة عن مسجد كبير بحجم المساجد المعهودة، إلا أنه أصغر من ذلك بكثير، فهو عبارة عن غرفة واحدة ضمن طابق يضم مركزاً اجتماعياً.

ويقع المسجد في مبنى مؤلف من ١٣ طابقاً، سيضم إلى جانب المسجد، قاعات اجتماعات ومدرجاً ضخماً بالإضافة إلى مسبح، كما يضم المبنى ملعباً لكرة السلة، ومركزاً لحضانة الأطفال، بالإضافة إلى نصب تذكاري لضحايا هجمات ٢٠٠١، وقد اشترطت هيئة الحفاظ على معالم مدينة نيويورك بأن يقام هذا المركز شريطة عدم إضفاء أي ملامح دينية خاصة مثل القبب أو المآذن وما شابه.

وقد وافق القائمون على المشروع على هذه المطالب، وتم التخطيط لإقامة هذا المبنى والمسجد، إلا أن الكثير من الأمريكيين أعلنوا رفضهم لإقامة هذا المسجد، خاصة وأنه يقع في المنطقة التي تعرف اليوم باسم المنطقة (صفر).

ولعل الاسم الذي اختاره القائمون على المشروع أثار جدلاً أكبر وأوسع، حيث تم اختيار اسم (بيت قرطبة) ليشمل المبنى والمسجد، الأمر الذي وجده البعض إمعاناً في إظهار قوة الإسلام ومجده، خصوصاً وأن اسم قرطبة مرتبط بالفتوحات الإسلامية في أسبانيا التي انتصر فيها المسلمون على النصارى في عقر دارهم.

عداء وتطرف

ما إن أعلنت صحيفة التايمز لأول مرة أواخر عام ٢٠٠٩ عن إمكانية بناء مسجد للمسلمين في المنطقة (صفر) بنيويورك، حتى بدأت المواقف الرافضة لبناء المسجد ولمكانه تحديداً، على الرغم من أن المكان نفسه كان يضم مسجداً للمسلمين في نفس المنطقة قبل سقوط برجي التجارة العالميين.

وانقسم الأمريكيون، شعباً وحكومة، بين التأييد والرفض، حيث تصدرت بعض الشخصيات السياسية لهذا المسجد، من بينهم هاري ريد (زعيم الأغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ) والذي عبّر عن معارضته الشديدة لهذا المسجد، مقترحاً أن يتم بناء المسجد والمركز في مكان آخر بعيد عن مكان برجي التجارة العالميين السابقين. إلا أنه وفي نفس الوقت أعلن احترامه للدستور الأمريكي الذي ينص على كفالة حرية المعتقد الديني للأمريكيين.

ومن بين أكثر المعارضين شراسة لبناء مسجد قرطبة، باميلا جيلر، الأمريكية اليهودية الأصل، والتي قادت منذ عدة أشهر حملة إعلامية عبر وسائل الإعلام ومن خلال شبكة الإنترنت لمعارضة بناء المركز الإسلامي.

ولم يكن غريباً أن تكشف صحيفة الغارديان مؤخراً، عن وجود علاقة بين جيلر وبين رابطة الدفاع الإنجليزية اليمينية التي تعمل على محاربة ما تسميه انتشار المد الإسلامي في إنجلترا.

كما تصدر سياسيون أمريكيون كبار على غرار نوت جينجريتش (قائد ثورة الجمهوريين في عام ١٩٩٤ والطامح للتنافس على مقعد الحزب الجمهوري في انتخابات الرئاسية الأمريكية المقبلة ٢٠١٢)، وسارة بيلين (نائبة جون ماكين في انتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة ٢٠٠٨م)، والذين قاموا بتأجيج الجدل الدائر حول مسجد نيويورك على الرغم مما ينطوي عليه من إساءة للإسلام.

وبدأت مراكز الدراسات التي نشطت في إجراء استبيانات حول آراء الأمريكيين من بناء المسجد في منطقة مانهاتن بنيويورك، أكدت أن نتائج دراساتها جاءت متقاربة جداً، إذ تتراوح نسب الأمريكيين الرافضين لبناء مسجد قرطبة ما بين ٦٠٪ إلى ٧٠٪ من الأمريكيين الذين شاركوا في التصويت.

إلا أن شبكة الـ(BBC) البريطانية تلفت النظر إلى قضية مهمة، وهي أن الكثير من الأمريكيين يعتقدون أن مسجد قرطبة سيكون مثل غيره من المساجد الكبيرة، حيث تقول: «إن الجدل الدائر حول هذا الموضوع يعطي انطباعاً بأن المركز الإسلامي سيقام في ذات موقع برجي مركز التجارة، وأن نيويورك ستغص بأصوات النداء للصلاة من منارات وقباب المصلى المزمع إقامته في إحدى الشوارع القريبة من المركز».

الرئيس الأمريكي باراك أوباما دخل إلى خط النقاشات الدائرة حول موضوع المسجد، معلناً تأييده لإقامة المسجد في المنطقة، وقال: «إنه يؤيد حق المسلمين في بناء مركز لهم في الموقع المقترح بنيويورك».

وأوضح أوباما بعد أيام أنه يؤكد على احترام الحقوق التي كفلها الدستور الأميركي.

أما المؤيدون للمشروع فإنهم يرون أن مسجد قرطبة سوف يوفر فرصة لنشر الوعي والفهم الصحيح للإسلام، يعمل على وقف الانقسام الذي خلفته أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، خاصة وأن الجالية اليهودية لديها مركز في منطقة مانهاتن، كذلك توجد في نفس المدينة جمعية للشبان المسيحيين.

قرطبة- دلالات التاريخ

لم تقف حدود الخلاف في موضوع مسجد قرطبة عند مكان إقامته، بل بات الخلاف الدائر أيضاً حول إسم المشروع نفسه، وهو إسم (قرطبة) الذي يشير إلى مجد الإسلام والمسلمين في أوروبا وإسبانيا، وتغلب المسلمين على الصليبيين قبل ١١ قرناً في قلب الأراضي النصرانية.

وتنقل صحيفة (الأيكونومست) عن الإمام فيصل عبدالرؤوف (إمام مركز قرطبة الإسلامي المزمع إقامته في مانهاتن) قوله: (إنه اختار اسم قرطبة تذكرة للزمن الذي كانت فيه بقية أوروبا غارقة في العصور المظلمة عندما أقدم المسلمون على إقامة واحة من الفنون والثقافة والعلوم في قرطبة).

يقول أحد المعلقين الأمريكيين على اسم المسجد والمركز: (إن أنصار بناء المسجد لا يفهمون أن (قرطبة) هو مصطلح يتعمد الإساءة، لأن قرطبة، عاصمة إسبانية خلال وجود الفاتحين المسلمين فيها، ترمز إلى انتصار المسلمين على الأسبان المسيحيين، والذين تمكنوا من تحويل الكنيسة هناك إلى ثالث أكبر مسجد في العالم).

ومع ذلك، يرى المؤيدون لهذا الاسم، أن اسم قرطبة يرمز إلى التعددية الدينية التي كانت حاضرة في إسبانيا خلال وجود الفاتحين المسلمين، وإلى وجود نماذج من

الانفتاح على حضارة الآخر فكرياً وفلسفياً وعلمياً وزراعياً وغيرها، الأمر الذي يشير إلى انفتاح المسلمين في أمريكا على الآخرين، وعدم انغلاقهم ذاتياً في مجتمعاتهم، حيث شهدت قرطبة القديمة وجود الفيلسوف اليهودي ابن ميمون إلى جوار الفيلسوف المسلم ابن رشد، وفيها أحييت اللغة العبرية بعد اندثار.

القيم الأمريكية على المحك

لا يخفى البعض اهتمامهم بمتابعة مصير بيت ومسجد قرطبة في نيويورك، ليس لأنهم من المتابعين الجيدين للأحداث السياسية، بل لأنهم يريدون أن يقيموا مدى ثبات القيم الأمريكية التي تدعو إلى التعددية والحريات الدينية والشخصية. وحول هذا الموضوع كتب روبرت كورنويل (الصحفي في جريدة الاندبندنت البريطانية) يقول: (إن السياسيين الأمريكيين يصعدون حملتهم المعارضة لبناء المركز الإسلامي قرب موقع مركز التجارة العالمية إلا أن النتيجة هي اختبار حقيقي للقيم الأمريكية).

ولم تغب هذه الحقيقة عن الرئيس الأمريكي أوباما، الذي أكد أن دعمه لإقامة المسجد، هو بمثابة دعم لقيم الدستور والقانون الأمريكي، حيث يقول: (هذه هي أمريكا والتزامنا بالحرية الدينية يجب ألاّ يتزعزع).

هذه القيم أيضاً كانت مدعاة للحديث الفكري والفلسفي أيضاً، ومناسبة للحديث عن الحريات الدينية، حيث كتب فريد زكريا (وهو أميركي مسلم هاجر من الهند، ورئيس تحرير مجلة نيوزويك الأمريكية) يقول: (إن الحساسية طريق ذو اتجاهين). وأضاف بالقول: (إذا اعترض بعض الناس على بناء مسجد في نيويورك بالقرب من مكان مركز التجارة العالمي الذي دمره هجوم ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١، وقالوا: إن المكان (مقدس) وأن بناء المسجد يؤذي (أحاسيسهم)، ففي الجانب

الآخر، يرى المسلمون أن مسجدهم (مقدس)، وأن منعهم من بنائه في أي مكان يرون أيضاً أنه يؤذي (أحاسيسهم).

وقد جاءت مناسبة الحديث عن هذا الموضوع كنقطة نقاش اعتبرها الصحفي محمد علي صالح في واشنطن أنها تتناسب مع الحديث عن قيم الحرية الدينية في أمريكا، حيث عرف حرية الفرد الدينية بأنها (الخط الفاصل بين التعبير عن رأي في دين معين، وإغضاب الذين يمارسون هذا الدين)، فكان موضوع مسجد قرطبة خير مثال للتعبير عن الحد الفاصل بين الحرية في بنائه أو رفضه، وغضب الرافضين أو المؤيدين له.

الخيار (واحد) في المنطقة (صفر)

وسط كل هذا التناقض، يبدو مركز قرطبة وهو يمضي بطريقه بشكل ثابت، دون الالتفات إلى الدعوى العنصرية التي تطالب بتغيير مكانه، أو إيقافه، أو تحويله إلى رمز ضد الإسلام والمسلمين.. ففي نيويورك نقلت وكالة الاسوشيتدبرس عن ديزي خان (زوجة الإمام عبدالرؤوف وشريكته في مقترح بناء المسجد) قولها: (إن المنظمين مصرون على المشروع على الرغم من الاحتجاجات، وأن إسقاط مشروع خطة البناء هو بالتأكيد ليس خياراً على الإطلاق).

وأضافت خان التي تترأس أيضاً الجمعية الأمريكية لنهوض المسلمين بالقول: «إن المنظمين لا يفكرون في تقليص المشروع أو تغيير الموقع، ولكنه يجري التشاور أكثر عن كثب مع زعماء المنظمات الإسلامية الأميركية»، مؤكدة أن (قادة المنظمات الإسلامية في الولايات المتحدة يدركون أن الضجة المثارة حول المركز تؤثر على المسلمين في جميع أنحاء الولايات المتحدة، ونحن نعلم أن لدينا الحق في القيام بذلك، ولكن ما هو حق المجتمع، أو مصلحة المجتمع المسلم).

أوباما غير نادم على دفاعه عن بناء مسجد

أكد الرئيس الأمريكي، باراك أوباما، أنه «ليس نادمًا» على دفاعه عن حق المسلمين في بناء مسجد قرب موقع هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بنيويورك.

وردًا على سؤال لقناة «ان.بي.سي» حول هذا الموضوع -على هامش زيارة إلى عائلة أمريكية من الطبقة المتوسطة في كولومبوس (أوهايو، وسط)- قال أوباما باختصار شديد «الإجابة هي: لا ندم». ودافع أوباما عن حق المسلمين في بناء مسجد قرب موقع برجي مركز التجارة العالمي اللذين دمرا في هجمات ١١ سبتمبر في نيويورك، مستندًا في دفاعه إلى حرية العقيدة والدين التي يكفلها الدستور.

وأثارت تلك التصريحات زوبعة إعلامية واستياء عائلات ضحايا تلك الاعتداءات، في حين اغتنم العديد من أعضاء المعارضة الجمهورية، بمن فيهم المرشحة إلى نيابة الرئاسة سابقًا سارة بيلين، الفرصة واتهموا الرئيس بأنه بعيد عن انشغالات المواطنين.

وحتى بعض المقربين من أوباما مثل زعيم الديموقراطيين، هاري ريد فقد نأوا بأنفسهم عن الرئيس في هذه القضية خوفًا من انعكاسات الجدل على شعبيتهم قبل شهرين ونصف من انتخابات تشريعية حاسمة.

مخاوف الجمهوريين:

هذا، ويخشى الجمهوريون أن يؤدي الموقف الرافض من مشروع بناء مسجد، بالقرب من موقع هجمات ١١ سبتمبر إلى انعكاسات سلبية على المرشحين في حملاتهم لانتخابات الكونجرس النصفية المقررة في نوفمبر القادم.

وحذرت شخصيات نافذة عدة من الحزب الجمهوري من التعاطي مع مسألة

بناء المسجد وهو جزء من مشروع بناء مركز إسلامي، بالقرب من مبنى برجي مركز التجارة العالمي، الذي تعرض للانهيار في هجمات سبتمبر قبل سنوات، في وقت يتصاعد فيه الجدل حول المشروع الذي تخطى عقبة مهمة هذا الشهر، بموافقة لجنة على بنايتين في الموقع المحدد الذي لا يبعد سوى بنياتين عن «الموقع صفر».

وذكرت صحيفة «واشنطن بوست»، أنه فيما يستغل مرشحون جمهوريون وفي مختلف أنحاء البلاد اقتراح بناء المسجد في حملاتهم الانتخابية، يزداد قلق شخصيات نافذة في الحزب من أن يكون رد فعل هذه المسألة عكسيًا.

وقالت : إنه وعلى الرغم من تنامي رفض الرأي العام للمشروع، فإن إستراتيجيين جمهوريين يرون أن ثمة مخاطر جمة في الدفع بهذا الاتجاه بقوة.

ومن هؤلاء ديفيد وينستون، المتخصص في استطلاعات الرأي، والذي يقدم المشورة لقادة الحزب الجمهوري في الكونجرس، بعد أن أبدى قلقه من أن يتغلب الجدل حول المسجد على المسائل التي تهم الناخبين، وأضاف إنه رغم أن هذه المسألة ولدت بالتأكيد الكثير من العواطف، إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالتصويت ستكون الانتخابات بشأن الاقتصاد والوظائف.

وأشارت الصحيفة إلى أن ما يتخوف منه الحزب الجمهوري هو أن يظهر رفض بناء المسجد على أنه غير متقبل للاختلاف الديني.

وقال الرئيس السابق للجنة الجمهورية الوطنية إيد جيليبسي : إن أحد أكبر المخاطر في السياسة هي الإفراط في استخدام مسألة معينة، محذرًا من أن الناخبين قد يخلصون إلى أن الجمهوريين الذين يعارضون بناء المسجد يتخذون موقفًا ضد الإسلام بشكل عام.

أصبحت مدينة جينزفيل التي لا يتجاوز تعداد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة،

والمشهورة بجامعتها وفريق كرة القدم الأمريكي، محط أنظار العالم الآن بقرار قس غير معروف إعلان يوم سمّاه بالعالمي لحرق نسخ من مصاحف، فيما أكد سكان المدينة أن القس تيري جونز لا يمثلهم، بحسب تقرير لقناة «العربية»، الخميس ٩-٩-٢٠١٠.

وقال رجل من سكان المدينة : « إن القس يعبر عن الكراهية وهو لا يمثلنا»، وأضافت امرأة أن «هذا سيعقد من نتائج أحداث ١١ سبتمبر (أيلول) ويزعج المزيد من الناس، وأتمنى أن تكون هناك طريقة لإيقافه، إنني أشعر بالحرج»، وتابع ثالث «القس متطرف والمسلمون لديهم حساسية كبيرة إزاء تلك القضايا».

وأكدت امرأة تقطن في نفس حي كنيسة جونز أن «الإعلام يزيد الحطب على النار، وهو مجنون (القس) وما يفعله بحرق كتب دينية خطأ».

ويرى زياد غانمي، وهو عربي يعيش في جينزفيل، أن «ألاعيب القس المثيرة للجدل ليست جديدة على الجالية المسلمة هنا».

قادة الأديان في أمريكا يهاجمون جونز

وبعيداً عن فلوريدا، إلى قلب واشنطن، شاركت «العربية.نت» في اجتماع دعا إليه زعماء دينيون من مختلف الديانات المسحية والإسلامية واليهودية في العاصمة واشنطن، وذلك لحث القس تيري جونز راعي كنيسة دوف التبشيرية في ولاية فلوريدا الأمريكية على التخلي عن خطته المشؤومة لحرق نسخ من مصاحف في الذكرى السنوية لهجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر).

وفي بداية اللقاء، قالت د. إنغريد ماتسون رئيس الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية «على أي مسلم في أي جزء من أجزاء العالم، أن يعرف أن هذه الأصوات النشاز لا تمثل أمريكا، ولا تمثل المسيحية أو اليهودية».

وتابعت ماتسون قائلة: «هؤلاء الناس (زعماء وقادة الديانات في الولايات المتحدة الأمريكية) يمثلون القيم الحقيقية ووجهات نظر الغالبية العظمى من اليهود الأمريكيين والمسيحيين، لذلك لا نرى أن هذه الأحداث البغيضة ليس لها أي تبرير، إنما هي نوع من الكراهية ضد المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية».

أما الحاخام نانسي فوكس كرايمر، وهو أستاذ مشارك في الدراسات الدينية في كلية RE CONSTRUCTIONIST اليهودية، فقال: «إننا نقف إلى جانب المبدأ القائل إن مهاجمة أي دين في الولايات المتحدة هو بمثابة عنف موجه ضد الحرية الدينية لجميع الأمريكيين».

وأكد أن «التهديد بحرق نسخ من مصاحف ما هو إلا جريمة شنيعة، لا سيما أننا نطالب اليوم بأقوى إدانة ممكنة من الزعماء الدينيين. نحن ندعو الجميع إلى الكياسة في الحياة العامة والسعي لتكريم ذكرى الذين فقدوا أرواحهم في ١١ سبتمبر».

وقال الكاردينال ماك كاريك تيودور، وهو رئيس أساقفة واشنطن الفخري: «هذه أفعال من مجموعة متطرفة صغيرة جداً، وهم يعتقدون أنهم يفعلون الشيء الصحيح وأنا واثق أنه خلاف ذلك».

وأضاف: «الذين أخذوا أنفسهم خارج التيار الرئيسي للمسيحية أو اليهودية أو الإسلام أعتقد أنه من المهم أن نبعث لهم رسالة يمكننا أن نخبرهم فيها أن هذا لا يعبر عن جوهر أمريكا الحقيقي».

من جهته، قال الحاخام ديفيد سبرستين من مركز العمل الديني لإصلاح اليهودية: «وراء الكواليس هناك الكثير من النقاش يدور في محاولة لإقناع هؤلاء الناس بالتخلي عن تنظيم هذه الفكرة. أدعو الأمريكيين جميعاً أن يقفوا معاً للتنديد به والتأكيد على أن هؤلاء ليس لهم من مكان في الحياة الأمريكية».

وقد أدان الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون الأربعاء مشروع مجموعة أمريكية بإحراق مصاحف، معتبراً أن مثل هذه الأعمال لا يمكن أن تحظى بدعم «أي ديانة».

كما أدان الرئيس اللبناني ميشال سليمان عزم كنيسة أمريكية معادية للإسلام إحراق مصاحف السبت لمناسبة ذكرى اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، معتبراً ذلك «منافٍ لتعاليم الديانات السماوية».

واستهجن سليمان، بحسب ما جاء في بيان صادر عن مكتبه، «ما أعلنته مجموعة دينية في الولايات المتحدة عن نيتها إحراق نسخ من القرآن الكريم على الملأ»، معتبراً ذلك «منافياً بصورة صارخة لتعاليم الديانات السماوية السمحاء، ويتناقض كليًّا مع منطق حوار الحضارات والأديان والثقافات».

ودعا إلى «التبصر ملياً في التعاليم المسيحية والمفاهيم الإنسانية التي تشدد على محبة الآخر واحترامه».

تفرقة بين المسلمين والمسيحيين

وفي سوريا أدان المسيحيون دعوة قس الكنيسة الأمريكية البروتستانتية إلى إحراق المصحف في كنيسته، واعتبروا دعوته معادية للإسلام وتهدف إلى التفرقة بين المسلمين والمسيحيين، وترتبط بحملات «صهيونية»، كما ذكر مصدر رسمي الأربعاء.

ونقلت صحيفة تشرين الحكومية عن النائب البطريركي العام في دمشق للروم الملكيين الكاثوليك المطران جوزيف العبسي وصفه لهذا التصرف «بالمخزي»، معتبراً القس صاحب هذه الفكرة إنسانا «ليس عاقلاً، وما يقوم به عمل شيطاني، لأن أبسط قراءة للإنجيل ترفضه».

وأشار المطران العبسي إلى أن تصرف القس تيري جونز يدل على عدم معرفته

بالقرآن، موجهاً إليه دعوة لزيارة سوريا «ليعرف حقيقة الإسلام».

وأكد المطران أن «هذه الجماعات التي تطلق دعوات كهذه، وهدفها الإيقاع بين الإسلام والمسيحية، لم تأت منفردة؛ بل يوجد رابط معها مع الحملات الأخرى التي تقودها الصهيونية».

بدوره اعتبر الوكيل البطريركي لبطركية الروم الأرثوذكس المطران غطاس هزيم أن جونز «لا يمثل المسيحية وإنما شخصه» معتبراً أن الذين يريدون استفزاز الناس «هم أعداء المسيحية أولاً والإسلام ثانياً».

وتابع «ما من مستفيد في هذه المنطقة تحديداً إلا إسرائيل التي تريدنا على خصام وتقاتل»، داعياً القس إلى اختبار «الروحانية الشرقية المتأثرة فيها كل الديانات الشرقية بما فيها الإسلام».

من جهته اعتبر مدير الديوان البطريركي للسريان الأرثوذكس المطران جان قواق أن «ليس كل شخص تحدث أي كلمة يمثل المسيحية، فالمسيحية لها مرجعيات ومجالس».

وناشد قواق كل مسلم في سوريا «ألا يحكم على المسيحيين من تصرفات أناس غير مسؤولين (...) والذي أخشاه أنهم مدفوعون من الصهيونية العالمية».

بدوره اعتبر المسؤول في الطائفة المارونية في دمشق الأب طوني دورة أنها «دعوة لإثارة الفتن، ملبية بذلك رغبة من ابتدعوا هذه الجماعات وهي الصهيوينة العالمية لتشويه صورة المسيحية في عيون المسلمين، ودفع ذوي الحمية والبساطة من إخوتنا المسلمين وإقحامهم في ردود أفعال تشوه صورة الإسلام في نظر العالم».

وعبر نائب رئيس المجمع الأعلى للطائفة الإنجيلية في سوريا ولبنان القس صموئيل حنا عن «سخط واستنكار» الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط «للفكر

الذي يطلقه هذا القس»، معتبراً أنه «عمل لا يمت إلى المجتمعات المتمدنة ولا حتى البدائية».

ووصف تصريحات جونز بأنها «غير إنسانية وغير أخلاقية»، معتبراً هذا العمل «يثير النعرات الطائفية والدينية في المجتمعات الإنسانية».

كما دان رئيس طائفة الأرمن في سوريا ورئيس المجلس العالمي للأرمن البروتستانت القس هارونيون سليميان «هذا العمل اللامسؤول»، معتبراً أن مخطط جونز «عمل أخرق يعبر عن حقد أعمى».

ووجه راعي كنيسة دمشق للروم الكاثوليك الأب إلياس زحلاوي رسالة إلى القس جونز يسأله فيها «عن أهداف الدعوة التي أطلقها»، مخاطباً إياه «تعال إلى دمشق لأجعلك تعيش خبرة ما كانت تخطر لا ببالك ولا ببال جميع كنائس الغرب وأساقفته وكهنته وقساوسته».

الفاتيكان يعتبرها إهانة

من جهته، أعلن المجلس البابوي للحوار بين الأديان التابع للفاتيكان في بيان الأربعاء أن مشروع القس الأمريكي «تيري جونز» لإحراق المصحف سيشكل «إهانة خطرة إزاء كتاب مقدس بنظر أتباعه». وقال المجلس البابوي أنه «تلقى بقلق كبير خبر مشروع "يوم إحراق نسخ من القرآن" في ١١ سبتمبر».

وأضاف «لا يمكن معالجة أعمال عنيفة تدعو إلى الأسف» على غرار اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة، بمشروع مماثل لمجموعة مسيحية متطرفة في فلوريدا.

وشدد المجلس على أن «كل ديانة مع كتبها المقدسة وأماكن عبادتها ورموزها، لها

الحق في الاحترام والحماية». وتابع إن «هذا الاحترام ينبع من كرامة الأشخاص المنتمين إلى هذه الديانة وخيارهم الحر على الصعيد الديني».

واعتبر المجلس البابوي أن «جميع المسؤولين الدينيين وجميع المؤمنين مدعوون إلى تجديد إدانتهم الشديدة لأي من أشكال العنف وخصوصاً ذلك الذي يرتكب باسم الدين».

وكانت صحيفة «أوسر فاتوري رومانو» الناطقة باسم الفاتيكان نقلت الأربعاء عن أسقف لاهور ورئيس المجمع الأسقفي الباكستاني لورانس جون سالدانها قوله: «نندد بشدة بهذه النية وهذه الحملة التي تتعارض مع الاحترام الواجب لكل الديانات وتتعارض مع عقيدتنا وإيماننا».

وفي ألمانيا قوبلت خطط حرق نسخ من مصاحف في ولاية فلوريدا الأمريكية، بانتقادات شديدة من قبل مسؤولين مسيحيين ويهود. ووصفت الكنيسة الإنجيلية في ألمانيا خطة حرق نسخ من مصاحف في الذكرى التاسعة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر بأنها «استفزاز لا يمكن تحمله» وأكدت أنها تنأى بنفسها عن هذا التصرف المستفز.

وقال القس مارتين شنايدهوته الأربعاء في هانوفر: «إن حرق نسخ من القرآن لا يتفق مع قيم المسيحية، ولا يساهم بأي طريقة في حل المشكلات وخلق الثقة». مشيراً إلى أن القيام بمثل هذا العمل في وقت يتزامن مع احتفالات المسلمين في العالم بعيد الفطر لن يساعد في حدوث التفاهم بل سيعطي بيئة خصبة للمتطرفين.

وأكد شنايدهوته على ضرورة احترام الكتب المقدسة لأصحاب الديانات الأخرى ولا سيما في دولة مثل الولايات المتحدة التي يستند تاريخها على حرية المعتقدات الدينية.

من جهته أعرب المجلس الأعلى لليهود في ألمانيا عن صدمته من خطط حرق نسخ من مصاحف في الولايات المتحدة. وقالت رئيسة المجلس تشارلوته كنوبلوخ اليوم في ميونيخ: «هذا التصور مفزع ويمثل خرقاً واضحاً». ذكرت في الوقت نفسه بعملية حرق الكتب التي نفذها النازيون عام ١٩٣٣.
واستشهدت كنوبلوخ بكلمة للشاعر الألماني هاينريش هاينة تقول فيها: «أينما تحرق الكتب، يُحرق البشر في النهاية أيضا».

وشددت كنوبلوخ على أهمية عدم السماح بسيطرة سياسة الكراهية وجعلها تنجح في النهاية معربة عن أملها أن تكون الغلبة في النهاية للعقل ولروح الحرية.

الاتحاد الأوروبي يُدين

وفي السياق ذاته، قالت متحدثة باسم وزيرة خارجية الاتحاد الأوروبي كاثرين أشتون الأربعاء: «إن الاتحاد يدين الدعوة التي أطلقتها كنيسة أمريكية معادية للإسلام في فلوريدا لإحراق مئات المصاحف السبت».

وصرحت المتحدثة للصحافيين أن «الممثلة العليا (أشتون) تحترم كافة المعتقدات الدينية، وهذا العمل غير صائب»، في إشارة إلى إعلان قس أمريكي خطته حرق مئات المصاحف في ذكرى هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١.

وعززت السلطات الأمريكية إجراءات الأمن في مدينة جينزفيل بولاية فلوريدا، وهي المدينة التي تشهد خطة مثيرة للجدل من جانب قس مغمور ينوي حرق نسخ من المصاحف، وذلك يوم السبت الذي يوافق الذكرى التاسعة لهجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) على الولايات المتحدة عام ٢٠٠١.

وكان القس تيري جونز من مركز «دوف وورلد أوت ريتش»، أعلن أن يوم السبت سيكون «يوماً عالميًّا لحرق نسخ من المصحف»، مما أثار انتقادات واسعة من

البيت الأبيض وزعماء دينيين من جميع الديانات في أنحاء الولايات المتحدة.

وقال مدير الاتصالات بالمدينة بوب وودز: «لضمان السلامة العامة فإن مدينة جينسفيل تراقب الوضع عن كثب مع وضع خطط تضم مجموعة واسعة من خطط الطوارئ». ولم يذكر تفاصيل أخرى عن الإجراءات الأمنية المخطط لها، مشيراً إلى مخاوف أمنية.

وتحظر عمليات الحرق في العراء وخارج المنازل بمدينة جينسفيل وتحتاج إلى تصريح. وقال وودز لوكالة الأنباء الألمانية : إن إدارة مكافحة الحريق رفضت منح جونز هذا التصريح. وفي حال مضي جونز قدماً في خطة حرق المصاحف، فإنه بذلك ينتهك أنظمة المدينة.

وأضاف وودز أن مسؤولي المدينة التقوا كثيراً مع ممثلين عن مركز دوف لإلغاء الخطة.

وقال عمدة المدينة كريج لو، في بيان: «أدين السلوك العدواني الموجه إلى جيراننا المسلمين وأصحاب العقيدة الإسلامية في أنحاء العالم... جماعة دوف مجموعة متطرفة صغيرة وتسبب الحرج لمجتمعنا».

الشارع الأمريكي غاضب

من جانب آخر، سجلت «العربية.نت» ردود أفعال مسلمين أمريكيين في مركز دار الهجرة في ولاية فرجينيا، ودار الهدى في مدينة مناسس الأمريكية، ومسجد البيت المكرم، والمركز الإسلامي في واشنطن ومسجد الهجرة الأولى في منطقة واشنطن دي سي.

وقال الشيخ إحسان محمد لـ«العربية.نت»: «باختصار شديد، تيري جونز يريد أن ينصب نفسه حاكماً على النوايا في الأرض، أنا أقسم بالله وأنا صائم، لو وقع

يدي كتاب الإنجيل الآن لرفعته إلى مكان طاهر نظيف، لأنه لا يكتمل عندنا إسلامنا إلا إذا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خير وشره».

وتابع الشيخ إحسان قائلاً: «حرق نسخ من المصحف لا يحسبه تيري جونز هو خير له بل هو شر له، فأحسب أن هذا الرجل باء بغضب الناس في الولايات المتحدة الأمريكية قبل غضب الله الجبار الكبير، لو كان يعقل ويعلم قدرة الله على خلقه».

أما الشاب الأمريكي الأسود جيررد فيلر (٣١ عاماً)، وهو من أصول أمريكية وقد اعتنق الإسلام قبل شهرين، فيقول لـ«العربية.نت»: والله إن المقصود بحرق نسخة من المصحف هو الرئيس أوباما لقصد إحراجه بحجة سعة الحرية والتعبير عن الرأي، وأن يصنع الأمريكي ما يشاء في بلد رمزه تمثال الحرية المزعوم، لكي لا تجدد ولايته للرئاسة ثانية ونحن في أجواء انتخابات».

وتابع فيلر الذي سمى نفسه يوسف قائلاً: «أخبروني الشباب الذين معي أن للبيت رب يحميه، وأقصد الكعبة الشريفة في مكة المكرمة، وللقرآن منزلة عظيمة لن يحتاج لجهد مسلم كي يدافع عنه، لكن نحن ننصر ديننا بالرفض والشجب والاستخفاف بأفكار المتطرفين سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، كما أرى أن تيري جونز اليوم متطرف تجاوز كل حدود اللياقة في التعامل مع من يشاركوه حب بلادهم من المسلمين».

أما محمد أمين، وهو مسلم باكستاني (٢٢عاماً) فقد أخبر «العربية.نت» قائلاً: «أريد أن أتحدث بوضوح، أن نسخة المصحف الذي يريد أن يحرقها تيري جونز يعلمنا أن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خائبين خاسرين مدحورين، وليس هناك مقارنة بين فرعون وجنوده وبين هذا القس المغمور، الذي لا يتعدى أنصاره ١٠٠ شخص».

واستطرد بالقول: «أخشى أن تجلب فعلة جونز الويلات ويقتل الحوار الذي ينمو يومياً في الولايات المتحدة بين الأديان والأعراق والأفكار بسلاسة».

وفي كلمة له خص بها «العربية.نت» قال المواطن الأمريكي من أصول عربية جلال إسماعيل، وهو حافظ للقرآن الكريم عن ظهر قلب، «يحاول تيري جونز وأتباعه حرق أوراق المصحف، لكن لا سبيل لهم إلى حرق القرآن في قلبي، والله سيطفئ ما أوقدت أفواههم من نيران الكلام الحاقد والفعل المشين».

أما المواطنة الأمريكية سندس إسماعيل (٤٤ عاماً)، وهي من أصول عربية تونسية، فقالت: «يا أخي، أريد أن أسأل هذا القس، هل سمع تيري جونز في دولة إسلامية أنه تم حرق إنجيل أو توراة؟ هل سمع أن المسلمين حرقوا تلموداً أو كتاب الوصايا العشر؟ هل سمع أن المسلمين أقدموا على إقامة تجمع للاحتفال والتباهي بحرق مقدس مسيحي؟».

نشر موقع (٥٨٣) الأمريكي المختص في صناعة الإحصاءات على صفحات موقعِه مقالاً إحصائيًّا، أشرف عليه الباحث المساعد «توماس دولار»، والكاتب السياسي صاحب عمود الشؤون الدولية بإحدى الصُّحف «رينارد سيكستون»، يستفسر فيه عن موجةِ كراهية الإسلام التي تجتاح أوروبا مِن خلال استعراضه موقفَ بعض الدول الأوروبية ضدَّ الإسلام، يقول فيه:

«بعد انهيار التحالُف الحكومي الهولندي بقيادة «جان بيتر بالكينيند» في فبراير الماضي، والإعلان عن انتخابات جديدة تَتمُّ إقامتها في التاسع مِن يونيو القادم، وفي ظلِّ الغموض الذي يُحيط بإمكانيَّة تحديد الحِزْب الذي من الممكن أن يحصدَ أغلبية المقاعد، تتَّجه الأنظار إلى «حزب الحرية» اليميني المعادي للإسلام، تحتَ زعامة المتطرِّف «خيرت فيلدرز»، والذي أنتج فيلم «فتنة» المسيء للإسلام وشريعته.

فقد أشارتْ بعض الاقتراعات إلى صعود نَجْم حزْب فيلدرز اليميني المتطرِّف، وتحصيله ١٨٪ من المقاعِد في ظلِّ نظام تمثيل برلماني هولندي، لا يسمح لحزبٍ بعَيْنه أن يحقق أغلبيةً مُطلقة، بل نسبية، وكذلك في ظلِّ توقُّعات ببقاء حزْب «فيلدرز» ضمنَ صفوف المعارضة، بدلاً مِن تولِّي تشكيل حكومة ائتلاف.

وقد أثار صعود نجم «فيلدرز» كثيرًا من المراقبين السياسيين، بالإضافة إلى اعتباره برهانًا آخرَ على اجتياح موجةٍ جديدة مِن كراهية الإسلام لأوروبا، بالرغم مِن اعتراض «فيلدرز» على أن يُقارنَ بمرشح الانتخابات الفرنسية لعام٢٠٠٢ «جان ماري لوبان» اليميني المتطرِّف، و«يورج هيدر» زعيم حزب الحرية اليميني المتشدد النمساوي الذي لقي حتفَه عام ٢٠٠٨ في حادث سيارة.

وممَّا يدعم وجودَ هذه الموجة «الاستفتاء السويسري ضدَّ بناء المآذن»، وكذلك «حظر الحجاب - النِّقاب - بالمباني العامَّة»، وكذلك استعدادُ الأحزاب المعادية للهجرة والمهاجرين بالبلدان الأوروبيَّة الأُخرى؛ للقيام بدورها».

«هل يعتبر «الإسلاموفبيا» الدافع لنمو مساندة حزب الحرية؟ ولماذا تشكِّل الأحزاب المعادية للإسلام أو المعادية للهجرة في هولندا هذه القوَّة، وليس في دولة مثل إسبانيا؟ هل القضية مُتعلِّقة باندماج مجموعاتِ المهاجرين الجُدد أكثر مِن كون ذلك مقصودًا به الخصائص الثقافيَّة والسياسيَّة الإسلاميَّة؟

فإنَّ الدول ذات الكثافة الإسلاميَّة الكبيرة هي تلك التي تأتي على رأس قائمة الدول التي تشهد العَداءَ للإسلام والمسلمين، ويظهر ذلك من خلال الجدول التالي:

فالدول الثلاث التي تشهد أعْلى كثافة إسلامية في السنوات الأخيرة: فرنسا، وهولندا، وسويسرا هي التي تأتي على رأس قائمة الدول التي تحمل مشاعرَ العَداء للمسلمين ضمنَ بلدان أوروبا الغربيَّة.

ومن العوامل التي يُظنُّ أنها الدافع وراء تلك المواقِف العدائية تجاه الإسلام والمسلمين:

١- حالتَا رفض العَوْلَمَة، والشكوكيَّة الأوروبيَّة العامة.

٢- الاهتمام الزائد برعاية مصالِح أهل البلاد الأصليِّين؛ بسبب سوء الأحوال الاقتصاديَّة.

٣- مشكلات مستوى الخِدْمات الاجتماعيَّة داخل التحالفات الحكوميَّة.

٤- القلق مِن ارتفاع الكثافة السكانيَّة.

٥- الخوف المتزايد مِن الجريمة.

٦- الخوف المتزايد من العُنْف والإرهاب.

٧- ارْتفاع الكثافة السكانية الإسلامية في دولٍ وبلدانٍ أوروبيَّة مُعَيَّنة.

هولندا:

يَعيش في هولندا قُرابة مليون مسلم يُشكِّلون ٥،٨٪ من الكثافة السكَّانية، وطبقًا لتقرير حول مواقف الهولنديِّين من المسلمين، صَدَر عن مركز «بيو» للدراسات والأبحاث عام ٢٠٠٥، تشهد هولندا آراءً متضاربة بيْن صفوف المعادين للإسلام، فالذين يحملون آراءً إيجابيَّة تجاه جيرانهم المسلمين يُشكِّلون ٤٥٪، مقابل ٥١٪ يحملون آراءً سلبيَّة.

ويرى ٦٥٪ أنَّ المسلمين يرغبون في عدم الاندماج في ثقافة المجتمع الهولندي، مقابلَ ٧٦٪ يخشون بقدرٍ ما مِن تأثير الأُصوليَّة الإسلاميَّة على هولندا.

وقد شَهِد العقد الماضي مقتلَ المخرِج الهولندي «ثيو فان جوخ»؛ لإساءته البالغة للإسلام وشريعته؛ مِن خلال أحد أفلامه، كما شَهِد أيضًا مواقف السياسي المتطرِّف

«بيم فورتين»، والذي يَعتقد أنَّ هجرة المسلمين الأصوليِّين من الدول المحافظة تُهدِّد مبادئ المجتمعات المفتوحة، وثقافة الليبراليَّة، والمساواة بين الجِنسَيْن، وحرية ممارسة الجنس بصُوَرِه المختلفة، وحريَّة التعبير.

وقد سعى «فيلدرز» لتحقيق تحالُف مع المشاركين في الانتخابات، مماثلٍ لذلك الذي كان عليه «فورتين».

ومِن العوامل المؤثِّرة التي يمكن اعتبارها، والتي تختصُّ بهولندا: التحسُّن النِّسبي للأوضاع الاقتصادية؛ حيث وصلتْ نِسبة البطالة إلى ٤٪ في فبراير ٢٠١٠، بالإضافة إلى أنَّ معدَّل المواليد بلغ ١،٦٦، ومتوسط الأعْمار ٤٠،٤.

كما أنَّ لهولندا قواتَ مشاركة في احتلال «أفغانستان»، وهو السبب الذي أدَّى إلى سقوط حكومة «بالكينيد» في فبراير الماضي.

فرنسا:

يُقيم بفرنسا ما بين ٣،٥ – ٥ ملايين مسلم، يُشكِّلون ٦،٥ – ٨٪ من الكثافة السُّكانية، وطبقًا لمركز «بيو» للدراسات والأبحاث يحمل ٦٤٪ من الفرنسيِّين آراءً إيجابيَّة تجاه المسلمين، مقابل ٣٤٪ ممن يحملون الآراءَ السلبيَّة.

ويرى ٥٩٪ من الفرنسيين أنَّ المسلمين يرغبون في عدم الاندماج في ثقافة المجتمع الفرنسي، بينما أعلن ٧٤٪ خوفهم من تأثير الأصولية الإسلامية على الأجْوَاء الفرنسيَّة، وكذلك يرى ٥٠٪ أنَّ المسلمين يتعصَّبُون لدينِهم بشدَّة.

ومِن المعلوم أنَّ فرنسا ظلّت تُعاني من اضطرابات في علاقتها بمجتمعها ذِي الثقافات المختلفة، والتعدُّديَّة الدِّينيَّة.

فقد كانت فرنسا إمبراطورية احتلاليَّة تتبنَّى فلسفة أنَّ كل مواطن مِن الجزائر إلى

«كايين» هو مواطن فرنسي، بالإضافة إلى توقُّع تخلِّي كلِّ مهاجرٍ إلى فرنسا عن هُويَّته والتحلِّي بهوية «الغال»، وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على شعوب «سلتية»، التي كانت تمتدُّ على شمال إيطاليا، وفرنسا، وبلجيكا.

وقد شَهِد عام ١٩٠٥ تأسيسَ قانون السياسة اللادينيَّة الرسمية، والتي تنأى قليلاً إلى العلمانيَّة.

وبالرغم مِن استهداف العلمانية تحقيقَ التآلف الاجتماعي من خلال فصل الدِّين عن الهُويَّة القوميَّة، إلا أنَّ ذلك قد أدَّى إلى حظْر الحجاب.

وعقب ذلك حصل زعيمُ حزب الجبهة القوميَّة اليميني المتشدِّد «جان ماري لوبان» على ١٧٫٨٪ من الأصوات بالانتخابات الإقليميَّة، وفي عام ٢٠٠٢ تمكَّن «لوبان» من هزيمة العديدِ مِن المرشَّحين الاشتراكيِّين؛ لينافس «جاك شيراك» في الجولة الأخيرة، والتي شَهِدت هزيمته؛ بسبب انقسامات تصويت متعدِّدة بين مرشَّحي الوسَط اليَسَاري.

وأمَّا البطالة في فرنسا، فقد بلغتْ في فبراير الماضي ١٠٫١٪، وأمَّا معدَّل المواليد، فهو الأعلى أوروبيًّا بصورة نسبيَّة؛ حيث بلغ ١٫٩٨٪، ويبلغ متوسط أعمار الفرنسيين ٣٩٫٤.

هذا ومنذ العقد الماضي تشهد فرنسا حالةً مِن ارتفاع معدَّل الجريمة، وحالةً من التوتُّر الاجتماعي؛ فقد وقعتْ عمليات شَغَب واسعة خلالَ التوتُّر الاجتماعي بمدينة «باريس» عام ٢٠٠٥؛ مما دَفعَ «نيكولاس ساركوزي» وزير الداخلية حينئذٍ إلى تأييد انتهاج سياسة صارِمة تجاه الأحداث.

سويسرا:

يُقيم ٤٠٠ ألف مسلم، يشكِّلون ٥٪ من الكثافة السُّكانية لسويسرا، والتي كانت

بمعزلٍ عن الأحداث، بالإضافة إلى كونها أقلّ الدول الأوروبيّة قَبولاً للمهاجرين.

إلا أنّها بدأتْ تشهد نموًّا للأقليّات المهاجِرة منذ السبعينيات؛ حتى بلغ ذلك النمو ٢٢٪ عام ٢٠٠٩.

ومِن الجدير بالذِّكْر أنَّ معدَّل البطالة بسويسرا يشكِّل نسبة ٤و١٪، وهو معدَّل منخفض نسبيًّا، وكذلك نسبة المواليد ٤٥و١، وهي أيضًا نسبة منخفضة.

إسبانيا:

وأمَّا إسبانيا والتي تتميَّز عن سائر الدول الأوروبية؛ بأنها كانت أكبر دول الاتِّحاد الأوروبي التي خضعتْ سابقًا للحُكم الإسلامي، فيقطنها اليوم قُرابة مليون مسلم، يشكِّلون ١ - ٢٪ من الكثافة السُّكانية.

ويرَى ٦٨٪ من الإسبان أنَّ المسلمين يرغبون في الابتعاد عنِ الاندماج في الثقافة العامَّة للمجتمع الإسباني، كما يحمل ٤٦٪ من الإسبان مواقفَ إيجابية تجاه المسلمين، مقابل ٣٧٪ يحملون آراءً سلبيَّة.

وقد أشار اقتراعٌ عُقِد في يونيو ٢٠٠٤ عَقِب أحداث تفجيرات قطار مدريد ٢٠٠٤ - والتي اتُّهِمَ فيها المسلمون - أنَّ ٨٠٪ من الإسبان يرون الإسلام دينًا شموليًّا يحضُّ على العُنف.

وتُعاني إسبانيا مِن أزمة مساكن متزايدة، كما أن معدَّل البطالة وصل إلى ١٩٪، بالإضافة إلى أنَّ معدَّل المواليد وصل إلى٣١و١، وهو من أدْنى معدَّلات المواليد الأوروبية.

وقد شاركتْ إسبانيا بقوات في احتلال العراق، بالرغم مِن المعارضة الشعبيَّة الكبيرة للمشاركة في ذلك الاحتلال، إلا أنَّ هذه القوات قد تمَّ سَحْبُها عقب تولِّي

«لويس رودريجز ثباتيرو» - الاشتراكي- الحكومةَ عقب انتخابات ٢٠٠٤.

وبالرغم من الظروف التي تمرُّ بها إسبانيا إلا أنَّها لا تشهد حراكًا سياسيًّا ملحوظًا ضدَّ الإسلام، ولعلَّ هذا بسبب النظام السياسي الإسباني المتأثِّر بالنَّمَط السياسي لعصر «فرانسيسكو فرانكو».

إلا أنَّ اليسار الإسباني له نشاطٌ ملحوظ، خصوصًا في مجال الدِّفاع عن حقوق المرأة والشواذ، بينما لا يزال اليمينُ الإسباني ملتزمًا بنُظم المؤسسات العسكرية الكاثوليكية، وأمَّا يمين الوسط، فقائم على الْتِقاط المحافظين التقليديين.

وفي ظلِّ هذا، فالمسلمون يشكِّلون مجموعةً قليلةً نسبيًّا، مقارنة بالانفصاليين «الباسك» ذوي النشاط الثقافي والسياسي الكبير في المجتمع الإسباني.

وأمَّا بالنسبة لقضايا الهجرة الإسلامية، فإنَّها لا تمثِّل مشكلةً كبيرة لإسبانيا، مقارنة بالدول الثلاث السابقة.

وعلى صعيدٍ آخرَ فالدول التي تشتمل على مجتمع إسلاميٍّ متوسِّط متمركِز في بعض المناطق، كالمملكة المتحدة، وألمانيا، والنمسا، قد بدأتْ تأخذ قضايا المسلمين فيها بُعدًا سياسيًّا بوجهٍ ما.

فكلٌّ مِن الدول الثلاث تشهد صراعًا سياسيًّا تُجاهَ هذه القضايا، ولكن ليس على نفس النَّمَط العدائي للإسلام في فرنسا، وهولندا، وسويسرا، ولعلَّ هذا يرجع سببُه إلى أنَّ ألمانيا والنمسا لدَيْها سيطرة قوية على الأحزاب المتطرِّفة، كما أنَّ المملكة المتحدة لديها نظام ما قَبْل الانتخابات، والذي يعمل على تهميش الأحزاب الضعيفة.

وعلى كلِّ حال فقوَّة «الحزب القومي البريطاني» المتنامية، والذي يجاهد مِن أَجْل

الفوز في دائرتين بمجلس العموم، و«الحزب القومي الديمقراطي الألماني»، والذي نجا من محاولة لحظْره في فترة مُبكِّرة من عام ٢٠٠٢، وكذلك نجاح «حزب الحرية النمساوي» في العقد الأخير، فكلُّ هذا يجب أنْ يُؤخذَ به في الحُسْبان، بالرغم مِن أن هذه الأحزاب ليس لدَيْها مستوى عداء الإسلام، الذي ينتهجه حزب فيلدرز الهولندي، ولوبان الفرنسي، وحزب الشعب السويسري.

وفي النهاية فهُناك براهينُ كثيرة؛ لنقول: إنَّه كلَّما تزايدتِ الكثافة الإسلامية بالبلدان الأوروبيَّة، فالمشاعر والخطابات المعادية للإسلام تشهد نموًّا مساويًا بين صفوف الأحزاب اليمينيَّة، واليمينية المتطرِّفة.

ومن الجدير بالذِّكْر الإشارة إلى أنَّ قوة ومُدة تلك الموجة التي تشهدها أوروبا ستعتمد بصورةٍ كبيرة على كيفيَّة التعامُل مع المعارك الحالية، والتي بالطبع يجب أنْ تكونَ مِن خلال مزيدٍ من الاندماج من قِبَل المهاجرين المسلِمين، ومزيدٍ من حقوق تحديد الهُويَّة الذاتية الاجتماعية التي تسمح بها البلدان الأوروبيَّة، وكذلك بالنظر إلى مدى نمو الكثافةِ الإسلامية.

المصادر

١. أرنولد توينبي «الإسلام والغرب والمستقبل»، ترجمة نبيل صبحي، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٩ م.

٢. ريتشارد نيكسون (الفرصة السانحة)، ص : ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ترجمة أحمد صدقي مراد، طبعة دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٢ م.

٣. نقلاً عن صحيفة (الشرق الأوسط)، لندن، في ١٩٩٩/ ١٠/ ١ م.

٤. (النيوزويك) ٢ يوليو ١٩٩٠ م.

٥. «التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي» ـ الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو، ص ٤٥٢، طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١ م .

٦. الفريد ليلنثال ولد سنة ١٩١٣ في نيويورك، مؤرخ وصحافي، كتب في سنة ١٩٤٩ مقالاً بعنوان «عَلَمُ إسرائيل ليس عَلَمي» (Israel's Flag is not Mine) أثار ردود فعل واسعة في الأوساط اليهودية الأمريكية بسبب موقفه المناهض للصهيونية، أهم كتبه «الشبكة الصهيونية» (The Zionist Connection).

١- د. محمد توفيق البحيري – استهداف العرب والمسلمين، الحقوق المدنية في خطر تحرير إيلين ك . نحو بيان/ مكتبة العبيكان/ ٢٠٠٦/ الرياض

٧. د.زينب عبد العزيز/ الفاتيكان والإسلام/ دار الكتاب العربي/ دمشق/ ٢٠٠٥.

٨. أحمد المخزنيجي/ العدل والتسامح في ضوء الإسلام/ سلسلة الفكر/ الهيئة العامة للاستعلامات/ القاهرة/ ٢٠٠٦.

٩. د. عبد الكريم العلوجي/ الأعمدة السبعة للمستقبل العربي/ دار الكتاب العربي/ القاهرة ٢٠٠٨.

١٠. د. عبد العظيم محمود الديب/ المنهج في كتاب الغربيين عن التاريخ الإسلامي الغزو الفكري في التصوف الإسلامي/ مجلة الأزهر

١١. د. فوزي مهدي/ الثقافة والتجدد/ كتاب الأسرة

١٢. د. زكي نجيب محمود/ ثقافتنا في مواجهة العصر.

١٣. فتحي عبد العليم/ بحث لم ينشر

١٤. روجيه جارودي/ أمريكا طليعة الانحطاط تقديم كامل زهيري.

١٥. تعريف عمرو زهيري/ دار الشروق

١٦. المصدر نفسه

١٧. المصدر نفسه

١٨. د. فهمي الشناوي/ مجلة المختار الإسلامي/ القاهرة/ العدد١١/ السنة الأولى/ ١٥ جمادي الثانية/ مايو ١٩٨٠.

١٩. د. هالة مصطفى/ مجلة النور

٢٠. د. أحمد القديري/ الإسلام وصراع الحضارات/ كتاب الأمة/ سلسلة فصيله تصدر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية/ قطر/ طبعة خاصة بمصر دار أخبار اليوم/ مايو ١٩٩٥.

٢١. د.السيد آمين شلبي/ تبدد الحكم الأمريكي ومستقبل القوي في العالم/ القاهرة:/ مجلة الهلال/ نوفمبر/ ١٩٨٩.

٢٢. معمر خليل/ موقع الدعوة الإسلامية/ ٢٠١٠.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة